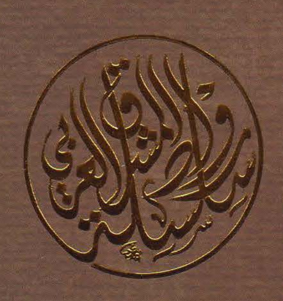


مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النّفود، بحثاً عن الوضيحي

تأليف: دوغلاس كاروثرز

ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

رواد المشرق العربي

مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النفود

بحثاً عن الوضيحي (ظبي المَها) عام 1909م

للرحّالة البريطاني

دوغلاس كاروثرز



ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207 .C312 2012

Carruthers, Douglas, 1882-1962
[Arabian adventure]
مغامرة في جزيرة العرب : عبر صحراء النفوذ بحثا عن الوضيحي (ظبي المها) عام 1909م / دوغلاس كاروثرز ؛ ترجمة و تعليق: أحمد إيش. ط. 1.- أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : Arabian adventure
تدمك : 978-9948-17-065-5
1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. 2.المها العربي
أ. إيش، أحمد. ب. العنوان. ج. السلسلة.





الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

مغامرة في جزيرة العرب

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

بيـن أيدينا اليوم كتابٌ ممتع وشـائق وثميـن، يروي وقائع رحلة استكشـافيّة جريئة بأكنـاف صحـراء النّفود في شـمالي جزيرة العـرب، لمغامر بريطاني لم يسـمع به أكثر مثقفينا وباحثينا، هو دوغلاس كاروثرز، وذلك لعدم نقل نصّ كتاب رحلته إلى العربيّة منذ نُشـر قبل 77 عاماً (1935)، وطبعاً لندرة كتابه وشبه استحالة الحصول على نسخة منـه. وقـد طال بحثي عنه طوال سـنوات طويلـة إلى أن ظفرتُ أخيراً بنسـخة نادرة من أميركا[1] أعتزّ جداً بامتلاكها.

ولـد ألكسـاندر دوغـلاس ميتشـل كاروثـرز Alexander Douglas Mitchell Carruthers فـي لنـدن عام 1882، وهو رحّالة ومستكشـف وباحـث طبيعة بريطاني، كان ابن القسّـيس وليَم ميتشل كاروثرز كاهن هولبروك، واشتهر برحلاته الاستكشافيّة في الشرق الأوسط في مطلع القرن العشرين.

عندما كان في سـن 23، شارك دوغلاس (وهو الاسم الذي عُرف به أكثر من سواه) بحملـة نظّمهـا المتحف البريطاني إلـى روينزوري Ruwenzori فـي الكونغو 1905-1906 وجلـب معـه نمـاذج من الطيـور والثدييات. ثم اشـترك فيما بعد مـع جون ميلر John H. Miller ومورغـان فيليبـس پرايـس Morgan Philips Price فـي بعثـة عبـر صحراء منغوليا القصوى، ونشـر عنها كتاباً بعنـوان: *Unknown Mongolia* «منغوليا المجهولـة» فـي عـام 1913. وخـلال الحـرب العالميّة الأولـى تم تجنيـده في مكتب

(1) دائماً أكتب اسم أميركا هكذا في سلسلة «روّاد المشرق العربي»، وليس كالشائع: أمريكا، وهو أدق في لفظ: America المشتق من اسم المستكشف الإيطالي الفلورنسي أميريغو ڤيسپوچي Amerigo Vespucci ومعنى اسمه: «مُحبّ الملك».

الحرب ليقوم بتجميع الخرائط حول الشرق الأوسط، ثم تركّز عمله لاحقاً على رسم الخرائط والعمل إلى جانب المستكشفين والرّحّالة.

في عام 1910 حصل دوغلاس كاروثرز على جائزة جيل Gill التذكاريّة، وفي عام 1912 على الميداليّة الذهبيّة للجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة، وقد خدم في هذه الجمعيّة كأمين سرّ شرف ما بين أعوام 1916-1921 وعُيّن زميلاً فيها ما بين 1909-1962. وفي عام 1956 نال ميداليّة سايكس Sykes من جمعيّة آسيا الوسطى الملكيّة.

ألّف كاروثرز عدّة كتب (نذكرها أدناه)، وجمع عدداً كبيراً من النّماذج الطبيعيّة، ما زال بعضها إلى اليوم الوحيد من نوعه في المتحف البريطاني، وبعضها يحمل اسمه: "nnn Carruthersi". ولدى وفاته آلت أوراقه وكتاباته كلها إلى الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة بلندن.

* * *

بقي أن أشير إلى أن أسرة كاروثرز تنتمي إلى مكان يسمّى بهذا الاسم Carruthers (ويُلفظ: كارَّثرز) في مقاطعة دَمفريشر Dumfriesshire والاسم مشتق من العبارة البريتونيّة: Caer التي تعني الحصن، واسم العلم Rhyther أو Rydderch الذي يُعتقد أنه يعود إلى الملك Roderc. ومحليّاً يسمّى الموضع بلفظ: Cridders «كريدرز» لكنني آثرت كتابة الاسم: كاروثرز بدلاً من كارَّثرز لتسهيل نطقه بالعربيّة.

* * *

وختاماً، نترك القارئ الكريم مع نصّ هذه المغامرة الشائقة في مفاوز صحراء النّفود بحثاً عن «أسطورة المَها» التي حيّرت الباحثين وعلماء الطبيعيّات ردحاً طويلاً من الزمن، حتى حلّ مغاليقها دوغلاس كاروثرز في رحلته من دمشق إلى النّفود عام 1909، ونرى كيف أنّ هذا الرحّالة الرّائد قد جمع ما بين العزيمة والإصرار على مواجهة المخاطر والصّعاب، والتمكّن من أدوات البحث العلمي على أصولها.

يذكر الرّحّالة أوين لاتيمور Owen Lattimore الذي تتلمذ على يديه في استكشاف

مجاهل آسيا الوسطى: «لم يكن دوغلاس كاروثرز قطّ باحثاً عن الشهرة، بل كانت الحقيقة مبتغاه، ولا ريب أنه كان بعيداً عن تحصيل الثناء مفضلاً عنه حبّ المعرفة. لقد كان باحثاً أصيلاً عن الحقيقة ولا يعنيه الادّعاء والتفاخر».

وأخيراً، يذكّرنا هذا البحث عن ظباء المَها بقول شاعرنا الكبير عليّ بن الجهم عندما مرّت به غادة بغداديّة حسناء ورمقته بعينيها الجميلتين:

عيونُ المَها بين الرُّصافةِ والجِسرِ جَلبنَ الهَوى مِن حيثُ أدري ولا أدري
أعَدنَ ليَ الشَّوقَ القديمَ ولم أكُن سَلَوتُ ولكنْ زِدنَ جَمراً على جَمرِ

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 3 فبراير 2011

د. أحمد إيبش

مؤلفات دوغلاس كاروثرز

"Unknown Mongolia : a record of travel and exploration in north-west Mongolia and Dzungaria" with three chapters on sport by J. H. Miller, and a foreword by Earl Curzon of Kedleston - London: Hutchinson,1914.

"The desert route to India: being the journals of four travellers by the Great Desert Caravan Route between Aleppo and Basra, 1745-1751.", 1929.

"Notes on the Maps Illustrating the Exploration in Mongolia and Dzungaria" 1913.

"Notes on the Journey to the Arpa and Ak-Sai Plateaus in Russian Turkestan-&-Neve, Arthur the Ranges of the Karakoram", 1910.

"A Journey in North-Western Arabia", 1910.

"Arabian Adventure, to the Great Nafud in Quest of the Oryx", H.F. & G. Witherby Ltd., London, 1935

"Further Information on the Turgun Or Kundelun Mountains in North-Western Mongolia, and Notes on a New Map of This Region," [From] the Geographical Journal. Vol. XLIV (1914).

"Reminiscences of Gertrude Bell", Journal of the Royal Central Asian Society, Volume 45 Issue 1 1958.

"Beyond The Caspian." 1949.

Ibis vol. XVI.— "On some Birds collected by Mr. Douglas Carruthers in the Syrian Desert", P. L. Sclater D.Sc., F.R.S., British Ornithologists Union, 1906.





دوغلاس كاروثرز

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الاسماء الإنكليزيّة: چِستر، چِڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3 - أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم

Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڤوڤل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف

g للجيـم اللهويّة، كقولهـم: gerçek (غِرچِك)، وحرف c للجيم الشّـجريّة، كقولهم: geceler (غِجِلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّـا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشـكلة، إذ ليس لديهم جيم شـجريّة أصلاً بل لهويّة فحسـب، كما في: Gewehr (غيڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء الأجنبيّة لقوا فـي ذلك التباريـح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّـة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسـپان، فحرف G له أحكام واسـعة يطول شـرحها، فالأصل في القشـتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنـة يلفظ خاءً، ومن النّاحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسـمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراغون.

* * *

أمـا التعبيـر في العربيّـة عن حرف الجيـم اللهوي بكتابتـه جيماً (كما فـي مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شـجري مُشـبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهـوي مُشـبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتـى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتـب: جرناطة، البرتجال، بلجاريـا، مجنطيس.. أم هل نسـمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

ARABIAN ADVENTURE

TO THE GREAT NAFUD IN QUEST OF THE ORYX

By

DOUGLAS CARRUTHERS

THIRTY-THREE PLATES AND TWO MAPS

LONDON
H. F. & G. WITHERBY, LTD
326 High Holborn
1935

نموذج عنوان الطبعة الأصلية، لندن 1935



المؤلف الرّحّالة «الشّراري» كما لقّب نفسه

تمهيـــد

حاولتُ من خلال الصّفحات التالية تأكيد قول داوتي Doughty المأثور: «من نافل القول إنّ قِفار شبه جزيرة العرب غنيّةٌ في تنوّعها»، وفضلاً عن ذلك أردتُ البرهنة على أن رحلـةً في صحراء شـبه الجزيرة تُعادل من حيـث إثارتها أيّة رحلة أخرى، ومن وراء ذلك هدفت إلى تبيان كيف أنّ من شأن الهوى أن يدفع بصاحبه للبدء برحلة لا حدّ لها من الاكتشافات، وأن الكنز لا يقارن بالصّيد.

من خلال بحثي عن المَهاة في موطني وفي الخارج، عليّ الاعتراف بفضل مساعدة العديـد مـن الأصدقـاء، ولكنني مَدين على الأخـص للورد بِلهافـن Lord Belhaven والسّـير پِرسـي كوكـس Sir Percy Cox اللذيـن دفعانـي للكتابة ونقّحـا الكتاب قبل طباعتـه وأدليا بالعديد من المقترحات القيّمة. كما أنني مَدين أيضاً بالشـكر إلى السّـير وليام فوستر Sir William Foster المرجع الذي لا يمكن لكل من يبحث في المناطق التـي تربـط بين أوروبا وآسـيا اليوم أو لاحقـاً تجاهله، وأنا ممتنّ للسـيد فيلبي H. St. J. B. Philby الذي قدّم لنا الكثير من المسـاعدة لحل بعض مشـاكل الحياة البرّية في جزيـرة العـرب، وإلى السّـيد نورمان كينيـار N. B. Kinnear من المتحـف البريطاني (التاريـخ الطّبيعـي) الـذي كان علـيّ الاعتمـاد كثيـراً على خبرتـه. كما أتقدم بالشـكر الجزيل للكولونيل تي إي لورَنس Col. T. E. Lawrence على تعاونه لسنوات طويلة في محاولة منه للإجابة على مختلف ألغاز الطّبيعة والجغرافيا، وذلك من أجل تمكيننا من تطوير خرائط ديرة الشّرارت التي كانت غير وافية.

هذه القفار التي وصفها بأنها «الصّحراء الحقيقية»، كنتُ قد شهدتُ أنا وإيّاه وحدنا

أشـقّ ما فيها: قفار فَجر Fajr والبسَيطاء[1] Bisaita، لذا قدّم لي ذلك الجزء المسـمّى «نص أوكسفورد» الذي تمّت طباعته عام 1922، والذي شكّل سفر التكوين المتكامل الذي نجم عنه كتابه «أعمدة الحِكمة السّبعة». أرسـله لي مع ملاحظة تقول: «أنا أدرك الكلمة الرّهيبة عن الجغرافيين في منتصفه!». وإنني أغفر له ذلك، لاحتواء هذه الفصول التسـعة على تأكيد هوغارث Hogarth في «قصّـة العمل البطولي لاجتياز لورَنس لبلد العدوّ مع عُودة أبو تايه لرفع معنويات رجال قبيلة الحويطات في وادي السّرحان».

كما إنني مدين باسـتخدام عدة صور، ليسـت من تصويري، للسـيد دبليو شيكسپير W. Shakespear الـذي سـمح لي بإعادة نسـخ صورتيـن تم تصويرهما مـن قبل ابنه الرّاحل الكاپتن (النقيب) W. H. I شيكسـپير، وقد اسـتخدمتُهما لدى كتابة شـرح عن رحلته عبر جزيرة العرب معتمداً على مذكراته المحفوظة. أما سـبب اسـتخدامي لعدّة صور فريدة للحياة البدوية كان قد التقطها السّيد كارل رضوان[2] C. Raswan، فلأنها تعطـي بدقة توضيحـاً فعلياً للكلمات المكتوبـة في النّص الذي قدّمته. لقد عبّر السّـيد رضـوان وبنجـاح عن رومانسـية قبائل البـدو الرُّحّل بوسـاطة آلة التصويـر، كما نجح داوتي Doughty في ذلك بقلمه من قبل.

وثمّة صورتان لجبل طُبيق أعدت نسـخهما بإذن من أمين شـؤون القوى الجويّة الملكية البريطانية، وبالتالي سددتُ فجوة فادحة في سلسلة الصّور الخاصّة بي، موضحاً منطقة ذات أهمية خاصة. أما الصّورة الوحيدة للمَهاة العربيّة البريّة في الصّحراء الجنوبية الشّاسعة فأنا مديـن بها لصديقي الكولونيل بوسـكاون M. T. Boscawen، وصورة أخرى نادرة للنَّعام

---

(1) يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربيّة السّعوديّة: البُسيطاء، وهكذا سأكتبه في الكتاب، لكنني أشير إلى أنّ المنطوق العامّي لأبناء المنطقة هو: «البُسَيطا» ولا تُلفظ الهمزة الأخيرة.

(2) هو الرّحالة ومربّي الخيل الألماني كارل راينهارد Carl Reinhard (1893-1966) قام في عام 1911 برحلة إلى الشرق تعرّف بها إلى بعض شيوخ قبيلة ولد علي ثم إلى الشيخ الشاب فوّاز الشعلان حفيد شيخ الرّوَلة النّوري الشعلان، وأغرم راينهارد بالخيل العربيّة وبحياة البداوة، حتى أنه كنّى نفسه باسم: كارل رضوان، وألّف عدة كتب عن رحلاته وعن الخيل، سننشرها تباعاً في سلسلة «روّاد المشرق العربي».

العربي أدين بها للميجور (الرّائد) آر. إي. تشيزمان R. E. Cheesman.

ويبدو أنني قد تأخرت بالاعتراف بالمساعدة التي تلقيتها من وقت طويل، لكن إذا ما قرأ السّيد ج. پ. ديڤي G. P. Devey الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في دمشق آنذاك هذا العرفان بالجميل فلسوف يعرف بأنني لم أنسَ التعاطف الذي أبداه لمشروعي، ولم أنس الدّپلوماسية التي سمحت لي بالهروب من عنايته! كما أنها ستعود بذاكرته إلى مطاردات الصّيد العديدة على ظهر الحصان التي استمتعنا بها معاً قريباً من دمشق.

كما أن الاعتراف بالمساعدة الشّخصية التي تلقيتها من عدّة أشخاص آخرين قد فات أوانها، فعلى سبيل المثال، هناك شخصية بطولية هي الدّكتور فرانك ماكينون[1] Frank Mackinnon، من مستشفى ڤيكتوريا بدمشق، وهو شخصية لامعة في سوريا في تلك الأثناء، وصل تأثيرها بعيداً إلى قلب جزيرة العرب. كما كان هناك أيضاً البروفسور داي A. E. Day، من الكلية الأميركية في بيروت، الذي قمت بهذه الرّحلة الموصوفة هنا فعلاً بالنيابة عنه.

وأنا مدينٌ للدكتور داڤيد جورج هوغارث[2] D. G. Hogarth كما هو حال جميع الرّحّالين في جزيرة العرب الذين يدينون له جميعاً. والحق أن فضله لا يُنسى، فقد قام وبأمانة بتسجيل الأعمال التي قام بها جميع من وصل بالفعل الى جزيرة العرب، لقد كان فيلسوفاً وصديقاً في حياته، لمن ألقت عليهم صحراء شبه جزيرة العرب تعويذتها القاتلة، وما برح اسمُه كذلك مصدر إلهام لمن تبعه من النّاس.

لندن، مايو 1935

---

(1) واسمه الكامل: Frank Irving Mackinnon وهو كندي الجنسيّة، يرد اسمه في كتاب رحلات ومغامرات الكونتيسة مالميناتي: «رحلة إلى المدينة المنوّرة عبر صحارى البرّ الدّاخلي» إبّان إقامتها بدمشق عام 1914، إنما بصيغة مغلوطة: الدكتور مَكينا Dr. McKenna والكتاب قيد النشر في سلسلة «روّاد المشرق العربي».

(2) كان كتابه الثمين *Penetration of Arabia* أول كتاب أترجمه لسلسلة «روّاد المشرق العربي»، وصدر قبل ثلاثة أعوام بعنوان: «ارتياد جزيرة العرب».

ملحوظة

منذ بدأتُ بالذهاب إلى المطبعة، فإن مأساة وفاة توماس إدوارد لورَنس .T. E Lawrence تلزمني بأن أبيّن أن اقتباسي لكتاباته ورسائله قد تمّت بموافقة من المنفّذين لوصيته.

* * *

«وقفتُ مرة أخرى تحت السّماء الصّافية، في هواء طلق كالأثير يكاد أن يشعل أرواح الرّجال فتفور كالنبيذ. رأيتُ مرّة أخرى نجمة المساء مدلاّة كمصباح ذهبي من قبّة السّماء الغربية، والشّفق يفيض سحراً على ملامح المشهد فيحوّله من اللون البني الأصحر إلى أرض مضاءة بسحر الجمال، يكاد سنا بريقه لا يشعّ على غيرها من أراض أو بحار. ثم تلوح خيام البدو الصّوفية الطّويلة السّوداء والمنخفضة، مجرد نقاط في فضاءات لا حدود لها، ونار المخيم كيُسروع يضيء وسط القرية. يزيد من روعة المنظر تلك الأغاني البرية الغريبة التي تتناهى من بعيد بأصوات الفتيان والفتيات وهم يسوقون قطعان أغنامهم وماعزهم ويهشّون عليها عبر الغسق، وصوت غناء حادي الإبل المتتبع لجماله، مختلطاً بثُغاء الأغنام وخوار الجمال ذوات الأسنام، بينما تطير الخفافيش فوق الرّؤوس بصرخاتها الحادّة وعواء بن آوى يمزّق الظلام، فيما تتمثّل روعة اللحن الموسيقي بمقطوعة من حفيف أشجار النّخيل المتحاورة مع همسات نسيم الليل على ألطف وقعٍ للمياه المتساقطة».

السّير ريتشارد بُرتون

الافتتاحية

قد تبدو حياة أحد هواة جمع الطّيور النّادرة والحيوانات الغريبة في الأراضي النّائية مثيرة جداً للاهتمام، غير أن ذلك ليس بالعمل السّهل أو اللطيف. فعالِم الطّبيعة يعيش حياة كفاف، يكاد دخلُه لا يسدّ رمقه خلال فترة عمله، ولا يستغني إلا في وقت لاحق، عندما يصبح لديه متسعٌ من الوقت لاسترجاع شريط ذكرياته الطّويل الذي يمثل إرثه من السّفر. وما يعتبره الآخرون لعنة، يراه هو متعة الحياة.

أن تصبح مكتشفاً لصنف جديد هو حدثٌ عارض على المتعة المستمدّة من العيش في أراضٍ ربما كانت في فترة من الفترات مسرحاً لأحداث عظيمة كان قد رسمها التاريخ، أو بالنسبة للفضول الذي يثيره التعرف إلى قبائل تكاد تماثل في بُعدِها عن الحضارة بُعد رجال الكهوف عنها. فقضاء ربيع في تدمُر، على سبيل المثال، يعطيه نظرة ثاقبة للتعرّف إلى الظروف التي عاشها الملوك البابليون والملوك الأشوريون حين اجتاحوا الفلسطينين والفينيقيين، بينما تمنحه الحياة في شمال الهمالايا شعوراً بالزمالة مع الإسكندر الأكبر والمغول الذين فتحوا أقطار المعمورة. والتعرّف عن قرب إلى الأمجاد العمرانية لبعض المدن الشّرقية هي تجربة لا يمكن تجاهلها، وحجر الجاد الكريم الصّيني يشكّل أكبر إغراء قد تراه، إذا رأيت تلك الصّخور الحادّة التي يتمّ استخراجه منها على ضفاف ذلك النّهر.

غير أن حجم العمل أقلّ عند جامعي الطّيور بين أشجار الأرز اللبنانية أو في منطقة ضريح ڤينوس ويترك ذكرياتٍ لا تُمحى. هذه الملذات عرضيّة بالنسبة للحياة التي يتوجّب على علماء الطّبيعة عيشها منفردين بشكل محتّم، والتي جعلوا منها حياة

زاخـرة بكل معنى الكلمـة. عانيتُ وأنا صغير مـن الاضطرابات المزمنـة، ومنذ نعومة أظفاري كانت لي ثلاث رغبات كبيرة، ألا وهي: عبور ما كان يسمّى «أفريقيا السّوداء»، ورؤيـة البَتـراء المحفورة في الصّخر، والوصول الى «تلـك العاصمة الغريبة في الجزء الخلفي من العالم» بُخارى النّائية. وبحلول سن السّادسة والعشرين كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لتحقيق تلك الرّغبات الثلاث.

ازدادت الشّـهية مـع الأكل ومـع رؤية تلك البقاع مـن العالم، أدركـتُ الكمّ الهائل مـن الأمـور المثيرة التـي يتعيّن عليّ القيام بها. في سَـمَرقند، على سـبيل المثال، كنت أفكـر في أفرُسـياب Afrosiab ومرقنـد Maracanda الإغريقية القديمـة التي تقع مثل كومة قمامة شاسعة خارج المدينة الحالية دون أي يقربها أحد، بانتظار من يستكشفها. والأكثـر إغـراءً وإثارة كانت قصـة الضابط القوزاقي الذي أخبرني أنـه يعلم يقيناً مكان دفـن جنگيز خان! ولكن أول الشّـائعات التي سـمعتُها في دمشـق كانـت عن الحصان وحيـد القـرن الأبيض الذي يعيـش في صحراء جزيـرة العرب، وبمـا أن ذلك كان من ضمـن دائـرة اهتمامي أكثر من اهتمامي بالكنوز المدفونـة أو بقبور الملوك، فقد كانت النّتيجة أن شدّتني الرّغبة مباشرة إلى عملية صيد المَهاة.

سـواءٌ كانـت وعول المَهاة في شـبه جزيرة العرب تُعـدّ نموذجاً أوليـاً لوحيد القرن الأسطوري أم لا، فقد حافظت على أسرارها كما فعل شقيقها الأسطوري. لقد حظيت حيـاة المَهاة باهتمام غير طبيعي، وهي تعيش في منطقة تماثلها روعةً ووحشـيةً. كانت تحظـى بأهميـة كبيرة كونهـا الوحيدة مـن أبناء جنسـها الأفارقـة الذين ضلّـوا الطّريق فشردوا إلى داخل آسيا، وأخيراً سجّلتْ سبقاً في المراوغة، فعلى الرّغم من معرفتنا بها منـذ العهود القديمة - فيمـا إذا كان وحيد القرن المذكور في العهـد القديم مُطابقاً حقاً للمَهاة، فإنّ الأوسـاط العلمية لم تجد لها اسـماً لغاية القرن الثامن عشر، ونجحت هي في تجنّب ملاحقتها من قبل أيٍّ منا حتى القرن العشرين. فلم أتمكن من العثور على أيّ سـجل لأي مسـافر قبلي يدّعي بأنّ عينيه وقعتا على شبح لهذا الوحش في حالته البرّية في بلده، على الرّغم من أنه لا يزال يعيش بأعداد قليلة في شـمالي شـبه جزيرة العرب

وجنوبيّهـا. عادةً ما يحتفظ الأمراء المحليّون في باحات قصورهم بوحوش أسـيرة يتم الإمساك بها صغيرة من قبل رجال البدو، فتُجلب في بعض الأحيان إلى السّاحل، ويتم انتقاء بعضاً منها لإرساله غرباً فتصبح بالتالي معروفة للعالـم الخارجي.

رمانـي هـذا الكائن الغريب قليل الشّـرب للماء بسـحره للمرّة الأولـى عام 1905، عندمـا كنتُ فـي رحلة صيـد للحيوانات الغريبة في سـوريا وفلسـطين – وكان هنالك فـي الواقـع مزيج غريب جداً من الحيوانـات في ذلك الجزء الضيّق مـن البلاد الواقعة بين شـرق البحر الأبيض المتوسـط والصّحراء السّـورية. كنتُ قد وجدت بالفعل أرنباً أوروبياً في الأراضي الصّخرية حيث مسـقط رأسـه، وعلى مرمى البصر ممّا سيصبح الآن المرفأ الأكثر ازدحاماً في المشرق العربي. رأيتُ الدّبّ السّوري في ملاذه الأخير، واسـتدللتُ وللمرة الأولى على وجود الوعل الفارسـي على التلال القريبة من دمشق، على بعد 300 ميل من أقرب مكان عُرف به في آسيا الصّغرى.

بـدأت عندهـا أفتـش عـن حيوانات أكثـر غرابة، عـن الحصـان وحيد القـرن وعن التماسـيح! كان تريسـترام Tristram المرجـع الوحيـد حول حيـاة الحيوانات في هذا الجـزء مـن العالـم، وكتابه كان حافزاً بسـبب النُّبذ الموجودة فيه عـن الوعول الأفريقية النّـادرة، والظبـاء، والحُمُر الوحشـية، والمَهـاة، والنَّعام والتّماسـيح. لقـد حلمتُ بها جميعـاً، اختفـاء الوعـول الأفريقيـة كالخرافة[1] وكذلـك الظباء، وانقراض التماسـيح والحُمُر الوحشية[2]، بينما تتحوّل المَهاة إلى عنقاء تستدرجني إلى مجاهل الصّحارى.

قـال تريسـترام Tristram، الـذي كان مرشـدي وصديقـي في جميع هـذه الأمور: «كانـت المَهـاة أو الظبـاء البيضاء شـائعة في شـمال جزيـرة العرب، وقـد وُجدت في البلقـاء وحـوران». لـذا خرجتُ إلى أطـراف الصّحـراء، إلى الحدود الشّـرقية لأرض

---

(1) كتب المؤلف: من المشكوك به أن تكون هذه الوعول قد دخلت جزيرة العرب من موطنها في شمال أفريقيا. هناك سجل بذلك ومن المؤكد أنها انقرضت من أفريقيا الآن.

(2) كتب المؤلف: اختفت الحمر الوحشية من الصّحراء السّورية في أوائل القرن الماضي، ولكن التماسيح من تمكنت الاستمرار لمئة سنة أخرى في مستنقعات قيشون والزّرقاء.

مؤاب واستقيتُ المعلومات، لأجد أنه من غير المحتمل أن تكون المَهاة في وقت من الأوقات قد اقتربت إلى هذا الحدّ من الأراضي المأهولة، حتى في أيامه، وأنها بالتأكيد لن تفعل ذلك الآن. لقد كانت هناك مَهاة ولكن بعيداً جداً، على الأقل على بعد مئات الأميال، على حافّة الأفق الشّرقي.

غادرتُ سوريا بعد ذلك، ولكن بعد أن كانت بذور ذلك الافتنان قد بُذرت؛ فأنا أدرك تماماً أن عليّ العودة يوماً ما لمواصلة المطاردة. تشكلت تلك الرّغبة في العودة إلى تلك المناطق القاحلة ربما بسبب الأشهر العشرين التي أمضيتُها بعد ذلك في مناطق أفريقيا المدارية، ومعظمها في غابات الكونغو! لقد تولاّني هاجسٌ لا يوصف في التوق لمساحات مكشوفة تغطيها أشعة الشّمس عندما كنتُ رهيناً في أعماق مجاهل الغابة الكئيبة. وتعزّز شعوري بالاكتئاب بسبب خشيتي من أن يقوم شخصٌ آخر بالوصول إلى تلك المَهاة قبلي.

مضت سنة أخرى قبل أن أشعر بحرّيتي، وفي ذلك الحين كنت أجول بعيداً في آسيا الوسطى. بدت الرّحلة للوهلة الأولى كما لو أنها ستكون من سَمَرقند إلى دمشق، غير أنها مرّت بكل من بخارى، باتوم، إسطنبول، بورسعيد، وبيروت، التي ثبت أنها المراحل المعتادة في الطّريق بالنسبة لجميع الحجّاج القادمين من آسيا الوسطى والمتجهين إلى مكّة، ولقد تبعتُ خطاهم.

* * *

في يناير 1909، كنت أمشي مرة أخرى في شوارع دمشق. كانت سوريا في ذلك التاريخ مكاناً مختلفاً جداً عمّا هي عليه الآن. لم تكن السّيارات قد وصلت بعد، وكانت القوافل ما تزال تمرّ في مدينة القوافل، شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً إلى حدود العالم. كانت الصّحراء تحيط بدمشق. مرّت قافلة الحج المتجه جنوباً نحو مكّة للمرة الأخيرة خلال زيارتي الأخيرة، وكان الخط الحديدي الحجازي قد اكتمل في ذلك الوقت أو كان على وشك أن يصل إلى المدينة المنورة. ولكن كانت تلك الوسيلة السّهلة للانتقال حكراً على المسلمين إلى حدٍّ ما، كما أنها كانت لا تُقارَن في سوئها

كوسيلة نقل إلى الدّاخل.

كانت جزيرة العرب مقطوعة عن سوريا كما كانت في أيام النّبي إبراهيم، وربما أكثر من ذلك. ولم يتقدّم استكشاف شبه جزيرة العرب إلى الأمام منذ ربع قرن، فقد غادر داوتي Doughty منذ واحد وثلاثين سنة، وأوبير[1] (هوبَر) Huber قُتل عام 1884، ومنذ ذلك الحين لم يظهر على السّاحة أيّ مسافر غربي، لم يغامر أحد بالدّخول إلى عرين الإسلام. كان عصر العرب العظماء من ابن بطوطة قد اكتمل بداوتي وأوبير (هوبَر)، وتلاه بعد ذلك صمتٌ طويل، فلم تجد صحراء شبة جزيرة العرب من يتحدث عنها، وعن شعبها وعن سياساتها.

لقد كُتب عليّ أن أفتتح المرحلة الثانية من استكشاف جزيرة العرب، التي بلغت ذروتها في نهاية المطاف في الدّور الذي لعبته في الحرب العظمى، وفي الاهتمام المُبالَغ به نوعاً ما بكل ما يتعلّق بجزيرة العرب. ولسوف تُظهِر مقارنة بين خريطة جزيرة العرب عام 1909 وخريطة لعام 1919، التغيير الذي حدث خلال السّنوات العشر تلك. كان وسط جزيرة العرب عام 1909 معروفاً بشكل أفضل من أطرافها. ولم تكن الصّحراء السّورية سوى بقعة بيضاء واسعة، وآبار الرُّطبة المعروفة الآن في منتصف الطّريق بين دمشق وبغداد لم يكن لها اسم. فلم تحظ الرُّطبة على اسم على الخريطة حتى ذكرها ليتشمان Leachman هناك عام 1912. وأما المناطقة على جانبي الخط الحديدي الحجازي فلم تكن تُعرف على نحو أفضل مما كانت عليه قبل بناء

---

(1) شارل أوبير (أو هوبَر بالألمانيّة) رحّالة فرنسي من مقاطعة الألزاس شمال شرق فرنسا المحاذية للحدود الألمانيّة، قام برحلة إلى جزيرة العرب عام 1878 قادماً من دمشق إلى الجوف، فزار حائل ومكّة المكرّمة وتعرّض لمصاعب جمّة. ثم قام برحلة ثانية في عام 1883 بصُحبة المُستشرق يوليوس أويتِنغ Julius Euting (من ستراسبورغ Strasbourg) وجرى ما جرى حول حجر تيماء (المسلّة) ومقتل أوبير في العام التالي 1884. وصدرت عن رحلته نشرتان في الجمعيّة الجغرافيّة الفرنسيّة، ثم نشر أويتِنغ وقائع رحلته بجزأين بالألمانيّة: «سجلّ رحلة في البرّ الدّاخلي لجزيرة العرب»:

Euting, Julius: *Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien*, Leiden, 1896-1914.

الخـط الحديدي، وأصبـح الوضع أكثر خطورة مع قدوم جحافـل الحجّارين الطّليان، وغيرهم من العناصر الأجنبية التي تجمعت حول الخط الحديدي أثناء عملية بنائه.

لـم تكن الأنبـاء الواردة من داخل جزيرة العرب مطمئنة، فأمـراء حائل كانوا ولفترة طويلة العنصر المهيمن في نجد، غير أن المدّ كان قد تحوّل بالفعل لصالح ابن سعود، الذي أدهش حتى هذه الأرض صاحبة التغيّرات السّياسـية بعودته الدّرامية إلى السّلطة بإحكام سـلطته في الرّياض. كان ابن سـعود في البداية يُدعّم موقفه؛ فقد كان يستجمع قواه ويتلمّس طريقة، ولكن حتى تلك اللحظة لم يتجاوز بعض المناوشات مع منافسه في جبل شمَّر، ولـم يكن في وضع يمكّنه من القيام بالمزيد عن ذلك.

بدأ مذهبه السّـلفي شـيئاً فشـيئاً يكسـب أرضية له في المنطقة، وفي غضون سنوات قليلة تحتّم على ابن سـعود أن يضرب ضربته الرّئيسـة ويطرد الأتراك خارج الأحسـاء Hasa، ليبدأ بعد ذلك بمتابعة أهدافه بديناميكية انتهت بسيطرته الفعلية على كامل بدو جزيرة العرب، وكذلك منطقة نجد وجميع الأماكن الإسلامية المكرّمة، وبعبارة أخرى أصبـح أميـراً على جزيـرة العرب. في تلك الأثنـاء كان قَتلة حائل مسـتمرين في حمّام الدّم، فقد قُتل آنذاك الأمير سـعود بن حُمُود، قبل وقت قصير من وصولي الى سـوريا، فكانـت ثالـث حادثة اغتيـال في غضون عامين، وحتى مجتمع شـمَّر الـذي اعتاد على النّزاعات داخل عائلته الحاكمة شـعر بالصّدمة! فقد كان الشّـاب سـعود بن رَشـيد[1]،

---

(1) هو سعود بن عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رَشيد، ولد على الأرجح عام 1898 في حائل، وكان عمره عند مقتل أبيه 8 سنوات، ولم تكد تمرّ سنة على مقتل والده حتى قتل إخوته الكبار (متعب حاكم حائل آنذاك، ومحمّد ومشعل) على يد خالهم سلطان الحمود الرَّشيد، بينما نجا هو من المذبحة عندما هرب به أخواله السَّبهان إلى المدينة المنورة ، فعاش هناك حتى أرسل أهالي حائل إلى حمود السَّبهان عام 1908 طالبين عودتهم مع الامير سعود لأخذ القيادة، مع العلم أن الأمير سعود لا يستطيع تقلد مقاليد الحكم حسب الدستور المتعارف عليه في حكم حائل، بعد أن ساءت الأوضاع تحت حكم الأمير سعود الحمود الرَّشيد.
وصل سعود إلى حائل عام 1908 وعمره 11 سنة، فتولى الحكم تحت وصاية خاله الأمير حمود بن سَبهان السَّبهان الذي مارس دور الحاكم الفعلي للإمارة (وهم أبناء عموم آل الرشيد) ، وبعد وفاة الأمير حمود السَّبهان عام 1909 تولى دور الوصاية على سعود الأمير زامل (الثاني)

النّاجي الوحيد من المجزرة الأخيرة، قد أعيد مؤخراً إلى حائل من مكّة، حيث كان يعيش برعاية آمنة لبضع سنين. وكان خاله حُمُود بن سَبهان، الذي كان يقوم بدور الوصي، قد توفي خلال فترة سفري، وحلّ مكانه زامل من آل السَّبهان.

وتبعاً لذلك، لم يكن الوضع يبشّر بالخير! فجزيرة العرب كانت على ما يبدو تمرّ في مرحلة صراع. كان المدّ الوهابي (السَّلفي) يتعزّز يومياً؛ وأخذ آل الرَّشيد يشعرون بأن يومهم قد اقترب؛ فيما راح ابن سعود يفرض القوانين في الرّياض كالأسد في عرينه متحفزاً لينقضّ مجدّداً على عدوه، بينما كانت قبائل البدو الرُّحّل منغمسة في لعبتها المعتادة في المناطق الحدودية، فقبيلة شمَّر تحارب قبيلة الرّوَلة، وقبيلة بني عطيّة وقبيلة الحويطات تحاربان بقيّة القبائل.

اعتادت شرُّ القبائل التجوال في نفس المنطقة التي اتخذتها المَهاة ملجأً لها! وليس ذلك من قبيل المبالغة، لأنه إذا ما عُدّ جبل طُبيق - حيث وجدت المَهاة أخيراً وبكثرة - مركزاً، فيكون محاطاً من جهة الغرب والشّمال الغربي بالحويطات وبني عطيّة، وهما قبيلتان تشتهران بالعتوّ والقتل، ومن جهة الجنوب الشّرقي بقبيلة شَمَّر وقبيلة الرّوَلة من الشّرق. ثلاث قبائل لا يمكن التوفيق بينها وتمكث في حالة حرب دائمة، فهل يمكن أن تجد مكاناً أكثر حراسة من ذاك، أو أكثر صعوبة على شخص غريب اختراقه؟

كان عام 1909 عاماً مميزاً بالنسبة للتاريخ التركي، فلقد كان عام الحريّة. فقد تم آنذاك إعلان الدّستور ولم يعد السّلطان عبد الحميد رجل إسطنبول المرعب. لم يعد أحد يخشى رجال الشّرطة في الأسواق، كان كل إنسان يفعل ما يحلو له، وبدا الأمر كما لو أن الجميع يعيش في يوم عطلة دون أن تكون هناك مظاهر للفوضى ولا حتى على مشارف الإمبراطورية. في هذه الدّوّامة من العناصر المتضاربة وصلتُ في يناير

السّالم العلي السَّبهان (زوج الاميرة فاطمة بنت زامل الأول بن سَبهان)، حيث قتل بعد عده سنوات بمؤامرة. ثم أصبحت جدته فاطمة السّبهان تدير الحكم بالوصاية بعد اختيارها من قبل الجماعة، وظلت كذلك من عام 1910-1911 حتى 1914، حيث تولى الأمير سعود العبد العزيز الحكم رسمياً في حائل وما يتبعها، حتى اغتياله في مارس 1920 على يد ابن عمّه عبد الله الطلال الرَّشيد.

1909، دون أن يكـون لـديّ الكثير مـن الأمل بالنجاح، أنا أعتـرف بذلك. لكنني كنت أعـرف أن هنـاك بعض الأماكن الخالية في شـمال غـرب جزيرة العرب التـي اخترتُها كانت قد تحولت إلى أراضٍ غير مأهولة بسبب عمليات التصفية بعد أن كانت المناطق الأقلّ كثافة سكانية.

كنـت أتمنى لـو اسـتطعتُ مراوغـة المسـؤولين الأتراك لأنجـو من غـارات البدو علـى المناطق الحدودية، وكذلك الابتعاد عن طريق الشّـيوخ المتنافسـين في المناطق الدّاخلية، فقد أصل إلى المنطقة المحرّمة التي كنت أتوقع أنها قد تكون الملجأ الأخير لذلك الحيوان الخرافي بعيد المنال.

على الرّغم من مرور خمسـة وعشـرين عامـاً على تلك المغامـرة العربيّة، فإنّ البلد لم يتغيّر وكذلك ظروفه بعد تلك الفترة الطّويلة. لم ير المَهاة في الشّـمال أحدٌ سـواي، مـا عدا لورَنس الذي شـهد على وجودها خلال رحلته من الوجـه Wijh إلى الصّحراء السّورية مع عودة عام 1917، وقام رجاله بقتلها في نفس المنطقة التي تبيّن أنها تحتوي على أكبر عدد منها.

مملكـة جديـدة، تمّ تشـكيلها عبر الأردن تشـمل أرض مـؤاب وجنوباً إلـى البَلقاء Belqa، وقـد أحببتُهـا جـداً. تحكم تلك المنطقـة اليوم حكومة مسـتقرّة للمرة الأولى منـذ الاحتلال الرّوماني، وتضاءلت عدد الغارات علـى الأرجح عما كان عليه الوضع فـي أيامي. غير أن الصّحارى الدّاخليـة الواقعة بين تلال طُبيق Tubaiq والنّفود الغربية مازالت مُنتهكة كما كانت عندما قمت بزيارتها سـابقاً، في حين مازالت قفار الشّرارت Shararat تفتقر إلى التوصيف.

عـلاوةً علـى ذلك، فإنّ مطـاردة المَهاة عملٌ رائـع، إنه أكثر من مجـرّد صيد حيوان نـادر جداً في بلد شـديد المشـقّة، إذ أنـه يقودنا إلى منطقـة تراكم فيها التـراب والغبار لسـنين طويلة، وإلى مجتمعات تكاد تكون خرجت للتوّ من عصرها الحجري. علاوةً علـى ذلك، فإن هذا المخلوق الأسـطوري البدائي يغرينا فـي التوغّل إلى مراحل أبعد من مجرد مطاردة المَهاة العربيّة، من أجل اكتشـاف سـرّ الأسـطورة الأولى والخرافة،

وبعبـارة أخرى، الطّريـدة التي نجحت في الإفلات من براثن الأسـر حتى الآن. ولكن من المؤكّد أن هذا الحيوان الأسـطوري الرّائع هو أثمن من أن يسـقط ضحية لبندقيتي أو بندقية أيّ صياد آخر؛ وكما قال أوديل شيپارد Odell Shepard لسوف ندعه «يختال في مشيته بعيداً... إلى المجاهل من حيث أتى»!

* * *

الفصل الأول

بداية متعثرة

تَبوك

جرت الأقدار بأنّ فرصة اللقاء بمايسنر باشا Meissner Pasha المتعهد الألماني الذي بنى الخط الحديدي الحجازي، دفعتني جنوباً إلى تَبوك. قد لا تكون تلك مقاربة جيدة لهدفي، أيّ صحراء النّفود، ولكنها قد تعلّمني شيئاً عن أحوال تلك المنطقة. على أي حال، تُعدّ تَبوك من أراضي جزيرة العرب وليست جزءاً من برّ الشّام، إنها واحة تقع على أعتاب الأراضي المقدسة، وهي الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها مسيحي، ولقد وصلتُ إليها بوساطة الخط الحديدي وبتكلفة بخسة.

صحيح أنّ داوتي Doughty استطاع الحصول على إذن بالذهاب مع قافلة الحجّاج إلى مدائن صالح التي تمثل بوّابة الحجاز، ولكن كلما ازداد اقتراب العالم الخارجي من مجتمع منطوٍ على ذاته مثل المدينة المنوّرة ومكّة، ازداد عزل الأجنبي في داخله صرامةً. كان من صلاحيّة مايسنر أن يُعطيني تصريحاً أصل به إلى تَبوك وليس أبعد من ذلك، كما سيزوّدني أيضاً برسالة تعريف مقدّمة للشيخ حرب، رئيس قبائل بني عطيّة، المسيطر على السّهول المحيطة بتَبوك. أصبحت تَبوك الآن محطة للخط الحديدي الجديد، وقد كانت دوماً إحدى مراكز السّقاية المحروسة على طريق قوافل الحجّ القدَيمة إلى المدينة، وبالتأكيد يتبع الخط الحديدي بطول ثماني مئة ميل تلك الدّروب التي اختطّتها واحدة من أقدم طرق القوافل في العالم.

قبل بعثة الرّسول محمّد[1] بفترة طويلة كانت المدينة موئلاً للحج، وقبل ذلك ومنذ فجر التاريخ استُخدم هذا المسار كطريق رئيسي بين جزيرة العرب والسّواحل الفينيقية. غادرتُ دمشق في الثامن والعشرين من ديسمبر 1909، على متن أحد القطارات الأسبوعية الثلاثة ووصلتُ جنوباً إلى معان في الليلة التالية. وتبيّن لي أنّ مدينة الخيام كما كانت معان عند زيارتي السّابقة عام 1906 قد اختفت من الوجود. عادت تلك الواحة الصّغيرة لتغفو ثانية بعد الإثارة التي عاشتها كإدارة للخط الحديدي لبعض الوقت، بسبب المسافة الطّويلة التي تمتدّ لنحو 144 ميلاً من الأراضي الجدباء، التي ينبغي أن تمتدّ خلالها قضبان السّكة الحديد للوصول إلى المحطة اللاحقة تَبوك. لن تشهد معان الكثير من الإثارة حتى يتم إيقاظها بفظاظة في عام 1917 بسبب الثورة العربية[2] التي أكسبتها بعض الشّهرة.

كانت معان في أيامي تتألف من قريتين شاميّتين فقيرتين تقعان على حافة الفلاة، وكانت مختلفة جداً عن واحات النّخيل الواسعة في جزيرة العرب. وعلى الرّغم من قربها - لم تتأثر أكواخها المبنية من الطّين وحدائقها المسوّرة ومساحات الزّراعة الصّغيرة فيها بمحطة الخط الحديدي بمبانيه القبيحة، وبأبراج المياه وحظائر القاطرات. توقفت في معان لألتقي مايسنر باشا Meissner Pasha وهناك رأيتُ المَهاة الأولى، فقد كان هناك زوج من حيوان المَهاة أسيرين، لا يزيد عمرهما عن سنة واحدة في باحة منزل مايسنر.

كان الفضول دون سواه سبب أول اتصال بين داوتي Doughty وأهالي معان، والأكثر إثارة كانوا أولئك الأشخاص بيض البشرة الذين نشأوا بين الشّرارت Shararat. استمتعتُ بأمسية مشابهة في طريقي إلى تَبوك وكلّي أمل أن ألتقي بتلك الأبقار الوحشيّة في أقرب وقت ممكن.

---

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) حول ذلك راجع في هذه السّلسلة كتاب «ثورة في الصّحراء» لتوماس إدوارد لورَنس (لورَنس العرب)، وكتاب «مغامرات مع لورَنس في جزيرة العرب» للويل توماس.

مـع مغادرة معان سـرعان مـا أدركتُ مدى التغييـر الذي أصاب طبيعـة البلد. فمنذ غادرتُ أراضي حوران المزروعة بالذّرة، بَدَت لي السّـهول الشّاسعة اللامتناهية جنوباً حيث مراعي الإبل في البلقاء Belqa وأرض مؤاب. ولكن اليوم ينسـاب القطار جنوباً فـي السّـهول الجـرداء، ثم يصل فجـأة إلى تخـوم ما كان يدعـى بسـهول النَّبطيين، ثم تنخفض الأرض الصّحراوية قليلاً لتفسـح المجال للاسـتمتاع بمنظر واسـع جداً. إنه الاقتراب من جزيرة العرب «حاجب سوريا» كما يحلو للقادمين من الجنوب أن يسمّوا تلك المنطقة. والسّـحر وحده هو القادر على جعل أحدهم يترك العالم الزّاخر بالحياة ليدخـل عالمـاً من العقـم المُطلق. ولا يمكن حصول ذلك سـوى بعـد أن يمرّ أحدهم بتجربة السّـفر بعيداً وعلى نطاق واسـع، وبعد أن يكون قد عرف الصّحراء، وأدرك أن الزّاويـة الشّـمالية الغربية من شـبه الجزيرة فـي غاية الغرابة. وفي الغرب تسـمو هضبة حِسـمى Hisma، التي تحتوي على أروع مشـهد في جزيرة العرب، بشهادة لا تقل عن شهادة شيكسپير ولورَنس. بينما لا يبعد وادي رَم Rumm العظيم سوى 30 ميلاً غرباً.



وادي رَم العظيم

تمتدّ قفار الشّرارت مئتي ميل شرقي الخط الحديدي حتى أول واحة الجوف، التي أدهشت في قحولتها جميع من رآها من المسافرين، وحتى أولئك الذين خبروا جزيرة العرب. والأرض هناك تنحدر جنوباً حتى يخيّل لأحدهم أنها تنحدر بهم إلى الجحيم. وليست الحرارة هي السّبب ولا طبيعة المكان القاسية هي التي تعطي ذلك الانطباع، إنما هو أكثر من ذلك. إنّه الجو المميز للمكان، حيث يشعر الإنسان هناك أنه بحضرة شيء بالغ القدم. وعلى الرّغم من أن المنطقة لا تحتوي على آثار تدلّ على أناس قد سكنوا ذلك المكان، فإنّ الإنسان يُداخله شعور بأنّ هناك مَن خَبِر هذه الطّريق منذ عصور قديمة، وهذا لعَمري أمرٌ أكيد فهي الطّريق التي مرّت بها قوافل البخور واللّبان في عصور سبقت طريق الحرير، فتجّار سبأ كانوا ينقلون الذهب والمِرّ على طول هذه الطّرق الصّحراوية إلى ممالك البحر الأبيض المتوسط. ولا زالت أرواح الملايين ممن عبروا تلك الطّريق المحفوفة بالمخاطر تسكنه، لذا دعته العرب «بطن الغول». كما ازدادت عزلة المكان بسبب الخط الحديدي الطّويل وأعمدة التلغراف الملتوية على طول ذلك الطّريق الطّويل. يبدو أن دخول الحداثة، لا سيّما الخط الحديدي، يتعارض مع بيئة هذه المنطقة.

إنّ هذا يحمل في طيّاته أكثر من مسألة تناقض، بل إنّه القبح بعينه، عندما يدرك المرء أنّ الخط الحديدي ينتهي في الصّحراء، أي أنه يحملك إلى غير مكان مخصوص، إنما ينتهي بك في مدينة محرّمة طابعها التعصّب يحيط بها سور على جنباتها! فالمشهد المنبسط أمامك بقدر ما هو متألق تراه بالقدر ذاته منفراً. إذ يكاد يكون من المستحيل التصديق إن هذه المساحات الواسعة من الرّمال الصّفراء النّاعمة، وتلك الجلاميد السّوداء اللامعة، وتلك الآكام والذُّرى والبطاح الرّملية الحمراء وتلك التلال المتعرّجة تنتمي حقاً إلى هذا الكوكب. ومع ذلك نهرع إلى هذا العالم الجديد، ومع تقدّم القطار وعويله باتجاه أسفل وادي الجان راسماً دائرتين كبيرتين قبل أن يصل إلى الأراضي المنبسطة، نألف محيطنا الجديد والغريب.

نحن الآن في جزيرة العرب وعلينا أن ننسى أننا عرفنا في أي وقت من الأوقات

الغابات الخضراء والأنهار المتدفّقة أو شممنا رائحة المحاصيل. فهذه الأشياء محظورة في الصّحراء. هنا تتضائل حاسة الشّم بينما تتضخّم حاستا البصر والسّمع بشكل لا يُصدّق. فالعينان هنا تجولان في المسافات الشّاسعة فتصبح بالممارسة قادرة على التركيز على الأجسام على مسافات واسعة لم تكن قادرة على الوصول إليها من قبل. تتضاعف حدّة البصر والسّمع عشر مرات، وتزداد حدّة الملاحظة بالنسبة ذاتها. شعرتُ خلال التوجه جنوباً إلى تَبوك بالفعل أنني وصلت إلى خارج حدود العالم.

من استكشف أرض مدين الواقعة في الغرب سوى بُرتون Burton ومن استطاع دخول جزيرة العرب من ذلك الجانب سوى ڤالين Wallin؟ وشرقاً هناك مناطق مجهولة وغير مطروقة، وعلى الرّغم من عدم معرفتي بها في ذلك الوقت، فقد كان قدري أن أراها في نهاية المطاف. المَعلم الوحيد في ذلك الأفق الشّرقي بين معان وتَبوك كان صخرة شامخة على سلسلة من التلال الصّخرية تُدعى «منبر النّبي» بسبب شكلها، والسّبب الآخر وفق ما ورد في التاريخ أن الرّسول العربي العظيم دعا قومه من هذا الموقع.

وصلنا منطقة تَبوك في صباح اليوم التالي، ووجدتها مشغولة في الاستعداد لاستقبال الحجّاج العائدين من مكّة. تطهّر حجّاج بيت الله الحرام قبل شهرين من سفرهم عبر الصّحراء (أو قتلوا)، ولكن الآن بعد أن اختصرت الرّحلة لبضعة أيام، أضحى من الضروري جداً إجراء حجر صحي في محطة تَبوك. تقع القرية وبساتين النّخيل والقصر على بعد مسافة لا بأس بها إلى الجنوب الغربي، وإلى هناك انتقلت وخادمي وكذلك أمتعتي.

ساعدتني رسالة مايسنر Meissner في الحصول على غرفة فارغة في الطّابق العُلوي في ذلك السّجن، الذي كان حتى وقت قريب يستخدم لحجز المجرمين المحليين. ولكن مع إزالة الحاجز الحديدي وتنظيف الغرفة جعلت ذلك منزلي. من هذه النّقطة على سور القصر قمت بإجراء استطلاع لموقفي.

* * *

كانـت القلعة عبارة عن كتلة سـكنية مبنية من الحجر مشـابهة للمجمعات السّـكنية المنشـأة لحماية طريـق قوافل الحج ولحماية مـوارد المياه على الطّريـق. بُنيت القلعة بقاعدة مربعة الشّـكل، متينة، تحتوي على فتحات إطلاق للبنادق والمدافع، وتسـيطر علـى إمدادات المياه الرّئيسـية الواقعة تحت سـورها. ويقال إن قلعـة تَبوك هي إحدى أكبـر القلاع على طريق قوافل الحجّ، وخلفها تنتشـر بسـاتين النّخيـل المحيطة بالقلعة بقوامهـا النّحيـل وقممهـا المزركشـة، ومـن ثـم الصّحـراء وراءهـا. الواحـة التي كان بمقدوري رؤيتها كانت صغيرة جداً على شكل دائرة متكاملة تحتوي على حوالي ألف شـجرة نخيل وتعادل مساحتها ثلاثة أمثال مسـاحة ساحة ترافالغار سكوير Trafalgar Square.

تخيّلـوا عالماً صغيـراً بهذا الحجم يحتـوي على قرية فيها ما يقارب الخمسـين بيتاً وقلعة وواحة من أشـجار النّخيل دائرية الشّـكل تقع في هذا الخضمّ الواسع من القفار المتراميـة الأطـراف، فيكـون لديكم فكرة عـن المنظر الذي أشـرف عليه مـن القلعة. يمكنني القول إنها الصّحراء الممتدة إلى الأفق من جميع الجهات، ولكن تحرياً للدقة لـم تكن الصّحـراء ممتدة هكذا إلى مـا لا نهاية، فبعيداً إلى الشّـمال وعلى بعد حوالي خمسـة وعشـرين ميلاً كان هناك خطّ من التـلال المنخفضة المنتهيـة بصخرة ناتئة في جبـل مخطـب Mukhtab، بينمـا إلى الجنـوب والى الجنـوب الغربي تبـدأ الصّحـراء المفتوحـة بالتفكك إلى بلدان مجزأة، مدعومة من قبل أعلى المسـتويات، وبعيداً جداً يُمكن أن ترى الخطوط العريضة - حدود الحَرّة Harra.



قفار الشّرارات

لـم تكن تلك المتاهة من الصّخور والرّمال سـوى معالم الحِجْر[1] Hejr المحفورة فـي الصّخـر والعامل الرّئيس الذي جذب داوتـي Doughty إلى جزيرة العرب، والتي نعتبرها سـبباً لرحلته بأكملها. ذهبت إلى القرية، ولدهشتي وجدتُ أنها كانت مسكونة من قبل جماعة كانوا في الأصل عبيداً من ذوي أصول مختلطة تمّ تحريرهم، يبدو على بعضهم أنهم من أصول سـودانية نقيّة. قيل إنهم لم يسـكنوا تَبوك منذ فترة طويلة. حتى أن أوبيـر (هوبَـر) Huber اعتبر أن القرية ذاتها بنيت فقط قبل ثلاث سـنوات من زيارته فـي عـام 1884. والحقيقة هي أن حركة سـكان القرية كانت مرتبطـة بحماية من البدو الممنوحة لهم من قبل القوى المهيمنة على حركة قوافل الحجيج. قدّر ڤالين Wallin، علـى سـبيل المثال، أن منـازل القرية لم تكن تتجاوز السّـتين في عـام 1848، في حين وجـد أوبير (هوبَـر) Huber وأويتِنـغ Euting تَبوك خالية من السّـكان في عام 1884،

(1) هي حالياً مدائن صالح، واسمها القديم حِجرا، الذي يعني بالآراميّة والنّبطيّة: الحصن.

فكانت المنازل مقفرة والقصر يضم خمسة حراس لا غير. بينما عند زيارتي كان هناك حوالي 200 نسمة، وقد يكون عدد السّكان تزايد منذ ذلك الحين بسبب تزايد أهميّة تَبوك كمستودع للسكة الحديد ومركز للحجر الصّحي، ومما لا شك فيه أيضاً بسبب عامل الأمان الكبير الذي توفره الصّحراء المحيطة بها. فاق اهتمامي بالواحة تصوري عمّا سيكون عليه الحال في البداية.

تُعدّ العين أو نبع الماء، أساس الحياة بأكملها ودوماً نقطة اهتمام وجذب في أي واحة. والعين هنا تنبع من تحت سطح الأرض (وليس عميقاً كما هي حال البئر المشهورة في تيماء)، وتجري إلى خزانات إسمنتية كبيرة ذات جُدر عالية بما يكفي لتحميها من التلوث. تلك العين قديمة جداً بشكل يدع المرء يتساءل عمّا إذا كانت هذه المصادر المائية العربية قد عاصرت بدايات الإنسان الأول. تجري المياه الفائضة من الخزانات في قنوات صغيرة إلى الزّوايا الأبعد من الأراضي المزروعة. كانت تلك البساتين مزروعة بالتين والخوخ والعنب، بالإضافة إلى مساحة صغيرة مزروعة بالذّرة خلف بساتين النّخيل.

قضيتُ الأيام التسعة التالية إما في غرفتي في أعلى القصر أو مستطلعاً الجوار بقدر ما كان ذلك ممكناً لي. وقد وجدت مصدرين مائيين آخرين، أحدهما يبعد نحو ساعة ونصف، والثاني يبعد ساعتين ونصف سيراً على الأقدام إلى الجنوب والجنوب الغربي[1]. النّبع الأول كان عين الرّيس، وقد كانت ماءه كافية لري مساحة جيدة من الأراض المزروعة وقد وجدتُ عند ذلك المعين عدداً من الطّيور والحيوانات. وقد جمعت هناك بعضاً من قبّرات الصّحراء النّادرة، وبعض طيور السّمّن، والصّرد والطّيور المغردة التي كانت تأتي بأسراب كبيرة من القفار لتشرب الماء من الحفر.

ليس هناك من علامة على هجرة الطّيور حتى الآن، ولكنني شعرتُ أن تَبوك هي

(1) كتب المؤلف: قد تكون تلك المواقع هي موقع تَبوك الأصلي المعروف أنه كان في مكان ما في هذه الناحية. وضع أوبير (هوبَر) Huber علامات في موقع خرب إلى الجنوب الشّرقي، غير أنني لم أصل إلى ذلك الحد.

المكان المناسب للبحث في هذه الظاهرة. كنت قد وجدت سابقاً بأنّ القريتين وهي واحة صغيرة في الصّحراء السّورية قرب تدمُر، بمثابة أرخبيل أخضر (هليغولاند)[1] Heligoland حقيقية في شهري مارس وأبريل. أسفرت بساتين النّخيل في تَبوك عن وجود بعض من الفئران الشّوكية الغريبة نصفها فأر ونصفها قنفذ، وتلك هي إحدى سمات هذه المناطق القاحلة.

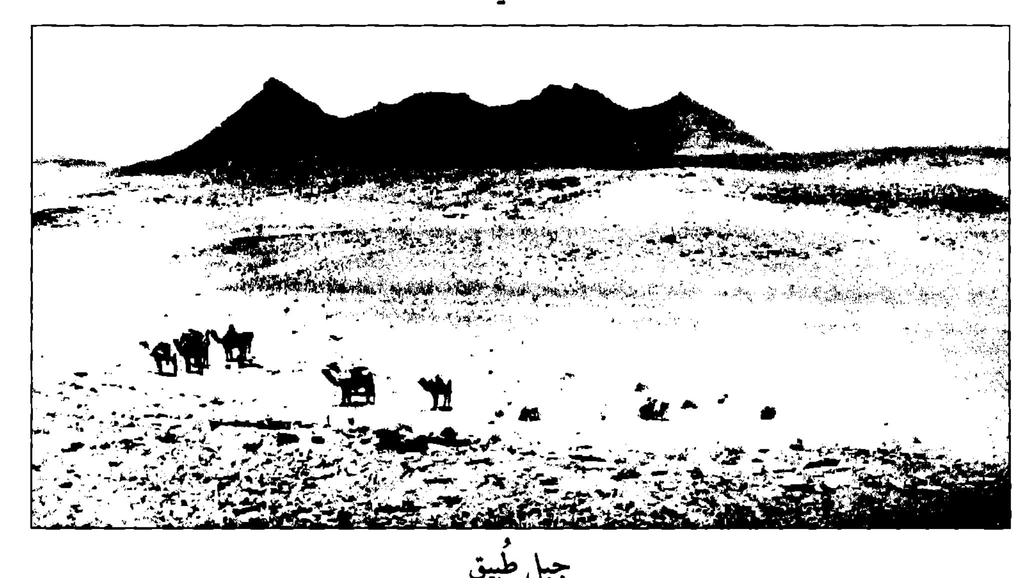
خلال هذه الأيام كنت أجمع المعلومات عن المَهاة بهدوء. فوجدت أن موطنها الحقيقي يقع بعيداً إلى الشّرق، في منطقة تبدو نائية عن تَبوك بقدر بعدها عن أي مكان آخر. ليس هناك من أحد ذهب إلى الشّرق من تَبوك سابقاً. ذهبوا شمالاً الى سوريا وجنوباً إلى الحجاز وغرباً حتى البحر الأحمر ولكن ليس شرقاً. يسيطر بنو عطيّة على جميع البلاد غرباً وجنوباً، وأخضعوا لهم الأرض حتى السّاحل وكانوا مسؤولين عن حماية خط السّكة الحديد من معان في الشّمال إلى دار الحمرا في الجنوب بأكمله. غير أنهم كانوا يُعدّون أعداءً إذا ما ذهبوا شرقاً. وكان ذلك محرجاً! وكان من الواضح أن بني عطيّة لن يكونوا ذوي فائدة كبيرة بالنسبة لي. وبالإضافة إلى ذلك كان زعيمهم يسكن جنوباً بالقرب من المعظّم Muadhdham، ولم يكن هناك مخيمات للبدو في جوار تَبوك.

كان أيّ اقتراح أقوم به للقيام باصطياد المَهاة يُقابَل بازدراء. لا أحد يخرج من الواحة أبداً باستثناء البدو عندما يقدمون إليها! وأما بالنسبة للذهاب شرقاً فإنها ليست من ديرتهم وليست من ديرة أي قبيلة أخرى على وجه الخصوص. كان ڤالين Wallin، الذي لن يغيب عن الخاطر والذي عبر جزيرة العرب بسهولة جيئةً وذهاباً، قد وجد سكّان تَبوك عصبيي المزاج.... فخلال الأيام العشرين التي مكثتُها هناك، لم أستطع إقناع أياً منهم بمرافقتي كدليل إلى القريّا Guraya أحد المواقع الأثرية في هضبة حِسمى Hisma شمالي تَبوك (وهو موقع لم يتم بحثه بشكل جيد بعد) أو حتى إلى منطقة القُصير Koseir الأثرية.

---

(1) يشبّهها المؤلف بأرخبيل هليغولاند الأخضر الواقع قبالة السّاحل الألماني على بحر الشمال.

كانت قبيلة الشّرارت Shararat سيّدة تلك القفار حتى الشّرق، تستخدم أراضي جبا Jaba وطُبيق Tubaiq النّائية للريّ والصّيد! غير أنها كانت أراضي بوراً حتى مقارنة مع أراضـي الجزيرة. لم تكن الشّـرارت Shararat بالقبيلة القويـة، لذلك أضحت براريها عرضة للغارات المتكرّرة ومن قبل الجميع. هكذا بدأتُ أدرك بدقة ما لذي أنا بصدده، إذ أن المَهـاة تقطـن حقيقة في أرض غير مأهولة ومحايدة، غير أنها لا تعني بأي شـكل من الأشـكال أنها محايدة بالنسـبة للأعداء التقليديين قبائل شَـمَّر Sharnmar والرّوَلة Ruwalla والحويطات Huwaitat حلفاء بني عطية.



جبل طُبيق

تصوير المرحوم الكابتن دبليو هـ شيكسپير

تـم جلب لحـم وجلد مَهاة مؤخراً إلى تَبـوك، وبناءً على كمية أطـراف بقر الوحش التـي عرضت لي خـلال فترة تواجـدي هناك تأكدت أنها ليسـت ببعيـدة. وجدتُ بين القرون التي أُحضرت لي زوجاً طويلاً جداً من القرون، من أطول ما رأيت. لن يرضيني شـيء حتى أذهب شرقاً لأرى بنفسي، وأخيراً حانت الفرصة مع قدوم بعض البدو إلى الواحة على أباعرهم، فاتفقتُ مع اثنين منهم على الذهاب معهما. توجهنا إلى الجنوب الشّرقي وسرعان ماوصلنا إلى وادي إثيل Ithil، وهو منخفض بسيط لا يتجاوز عرضه

مئة أو مئتي ياردة مليء بالعشب وببعض أشجار السّنط.

وخلف ذلك الوادي يقع مجرى مائي أعرض – الوادي الاخضر - غير أنه أقل عشباً، وهناك وجدتُ آثاراً للنَّعام والمَهاة والغزلان بالإضافة إلى آثار للبدو. وجميع المصارف المائية الآتية من التلال البركانية الى الجنوب تجري في منخفض يقع شمالي شرق تَبوك. تغمر المياه هذه الأودية القاحلة الآن في بعض الأحيان. تقع خلف الوادي الأخضر هضبة قاحلة جداً ليس فيها أثر لأي نبات، وهي منطقة واسعة تُسمى الرُّفيعة[1] Rufaiya، وقيل إنها ترتبط مع طُبيق Tubaiq. أسرعت في هذه المنطقة بقدر الإمكان حتى وصلت إلى نقطة تبعد تقريباً ثلاثين ميلاً عن بئر فجر Fajr، والتي كان مقدراً لي أن أصلها بعد بضعة أشهر في ظل ظروف مختلفة جداً. وجدتُ هنا آثاراً وفضلات للمَهاة، غير أنها قد تكون قديمة جداً.

أدركتُ على الفور أحد أسباب تسمية بقر الوحش، ذلك لأن مسارها يبدو دائرياً وأشبه ما يكون بمسار البقر. لم أكن أعتقد أن دليلي العربيين كانا سيذهبان معي إلى هذه المسافة البعيدة، بل ربما اعتقدا بأنني سأرغب بمعاودة أدراجي قبل أن يفعلا هما. كنتُ قد قرّرت بالفعل، وقبل أن يزعجاني، أنه من العبث بمكان الاصطياد في ظل هذه الظروف، لكنني سمحت لهما بالاستمرار حتى أصبحا في نهاية المطاف عنيدين بما فيه الكفاية لإعطائي سبباً للتراجع.

مع ذلك، كنت قد رأيتُ مسارات المَهاة والنَّعامة، وتأكدت الآن أنني إذا استطعت الذهاب بمفردي فقد أحصل على ما أريد. وأيقنتُ بشدة بأن ديرة الشّرارت Shararat جديرة كبلد بالتعرّف إليها عن قرب أكثر. وأن رحلةً إلى هضاب نجد لن تكون حدثاً أو أكثر إنتاجيةً من التحقيق في هذه البقعة الضيقة من الأرض، التي تقع إلى الشّرق من الخط الحديدي الحجازي. عُدتُ إلى تَبوك وفي ذهني فكرةٌ واحدةٌ فقط، وهي أن أعود إلى دمشق للبدء من جديد.

---

(1) الرُّفيعة تقع على بعد 3 كم إلى الشمال من قرية النّاصفة في ديرة قبيلة الشّرارات.

الفصل الثاني

البـدايــــة

قدّمت لي دمشقُ أهمّ أسس الرّحلة إلى جزيرة العرب، ألا وهو «الدّليلُ، والفيلسوف، والصّديق» شخص قادر ومستعدّ لأداء دور الوسيط بين المسافر والفصائل المختلفة التي سيجتمع بها على الطّريق. شخصٌ يعرف وبشكل شخصي العشائر الكبيرة وذو اسم معروف ومحترم من قبل الجميع. كان ذلك الشّخص هو محمّد بن مراوي؛ المتعهد السّابق لقوافل الحجيج، سمسار جمال وتاجر أغنام وتاجر. رجل ناضج وذو خبرة كبيرة، عالمٌ بأمور جزيرة العرب بطولها وعرضها. قال مراوي بأنه قادر على الذهاب بي إلى أي مكان أرغب به، وربما أمكنه القيام بذلك، في ظل ظروف عادية، ولكن عام 1909 لم يكن بالعام المناسب للرّحالة في جزيرة العرب. كما أنه ارتكب خطأً جسيماً بالدخول إلى تيماء المتعصبة، ولكن هذه قصة أخرى. بنيتُ آمالاً عريضة مع كفيلي مراوي، وبدأت أتوسع في برنامجي.

كان لديّ بالتأكيد آمال مشروعة ومعقولة لتأمين المَهاة، كما القيام بنوعٍ من استكشاف للشرارات، وربما الوصول إلى نَجد بحدّ ذاتها. غير أن عدداً قليلاً جداً من الأوروبيين هم الذين نجحوا في تنفيذ المهام التي وضعوها لأنفسهم من خلال سفرهم إلى جزيرة العرب. كان طموح معظمهم أبعد من توقعاتهم المعقولة بالنجاح. والعديد من الرّحالة بدأوا من الشّمال يحدوهم الأمل بحلّ لغز الصّحراء الجنوبية في نهاية رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر إلى قلب تلك البقعة، ولكن أحداً لم ينجح في تحقيق ذلك.

والحقيقـة هـي أنه كلما تضائل التخطيط لأهداف الرّحلة إلى جزيرة العرب من قبل المستكشف ازدادت إمكانية نجاحها. القليل فقط استطاعوا بلوغ طموحهم، ومعظمهم حقّـق نصـف مخططاتهم، والعديد فشـل تمامـاً. إنّ المغامرة في جزيـرة العرب عملٌ حسّـاس ومحفـوف بالمخاطر. لا يمكنك عن طريق المـال التوغّل في جزيرة العرب؛ قد يكون المال مفيداً، لكنه من ناحية أخرى قد يعوّق حركتك. كان معي فقط مئة جنيه اسـترليني ولكن كان معي أمر آخر ألا وهو المتسـع من الوقت. فقد وضعت برنامجي بما لا يقلّ عن ثلاثة أضعاف المدّة التي كان عليّ قضاؤها! أمضيت في تلك الأسـواق الدّمشقية، التي لا وجود لها الآن، عدة أيام أتسوّق فيها الأشياء القليلة الهامة جداً التي يحتاجها المرء في رحلته عبر الصّحراء.

سـروج الجمال وأحلاسها، قِرب المياه والحبال لسبر أعماق الآبار، الخروج ذات الأكياس الكبيرة ومواد غذائية مناسـبة سـهلة الطّهي والحمل - الأرز والدّقيق والسّكر والبن كان يأخذ حيزاً كبيراً، وكنا نتأهّب لسَـفر عسـير. كان من المميت محاولة جلب أوروبا إلى داخل جزيرة العرب، لذلك حظرنا على أنفسنا بعضاً من الأشياء مثل الخيام والأغذية المعلبة، جهاز الطّهي وأسرّة المخيّمات. وسمحنا لأنفسنا بتغيير ملابسنا.

كان كل شـيء علينـا حمله يجب وضعه فـي الخُرج أو في أكيـاس منفصلة، وذلك لجعـل الأوزان تبـدو كحِمـل واحـد عند ركـوب الجمـال، لأننا مـا إن نبـدأ بالحركة فسـنتحرك بسـرعة. لذا يجب أن تكون حمولة الإبل متسـاوية على الطّرفين مما يجعل الحِمـل على الطّرفين يبدو وكأنه وحدة متكاملة واحدة. إنّ البعير، والخرجين وكذلك الرّاكب ينبغي أن يشكلوا وحدة واحدة مستعدة للانطلاق إلى الصّحراء. اشترينا بعض الهدايا القيمة ليتم تقديمها إلى رؤوسـاء القبائل الذين قد يسـاعدوننا، وإلى المضيفين الذيـن سـيقوموا بالترفيـه عنـا. أخـذت بندقيتـي المانليخَـر[1] Mannlicher القديمة،

---

(1) بندقيّة المانليخَر النمساويّة هذه طراز عام 1903، تمّ صنعها للجيش النمساوي الهنغاري، وتعرف باسم: Mannlicher-Schönauer طول سبطانتها 72.5 سم ولذا فهي مثاليّة للرّمايات البعيدة في البادية. وتميّزت هذه البندقيّة بصفتين: عيار المقذوف صغير 6.5x54 (أي 6.5 مم) مما يرفع من السّرعة الابتدائيّة وبالتالي طاقة الصّدمة، ثم مخزنها الدّوار rotary الذي يتسع لخمس طلقات.

وقمت بتسليح مراوي بغرض الاستعراض ببندقية مارتيني يونانية مع حزام عريض لوضع الرّصاص فيه. كانت المعاطف المصنوعة من جلود الأغنام رخيصة ودافئة، لذا اشتريت واحداً، إذ ستكون الرّحلة في بدايتها باردة جداً في الأرض المرتفعة، كما ستكون طريقة مناسبة لإخفاء ثيابنا العاديّة تحتها.

بهذا الشّكل مع الكوفية التي تغطي الرّأس إذا أراد المرء أن يضع شيئاً ما على رأسه بما يماثل القبعات الغربية، يكتمل التنكر الآن! وبمناسبة الحديث عن التنكر في جزيرة العرب، لا يوجد هناك حقاً أي شيء من هذا القبيل. فالأوروبي اللغوي الجيد، والدّارس لطباع وعادات العرب يمكنه المرور بحرية ودون أي إزعاج إذا كان يلبس ملابس السّكان الأصليين، غير أن ذلك لا يعتبر تنكراً. فهو مكشوف تماماً بحقيقته. ينبغي أن يكون هدف أي شخص عند دخوله إلى جزيرة العرب أن يمرّ دون أن يلاحظه أحد، وتجنب جذب أقل قدر ممكن من الإهتمام؛ لذلك ينبغي أن يظهر بشكل أشبه ما يكون لشكل مضيفيه، ويتصرّف كما يتصرّفون، بقدر استطاعته. أمّا أنا فقد ارتديتُ خلال رحلتي بزّة قديمة خاكية اللون ومعطفاً من صوف الخرفان. ولففتُ رأسي بقطعة من القماش عندما كنت أتجول غير حاسر الرّأس وبحذاء مصنوع من النّعل المخيط. أما في واحة تيماء فارتديتُ العباءة العربية، وبدوتُ بذلك كما كنت آمل بألا أبدو غريباً!

كان المال أكثر تعقيداً من اللباس. والعملة الوحيدة المستخدمة بين القبائل في الواحات العربية وخارج حدود السّيطرة التركية هي الدّولار النّمساوي ماريّا تيريزا أو الرّيال بالإضافة إلى الذهب. كان وزن تلك العملة كبيراً عند حملها ولكنها كانت العملة الوحيدة المتاحة. أخذتُ كيساً فيه من الدّولارات ما يساوي 15 جنيهاً استرلينياً. وأودعتُ ماتبقى من المئة جنية استرليني بالعملة الذهبية التركية في حزام حول خصري.

لسوف أرتاح قريباً من كمّ كبير من ذلك المبلغ، لأن نسبةً كبيرة منه سيتم دفعها ثمناً للإبل لدى وصولنا إلى المخيمات حيث ننوي الشّراء. بالإضافة إلى هذا المبلغ،

أخذتُ رسـالة من محمّد البسّـام وهـو تاجر ومصرفي معروف في دمشـق تمكّنني من سـحب حتى عشـرين جنيهاً اسـترلينياً في حائل، فيما إذا وصلت هنـاك وكنت بحاجة للسـيولة النّقديـة. تجري الأمور بشـكل جيد حتـى الآن ولكن ينبغي لنـا تجنّب عيون المسؤولين الأتراك. في الواقع إنّ التهرّب من قنصل بلد المسافر بالإضافة إلى التهرّب من حاكم دمشـق كان أمراً يؤرّق جميع المغامرين الذين ذهبوا إلى ذلك الحدّ، اعتباراً من داوتي Doughty وانتهاءً بغِرترود بل[1] Gertrude Bell.

أما الحيلة التي اتبعتُها والتي لـم أكن أتوقع لها النّجاح فقد كانت في غاية البسـاطة: فقـد اقترح مراوي Marawi أن يذهب لمطاردة الغزلان مع بني صَخر لبضعة أسـابيع! لقد كان الهدف من إقتراح مراوي هو الوصول إلى مخيمات تلك القبيلة، والتي كانت في ذلك الموسـم في مكان ما على المناطق الحدودية الشّرقية من أرض مؤاب. كانت زيزا[2] Ziza اسـتراحة على خط سكة الحجاز تقع على الطّريق إلى الجنوب من عمّان وقد اعتُبرت نقطة البداية، فقد كانت مقراً لبني صَخر (الصّخور) Sukhur خلال أشهر الصّيف. سنذهب إلى زيزا بوساطة السّكة الحديد ومن هناك سنسلك طريقنا. كان بنو صَخر من أسـوأ الغزاة السّلابين وكانوا يتمتعون بسمعة مخيفة، ولكن مع توقيعي على تعهّد خاص بعدم ملاحقة السّـلطات لأيّ شخص في حال عدم عودتي وجدتُ نفسي طليقاً. لقد حصلت على أذنٍ من والي دمشق.

ولكنني كنتُ أدرك تماماً أننا إذا ما واجهنا مديراً محلياً أو دوريّة عابرة فستتسبّب لنا

---

(1) غِرترود لوذيان بِل Gertrude Lowthian Bell رحّالة وسياسيّة وعميلة استخبارات بريطانيّة مشهورة (1868–1926)، قامت برحلة شهيرة في سوريا عام 1904 من جنوبها إلى أنطاكية في شمالها، دوّنت أخبارها في كتابها «العامر والغامر» *The Desert and the Sown* (قيد النشر في سلسلتنا هذه). عيّنتها الحكومة البريطانيّة في العراق إبّان الحرب العالميّة الأولى فكانت مهندسة سياسته ولُقّبت بـ «السّت خاتون». وبقيت في العراق بأيّام الملك فيصل الأول كما أسهمت إلى جانب لورَنس العرب بإنشاء المملكة الهاشميّة في شرقي الأردن. توفيت منتحرة في بغداد ودُفنت بها. من كتبها أيضاً: «من مُراد إلى مُراد» و«ألف بيعة وبيعة».

(2) بركة زيزاء (وتسمّى بالعاميّة: زيزيا) يعود تاريخ إنشائها إلى العصر الرّوماني، وفي العصور الإسلاميّة كان الحجّاج يمرّون بها للتزوّد بالماء.

بالكثير من المتاعب والتأخير. غادرنا دمشق في أسرع وقت ممكن، بعد أن استقلينا الأماكن الوحيدة المتاحة على متن القطار المتجه جنوباً. كانت العربة من الدّرجة الثالثة وقد كانت مكتظة بتسعة وأربعين راكباً مع أمتعتهم. ولسوء حظي التقيتُ في القطار بقائم مقام السّلط وكذلك بمدير عمّان اللذين أكدا لي أنه لن يكون هناك شيء يمكن اصطياده بالقرب من زيزا فيما إذا كنت أسعى لمطاردة الاوز البري، ولكنهما سوف يضعاني تحت المراقبة! لحسن الحظ غادر الاثنان عند محطة عمّان، فكان بإمكاني تنفس الصّعداء بعد أن تخلصت من براثنهما.

في الثانية من صباح اليوم التالي نزلنا نحن الثلاثة مراوي وأنا وخادمي السّوري ونمنا حيث نزلنا من القطار بين مباني محطة زيزا. ذهب مراوي في الصّباح الباكر ليستطلع المنطقة، بينما استلقيت أنا أرضاً لتفادي أيّة تعقيدات ممكنة مع السّلطات المحلية. ولقد حالفنا الحظ في ذلك. في القلعة العربية القديمة كان هناك بعض من رجال بني صَخر الذين جاؤوا لشراء مواد غذائية وهم الآن في طريق عودتهم إلى القبيلة مع جمالهم المحمّلة. لسوف يحملون متاعنا بالإضافة إلى متاعهم بأجر بخس غير أنهم لا يستطيعون حملنا. تستقرّ قبيلة الزَّبَن، أو بالأحرى هي فخذٌ تابع لقبيلة بني صَخر، بعيداً بعض الشّيء إلى الجنوب الشّرقي، ربما عشرين ميلاً وراء خط السّكة الحديد. كان علينا القبول بأي شيء يبعدنا عن المنطقة بأسرع ما يمكن، لذا قبلنا عرضهم رغم أنه ينطوي على المسير مشياً على الأقدام.

اختبأنا ذلك اليوم بطوله في القلعة، متخفين داخل القلعة إذ لم تكن لدينا الجرأة على إظهار أنفسنا. ولكني تمكنت من رؤية محيط زيزا السّاحر وهي مدينة رومانية عربية عظيمة في وسط مقاطعة كانت تعجّ بالسّكان في ردح مضى من الزّمان، وقد تعود مستقبلاً لتستعيد مجدها وازدهارها. رأيتُ خزانات المياه الرّومانية الضخمة التي قدّر تريسترام Tristram أنّ طولها يبلغ 140 ياردة وعرضها 110 ياردات، والتي لا تزال قيد الاستخدام لجمعها وتخزينها أمطار الشّتاء، وبهذا الشّكل كانت توفّر المياه لبني صَخر خلال فصل الصّيف. استطعتُ أن أرى أننا كنا قريبين جداً من الأراضي

المزروعـة، حيث يتناطـح المحراث مع الصّحـراء القاحلة لترويضهـا. كان بنو صَخر يسيطرون على بعض من هذه الأراضي المزروعة ليستقرّوا حولها في فصل الصّيف.

* * *

عند الغسـق في اليوم الثامن والعشـرين من شـهر يناير قمنا بتحميل الإبل وبالتسلل خارج زيزا، مشينا بمحاذاة سكة القطار لمدة ساعة ونصف السّاعة، ثم غفونا حتى بزوغ الفجر. كان الطّقس بارداً جداً، ومن عادة العرب أن يجلس بعضهم قبالة بعض للحفاظ على الحرارة بينهم. عاودنا المسير في اليوم التالي متبعين درب قوافل الحجيج و لكن كلاب قلعـة ضبـا[1] Qalat adh Dhaba نبحت علينا، فركضنـا نحو عصبة من الرّجال كانوا يعملون على خط تحت الحراسة التركية، تدثرنا بمعاطفنا الصّوفية وحيّينا الجمع بصـوت مرتفع وشـققنا طريقنا على عجل قاطعين السّـكة الحديدية باتجـاه الصّحراء الواسعة.

اسـتطعتُ أن أرى خـان الزّبيب Khan Zabib - وهي المحطـة المقبلة على طريق قوافل الحج - بعيداً إلى يميني بينما كانت سكة القطار قد اختفت تقريباً عن النّظر! كنا أحراراً! في بلد جميل لا حدود له، في صحراء شاسعة بحوافها النّاعمة الجميلة، كانت الصّحراء مكسوة بغطاء أخضر بفعل الرّبيع الزّاهي وكانت الحبارى والطّيهوج الرّملي وكذلك الطّيور الصّغيرة، ولكن لا أثر للإنسان.

يُشـبه ذلـك الهـروب من حـدود الحضارة هـروب التلاميذ من أسـوار المدرسـة! سـنكون مـن الآن فصاعداً نحن أنفسـنا. لن نعتـرف بمعلّم ولن يحكمنـا قانون ما عدا قواعـد الصّحـراء القاسـية. لـن ندفع الضرائـب، ولن تشـغلنا العودة، لـن نجيب على الرّسـائل، ليست الحضارة لنا بذات أهمية. فقد نشـأت لدينا مسؤولية جديدة ألا وهي الانضباط الذاتي بأكثر صورهِ صرامةً.

---

(1) تعرف بقلعة الأزلم، تقع على بعد 45 كم إلى الجنوب من بلدة ضبا (ضباء) بمحافظة تبوك شمال غرب المملكة العربية السّعودية، وهي من محطات الحج المصري في العهد المملوكي، شيّدت في عصر السّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون.

كنـا في تلك اللحظة نبعد عن شـرقي البحر الميت حوالي خمسـة وثلاثين ميلاً في الحـدود الشّـرقية القصوى لأرض مـؤاب، وهي أرضٌ يمكن أن يقـول عنها المرء إنها استطاعت «المزج بين الصّحراء والزّراعة». إذ يمكن زراعة قسم من هذه الأرض بينما تُظهـر القصـور القديمة أو نُـزل الصّيد والتي يعـود تاريخها إلى العصـر الأموي[1]، أن الأرض في تلك الأيام لم تكن كما هي عليه الحال اليوم.

تحـدّد هـذه الآثار الحدود القصـوى التي وصل إليهـا المدّ السّـكاني، أمّا ما بعدها فهي أراضٍ بور غير قابلة للاسـتصلاح. تشـير الأرض أننا كنا في مركز تجمّع مياه تلك الأوديـة العظيمة، التي تغذّي البحر الميت من سـهل مـؤاب. لا يوجد في هذه المنطقة ميـاه دائمـة بالتأكيد بل ميـاه الفيضانات النّاجمة عـن الأمطار في فصل الشّـتاء، ولكن على بعد خمسـة عشـر ميلاً إلى الغرب من هـذه الأودية الجافة توجـد هناك الجداول الدّائمـة الجريان وعلى ضفافها شـجيرات الدّفلى وتملأ مياهها الأسـماك. ومن هناك تشـق طريقها عبر الوديان العميقة، لتهبط من هضبة يصل ارتفاعها إلى 1500 قدم فوق المحيط منحدرة على شكل شلالات رائعة وصولاً إلى البحيرات الرّاكدة في الأسفل؛ يصل ارتفاع ذلك المنحدر ما يقارب 3000 قدم وبطول 20 ميل. وهكذا نجد أن أرض مؤاب مليئة بالتنوع.

اسـتطاع مـراوي Marawi العجوز امتطـاء ظهر الجمل المحمّـل بالأثقال في حين تابعـت بقيـة المجموعة السّـير على الأقـدام. واصلنا المسـير طوال اليـوم حتى وقت متأخـر من بعد ظهر ذلك اليـوم حين وجدنا عدداً من الإبل الضالـة، عندها وكأنما هو

---

(1) أقام بنو أميّة في بوادي الشام وشمالي جزيرة العرب قصوراً شتويّة بقصد الخروج إلى البادية والصّيد والسّمر، ومنها: المشتى، خربة المَفجَر، الخَرّانة، قُصير عَمرة، قصر جبل سيس، قصر الحير الشرقي والغربي، قصر الرُّصافة، وفي مشارف البقاع بلبنان قصر عَنجَر. والخروج إلى هذه القصور في رحلات البحث والصيد بفصلي الخريف والشتاء من أمتع ما يكون، ويعيد المرء إلى أيّام الخلفاء الغابرة. ولهذا الموضوع تتمّة هي زيارة الخلفاء للدّيارات النصرانيّة ببلاد الشام وأخبارهم الأدبيّة فيها. وأجمل ما كُتب حول ذلك كان كتاب «الدّيارات» للأصفهاني ومثله للشّابُشتي.

سحرٌ أصبحت القفار الخاوية غنية بالحياة وبالقطعان التي ترعى العشب. ومن قمة الهضبة التي تلتها رأينا أمامنا مخيّماً كبيراً، حوالي الخمسمئة بيت شَعر تمتدّ موزّعة على عدة أميال من الصّحراء. لدى انخفاض قرص الشّمس تتداخل الألوان التي تلقيها التلال وتلقي الخيام بظلالها الدّاكنة الطّويلة، ويرتفع الدّخان الأزرق من جميع المواقد وتساق القطعان إلى حظائرها. كان مشهداً مثيراً، تلك المقدّمة المفاجئة لذلك المجتمع المتوغّل في القدم والمنطوي على ذاته، مجتمع الإسماعيليين في قفار جزيرة العرب.

«أبناء سام! الابن البكر لنوح،
سيبقون دوماً أبناءً على باب
جنّة عَدْن، غير مُدرِكين للشنار،
متسكّعين في حين غادر الآخرون؛
متعالين على الفلاحة؛ غير عابئين بالفقر؛
غير شاكرين للهبات الإلهية،
أداؤهم غثاء، ودعاؤهم هباء،
لا يجادلونه عندما يشيح بوجهه.
أشعة الشّمس والمطر لكم،
من حكمة قديمة نسيها عالمنا،
وكذلك الشّجاعة في يومٍ لا موتَ فيه.
نحن أبناء يافث Japhet نقف بفزع
يجري في عروقنا اضطرامٌ للحياة والنَّفَس،
أمام وجهك، أنحني ولا أُبالي».

لعلّك تطلق أيّ لقب على البدو، تقول إنهم مخفقون وغير أكفياء، شعب بلا طموح، مقدّرٌ عليهم الحياة البائسة في أرض قاحلة، ربما تدعوهم قطّاع طرق، غُزاة، آفة على المجتمع، ولكن الحقيقة تبقى أن لديهم القدرة على الاستمرار كما عاشوا منذ أيام النّبي إبراهيم! حقاً أنهم لم يتطوّروا غير أنّهم بالمقابل لم يتدهوروا أيضاً، ونحن نعلم تمام العلم أنهم بمقدورهم تحسين أنفسهم إن هم رغبوا بذلك[1].



بنو سام

تصوير: كارل رضوان

(1) كلام المؤلف فيه دفاع ضمني عن البدو، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن كلامه كان في عام 1909 فعلينا أن نتذكّر أن حياة البداوة في جزيرة العرب آنذاك كانت مثالاً للبساطة وشظف العيش، ولكن عندما ظهرت في تراب الجزيرة في القرن العشرين ثروات الأرض، سرعان ما قامت بين شعوبها البدويّة حضارة باهرة، لا ريب أن أرفع مثال لها هو في أرض الإمارات العربيّة الزّاهرة.

عندما ابتعد عن صحرائه بنى المدن، وبالإيمان وحده غزا العالم. أصبح من الأغنياء عندما أراد، غير أنه قادرٌ على احتقار الغنى والسّلطة معاً وبالقدر ذاته، وقادر أيضاً على العودة إلى قفاره ليعيش هناك ألف سنة أخرى. قد يكون ما يزال هناك عندما لا نكون نحن هنا! «لنفترض أن سام ما زال حياً وليس يافث Japhet، ستعيش مكّة عمراً أطول من مانشستر وعندما تتحول أوروبا إلى قارة خربة سيكون العرب مازالوا في خيامهم في الصّحراء، «متعالين على الحفر؛ غير مبالين بالفقر؛ جاحدين للهبات الإلهية، أداؤهم غثاء، ودعاؤهم هباء، مستمرين في حياتهم كالأهرامات التي رأى أسسها عنما وضعت!»[1].

ذلك الشّعور بالتحمّل والاستمرارية بالتأكيد ليس عادياً بالنسبة لتلك المضارب الرُّحّل. ذلك الانطباع يبدو متناقضاً مع تلك القرى المؤلفة من بيوت الشّعر، ولكنه حقيقي. يبدو البدوي وكأنه خالدٌ وغير قابل للتغيير كما هي صحراؤه الأبدية. ذلك الانطباع منحنا ما يكفينا من الغذاء للفكر. ماذا عن تلك القلاع العملاقة الخاصة بالصّليبيين وراءنا على تلال مؤاب؟ لقد رأى أسلاف بني صَخر تلك القلاع عندما جرى بناؤها، وكانوا بلا شك مصدراً للمتاعب الجمة بالنسبة للبُناة. تهاوت القلاع ومازال العرب هنا. ماذا عن قصر المشتّى Mashatta الأموي، وماذا عن قصر الخرّانة Kharana؟

يرعى بنو صَخر قطعانهم في ديارهم بين الأنقاض! وقد بنى شيخ قبيلة بني صَخر لنفسه منزلاً صيفياً من بقايا قلعة القسطل الرّومانية! أين حسبان Hesbon، مدينة سيحون Sihon، التي وقفت في طريق بني إسرائيل؟ لم يبق سوى اسمها، بينما بقيت قبيلة بني صَخر تعيش بنفس الطّريقة التي كانت تعيش فيها عندما مرّ بنو إسرائيل عابرين حدودهم. رأيتُ خيام بني صَخر وقد نصبت إلى جانب آثار الموقّر[2] Mukawer حيث حكم هيرود وحيث رقصت سالومي!

---

(1) كتب المؤلف: ميريديث تاونسند Meredith Townsend.

(2) الموقّر موقع لقصر أموي يبعد عن قصر الخرّانة 35 كم غرباً، و10 كم جنوب غربي قصر المشتى. لكن كاروثرز يكتب اسمه بالغلط: Mukawer.

مـرّت بهـذه الدّيار حضارات عديـدة، كالمصرية والآشـورية والفارسـية واليونانية والرّومانيـة، وتركـت آثـاراً لها ثـم غادرت. شـهدت قبيلة بني صَخر علـى جميع تلك الحضـارات من مرصـد عُزلتها في الصّحارى الخاصة بها. سـمعوا الإسـكندر الأكبر وهو يرعد ويزبد وربما طعنوه في خاصرته وضايقوه. ولا شك أنهم شاركوا في جيش خالـد بـن الوليد عندما هـزم الفيالق الرّومانية علـى ضفاف اليرموك، كما شـهدوا بعد ثلاثة عشر قرناً وفي المحلة ذاتها تقريباً إبادة الجيش التركي الرّابع.

* * *



مع بني صخر



خيمة حَثمَل الكبيرة

أقمنـا تلك الليلة في الخيمة مـع العربان الذين أتينا بصحبتهم، والتي اقتصرت ضيافتهم على الخبز وحليب النّوق. وفي اليوم التالي انتقلنا إلى خيمة الشّيخ حَثمل Hathmel رئيس هذا البطن من قبيلة بني صَخر، حيث شهدنا الضيافة البدوية بأبلغ صورها. كان طول خيمة الشّيخ حثمـل يبلغ ثمانين قدمـاً وبدا أنـه كان يبقيها مفتوحة دوماً. جلسـنا على السّجاد، وبينما كانت فناجين القهوة تُدار كان الحديث يأخذنا شمالاً وجنوباً، من الغارات في حلب شـمالاً إلى المتاعـب في الحجاز، من المؤامرة الأخيرة لابن رَشـيد في حائـل إلى ما تردّد عن غموض ما يجري في الرّياض. تتداخل تلك الأحاديث السّياسية العربية الخالصة بقدر كبير مع بدعة الأتراك وخطهم الحديدي، الذي لم يزل يعتبر في ذلك الوقت من قبل العرب إهانةً كبيرة لصحرائهم، وعنصراً يُقلص من حريتهم.

عايشـتُ للأسـبوع التالي الحياة الطّبيعية للبدو خلال فترة الرّكود في فصل الشّتاء. كنا نجلس طوال الوقت ونمضي أياماً طويلة لا نعمل شيئاً سوى الاستماع إلى الحديث اللامتناهي، الذي كان لا بدّ من تحمله، لأنه كان السّـبيل الوحيد للقيام بالأعمال، غير أن الوضع كان مزعجاً للغاية بالنسـبة إلى العقلية الغربية. «العجلة من الشّـيطان» كلما أسرع الأجنبي في تعلم هذا الدّرس كلما كان ذلك أفضل له لتحسين قدرته على التعامل

مع العرب. وما إن تم التلميح إلى رغبتنا بشراء الإبل حتى بدأ سرد القصص عن سباق الهجن وعن المسافات غير العادية التي تم اجتيازها دون ماء وعن أفضل سلالات الإبل. وكان ذلك بمثابة الفنون الجميلة بالنسبة لتجّار الإبل، فالإبل بالنسبة للعرب هي بمثابة الذهب بالنسبة لنا. فهو يعيش عليها ويسيطر كذلك عليها، أما معاييرنا فلا يمكن السّيطرة عليها! كانت إبل بني صَخر جيدة، ولكن إبل الشّرارت أفضل، ولحسن الحظ كان قسم من مضارب أولئك العربان متصلاً بمخيم قبيلة صَخر.

هنا اجتمعتُ للمرة الأولى بالشّرارت Shararat، وأعترف أنهم لفتوا انتباهي فهم ليسوا بالأناس التقليديين، يعيشون دون مظاهر، ويقومون بالعمل بأكبر قدر ممكن من الكفاءة ليعيشوا حياة متقشّفة في أصغر الأراضي مساحة. أظهروا صفاتٍ تفوق المعدلات الطّبيعية لقبائل البدو الكبيرة التي كانت تزدريهم لأنهم ليسوا منها. كانوا شعباً بلا أرض ولم يدّعوا حقهم بملكية أيّ أرض، ما خلا تلك الأرض البعيدة جداً والقاحلة في جبل طُبيق Tubaiq.

يعطي أبناء الشّرارت انطباعاً عن الفقر المدقع ولكن قيل إنهم لم يكونوا بمستوى ذلك الفقر الذي يبدون عليه، واستنادا إلى نوع الإبل التي يمتلكونها فقد كان باستطاعتهم أن يعيشوا على نحو أفضل. لم يكن فرش بيت الشّعر البدوي فاخراً، ولكن خيمة الشّرارت كانت تعوزها ضروريات الحياة الصّعبة، حتى أنها كانت تفتقر إلى القهوة في كثير من الأحيان. غير أن سمعتهم كصيادين كانت جيدة، وكما هو حال جبل طُبيق Tubaiq الذي يعتبرونه محميّة خاصّة بهم، فقد كان ملعباً جيداً لذلك المضمار، يبدو أن ذلك كان سبب إعجابي بهم وبالتالي كانوا ذوي قيمة خاصة بالنسبة لي. فقد كانوا معروفين أيضاً بسادة الإبل، فليس هناك أفضل من أرضهم لشراء الإبل.

لقد كانت قفار الشّرارت موئل التيه[1] Tih، أيّ الجمل العربي البرّي الحرّ الذكر، كما أخبرنا داوتي Doughty: «له فقط ثلاثة أضلاع، ويركض بسرعة مذهلة قد تفوق سرعة أيّ حصان».

---

(1) وقد يسمّى: التّيه الوحاشي. وهو من أفضل النّجائب وأسرعها جرياً.

ويقال إن قبيلة الشّرارت كانت تسمح لجمالها بالشرود في الصّحراء شريطة أن تكون محميّة من قبل التّيه؛ ويدّعون أنهم قادرون على تمييز ذريته بناءً على الأضلع الثلاثة. أما نوق الذّلول theluls من الشّرارت فيُشاد بها من بين جميع إبل غربي جزيرة العرب[1]. وهكذا فقد استقرّ خيارنا على الإبل الشّراريّة، وبعد أسبوع من المقايضة البطيئة ومن المناقشات الكثيرة اشترينا ثلاث ذلائل أو نياق بـ 11 و14 و16 جنيهاً استرلينياً على التوالي. كانت تبدو أصيلة، صغيرة ولكنها قوية وشديدة التحمّل.

أدّت مطاردة ناجحة مع الشّيخ حثمل إلى رفعت مقامي في نظر البدو، إذ يعتقد العرب أن لا أحد سواهم يستطيع ركوب الإبل وإطلاق النّار. انطلقنا في أحد الأيام أنا والشّيخ حثمل وخادم واحد للصيد، ولم يكد يمض وقت طويل حتى أبصرنا قطيعاً من الغزلان على بعد ميل واحد من حافة تلّ. استدرنا حولها من أجل تحويلها إلى التلال، وخلال حركتها وجدت الفرصة السّانحة والسّهلة التي وصلت فيها إلى مرمى النّار لدي، فعلى الرّغم من عدم القدرة على مجاراة الغزال في العراء في المنحدرات، فإنّ لديه نقطة ضعف فهو أعمى تماماً على حدود الأفق ولا يمكنه معرفة ما سيجده على الجانب الآخر، أبطأ القطيع مسيره دون أن يدري واجتاز القمّة بحذر، مما أعطى المطارد الفرصة لربح الجولة على أرض الواقع، وأحياناً كانت الفرصة تصل لحدود أن يترجّل المطارد لإطلاق النّار.

وهكذا استمرّينا بين ركوب صعب ثم ترجّل وإطلاق النّار ثم معاودة الامتطاء والعدو وإطلاق النّار مرة ثانية، وهكذا دواليك حتى اصطدنا تسعة غزلان. كان صيداً جيداً بما ينطوي عليه الأمر من ركوب صعب وإطلاق سريع للنار. في لحظة واحدة وقفتُ على مقربة من القطيع بما يقارب الثلاثين ياردة من آخره. تعلّق قلب حثمل فوراً بمخزن بندقيتي[2] التي أطلقتُ منها خمس طلقات بينما كان يذخّر بندقيته للمرة الأولى!

---

(1) يتغاوى العرب بالنوق الشّراريّة، ويدفعون بها أثماناً باهظة.

(2) يعني بندقيّة المانليخَر النمساويّة، وهي طبعاً ليست نصف آلية كما قد يظن القارئ من وصف كاروثرز، بل تعمل بمغلاق يدوي Bolt Action أو كما تُعرف بالألمانيّة بتعبير: Repetier-büchse.

احتفلنا لدى عودتنا إلى المخيم مساء ذلك اليوم بوليمة ضخمة، في نهايتها عرض عليّ حثمل أن يحملني في رحلة الصّيد المقبلة على واحدة من أفضل إبله الذلول إذا ما أعطيته بندقيتي لدى عودتي - التزم كلانا بالصّفقة، وأكثر من ذلك فقد منحني زوجاً من سروج الإبل التي كانت موضع حسد نساء البدو اللاتي رأينه في طريقي إلى تيماء وعند العودة بسبب تصميمهما ولونهما. كانت مستضيفتي، قبيلة بني صَخر، قبيلة نموذجية على المناطق الحدودية العربية. منذ وقت ليس ببعيد، وذلك قبل أن يفرض الأتراك سلطتهم، كان بنو صَخر يشكلون تهديداً للأراضي الآمنة.

وصفهم داوتي Doughty بأنهم «قبيلة قوية ثم قال عنهم فيما بعد بأنها هائلة، بعدد فرسانها، لذا لم يكن لدى أحد الجرأة بعبور تلك المنخفضات إلاّ ليلاً أو بحماية عصبة قوية. تم اختبار غطرستهم البدوية التي لا تُطاق من قبل حملة عسكرية بقيادة محمّد سعيد[1] القائد لقافلة الحج الآن، القائد الظافر الذي تمرّس على هذا النّوع من الحرب الأهلية منذ شبابه. شعر العرب بالإحباط، فمعظم قوتهم تكمن في ألسنتهم وقد مضت الأيام التي لم يكن فيها من يقودهم، صادر لهم الپاشا الخيول والماشية.... أما فساد العرب المقيمين على الحدود فمزدوج، فهم أقرب للاستقرار بينما يقيمون في الصّحراء: والبدو الآخرون يتحدّثون عنهم بمقت».

(1) يقصد محمّد سعيد پاشا شَمْدين كبير عشيرة الدّقوريّة الكرديّة، الذي ولي إمارة الحج في أيام السّلطان عبد الحميد خان الثاني.

رُعاة قبيلة بني صخر



ذلائل وفلائها

لبني صَخر سمعة مفزعة، فالقبائل التي تتراوح على مشارف الحضارة تكون أكثر عدوانية وأكثر خطورة من تلك التي تعيش منعزلة في الدّاخل ولا تتصلّ بأي نفوذ أجنبي. والحقيقة هي أنّ بني صَخر ليسو مستقلين تماماً، فرغم سيطرتهم على أراضٍ صحراوية شاسعة يمكنهم التراجع إليها، غير أنهم يعتمدون على مراعيهم الصّيفية وعلى الرّيّ في الأراض التي يستقرّون بها بشكل مؤقت في البلقاء Belqa، وبالتالي يدخلون في حيّز تطُبيق القانون. ولذلك يهذبون من تصرفاتهم كي لا يتعرّضوا لملاحقة الأتراك. هناك قبائل بدوية أخرى «خطيرة إذا تعرّضت للاستفزاز وعقيمة إذا تعرضت للهجوم»، لأنها تبقى على مدار السّنة بعيدة عن متناول السّلطة، فقد أوجدت قانوناً لنفسها.

ولكنّ بني صَخر ليسوا كذلك. فعلى الرّغم من تجوالهم في المناطق الدّاخلية حيث ينعدم القانون خلال ستة أشهر في السّنة، يقضون الجزء المتبقي من السّنة في مضارب في البلقاء Belqa حيث ينبغي لهم التعايش مع الفلاحين بسلام نسبي. ولكن الصّحراء تبقى دوماً قريبة هناك خلفهم كالملاك الحارس، حيث يمكنهم اللجوء إليها في حالات الطّوارئ. فعلى سبيل المثال أثناء الحرب، عندما تعرّضت قبيلة صَخر لخطر فقدان قطعانها من الإبل بسبب حاجة الأتراك لها، قامت بمصالحة وتسوية خلافاتها مع ألدّ أعدائها والتراجع مع جميع القطعان إلى أغوار القفار المنيعة.

نظرنا ونحن نجلس هناك في خيمة لبني صَخر مرة أخرى إلى الأراضي المسكونة بعين جديدة. لقد اكتسبنا إحساساً غريباً من الحرّية يقارب الاستعلاء. لا يمكن لأي نفوذ أن يصل إلينا، فقد كنا بعيدين عن متناول أطول ذراع للقانون. نظرنا إلى العالم وراءنا تماماً كما يفعل متسلّق الجبال عندما ينظر من أعلى قمّة وصل إليها حديثاً إلى الأرض أدناه بشيء من اللامبالاة لما يحدث هناك، شعور مريح بالعزلة.

عندما قلّ الماء أو المرعى تحركنا كالطيور البرّية المهاجرة بحثاً عن مصادر أفضل للغذاء والماء، وبعد عدّة تنقلات وجدنا أنفسنا على بعد حوالي 30 ميلاً الى الشّرق من القطرانة Qatrani، وهي المرحلة التالية إلى الجنوب من خان الزّبيب Khan Zabib

علـى طريـق الحجّ. كانت البلد هنـا أعلى فنحن على ارتفاع حوالـي 3000 قدم. نظرنا شرقا إلى الأفق البعيد، كانت طبيعة قاسية، صعبة، عديمة اللون وبغيضة.

وعلـى النّقيـض من ذلك، كنا ما نزال نـرى خلفنا خطاً أزرق خافتـاً يدلّ على جبال مـؤاب وتلال القـدر hills of destiny، وحدود المسـيحية والإسـلام التـي كانت في السّـابق محميّة بالقلاع الصّليبيـة مثل قلعة الكرك Karak وقلعة الشّـوبك Shaubuk، المنتصبتيـن كمنارتين على سـاحل الصّحراء، حيـث المدّ والجزر المسـتمرّان يمدّان حيـاة البـدو الرُّحّل بحركة لا تهدأ. هاجت العواصف وتكسـرت فـي فترات معينة من التاريـخ، فتجـاوز رجال الصّحـراء الحواجز إلـى الأراضي السّـكنية. لقد حدث ذلك سـابقاً وقـد يحدث مرة أخرى، إذ لـم يكن عرب الصّحراء أكثر اتحـاداً منهم اليوم منذ عهد النّبي!

إلـى الجنـوب منا وليس بعيداً يقع وادي باير Bayir، الذي يعتبره بنو صَخر مقدّسـاً بالنسـبة لهـم لأن قبـر جدّهم الأعلى يقع في ذلـك الوادي. وقد قيـل إن أحداً لا يجرؤ على دخول الوادي دون التضحية مسبقاً ببعير. كان مقدّراً لي أن أرى قبر جدّهم الأول فـي وقت لاحق في ظل ظروف مثيـرة، عندما كان من المقرّر أن أقدّم نذوري المعلّقة. صحيـح أنهـم من سـلالة العـرب الشّـماليين، ولكـن داوتـي Doughty كان يعتقد أن أصلهم يعود إلى أبعد من ذلك جنوباً عندما يقول «حتى بنو صَخر فقد كانوا من العرب الجنوبييـن القدامى، وديارهـم القديمة كانت مدائن صالح نفسـها، حيث رويت عنهم الأساطير بأنهم من ذرية تلك الصّخور».

«أبناء الصّخور» هو لقبهم، بينما يقول آخرون أن أصل اسـمهم نابع من الصّخور[1] البركانية السّوداء التي تحمي أراضيها. لو أن بني صَخر عاشوا في مسار تلك الصّخور البركانيـة حـول جبل الـدّروز وخلف وادي السّـرحان فقد يقبـل المرء تلـك النّظرية، ولكـن ليـس هناك مـن منطقة بركانية فـي أراض القبيلة في الوقت الحاضـر. إنّ داوتي

(1) كلام مضحك، فنسبة جميع القبائل تكون إلى اسم جدّها الأعلى، وقبيلة صَخر تنتسب إلى صخر بن جرم، وهو ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيء.

Doughty على حق، ما لم يكن هناك مصدر ثانٍ للاشتقاق، ذلك بأن مرابعهم الصّيفية تضمّ المنحدرات الصّخرية لجُرف جبل مؤاب المنحدر باتجاه غور الأردن.

على أيّ حال، كانت قبيلة بني صَخر في فترة من الفترات سيّدة لرقعة أوسع من البلاد، بما في ذلك وكما يقال أراضي تَبوك وتيماء. في عملية الترحيل الأخيرة شاهدتُ القبيلة المهاجرة بكامل أبّهتها. وبتقدّمهم على جبهة واسعة أعطوني انطباعاً حيّاً كيف كان يبدو بنو إسرائيل، عندما تجولوا قديماً من بئر إلى آخر في هذه المنطقة وإلى الغرب قليلاً. لقد كان مشهداً مثيراً أن ترى تحرّك قبيلة بأكملها، تتحرّك أولاً قطعان الإبل يحدوها الفتيان والفتيات، ثم تتبعها الأباعر المحمّلة بالمتاع من خيام وأغراض منزلية وأطفال صغار، بينما تمشي الحريم أو تمتطي أعلى الأحمال وهي تنشد الأغاني البدوية أو تتحدّث إلى جيرانها.

أما الرّجال المسلّحون فيمتطون صهوات جيادهم تتقدّمهم الكشافة أو تسير في المؤخرة لمراقبة الأعداء، والانخراط بين الحين والآخر في مسابقة الكلاب السّلوقية أو في إرسال صقورهم لصيد الحُبارى والأرانب البرية. عندما وجد الشّيخ أرضاً مناسبة للتخييم أشعل ناراً في إشارة منه إلى بقية القبيلة المنتشرة على نطاق واسع من الصّحراء. يدلّ الدّخان إلى موقع خيمة رئيس القبيلة فيجتمعون حولها على شكل مجموعات، عموماً في الأغوار أو على حواف الوديان كي يكون مأوىً لهم ليتجنبوا الرّياح. رُفعت المقصورات السّوداء، وبدأت كل أسرة حياتها الخاصة من جديد، كما لو أنها لم تنتقل أو لن تتحرك مرة أخرى. اجتمع الرّجال حول القهوة وعادوا يمارسون خمولهم المعتاد من جديد إلى أن تتحرك فيهم روح الحماسة للخروج في غزو، أو للانتقال إلى مكان تخييم آخر حسب الضرورة.



القبيلة المرتحلة

تصوير: كارل رضوان

كُسرت الرّتابة في إحدى الأمسيات بسبب الخوف من هجوم قد تشنّه قبيلة معادية. وعَلَت الصّرخات مستدعية الفرسان من خيمة إلى خيمة عبر المخيّم بسرعة مدهشة. تحوّل الخمول البدوي إلى إثارة محمومة. أسرع كل من يملك جواداً أو يستطيع استعارة جواد إلى التسلّح وامتطاء جواده والانطلاق، وخرجت النّساء أمام خيامهن لتوديع رجالهن، بينما انطلق الرّجال الذين لا يملكون جواداً على أقدامهم، بينما ينشغل الفتيان والرّجال المسنّون برعي الإبل قرب الخيام.

نادراً ما يتم دخول المخيم في الحروب البدوية أو أن يتم انتهاك حرمة الخيام. لذلك يغادر جميع الرّجال القادرين على القتال المخيّم دون خوف من أن تنتهب ممتلكاتهم أو تُنتهك حرمات نسائهم. الغارة العربية هي نوع من أعمال الخطف والاستيلاء من خلال الانقضاض المفاجئ على العدو الغافل وجمع كل الإبل التي تقع تحت سيطرته والهروب قبل القبض عليهم. تحوّل الذعر في هذه الحالة بالنسبة لنا إلى سراب. غامر الغزاة في الهجوم على مخيّمنا ولكنهم أعطونا الفرصة لمعرفة عددنا وقوتنا. سمعنا بعد يومين عن معركة جرت بين الحويطات Huwaitat وعرب الحَسَا[1] Al Hasa

(1) ليس المقصود بالحَسا هنا منطقة الأحساء على السّاحل الشرقي لجزيرة العرب، بل هو وادٍ في الأردن يقع إلى الجنوب الشرقي من جبل مؤاب وإلى الجنوب من القطرانة، وإلى جهة الشرق منه باير.

ممّـا أدّى إلى وقـوع عدّة إصابات. وعلى الأرجح كانت تلك الغزوة اسـتمراراً للغزوة الفاشلة التي وقعت عندنا.

لـم تكـن قبيلتنا الحويطات وبني صَخـر على مودّة، وكلّ منهما كانت تُحسـب على قبيلة من القبائل المتحاربة. قبيلة بني صَخر قبيلة قوية يمكنها حشد الرّجال المسلحين والخيول التي تعدّ أعظم مصادر القوة في حرب الصّحراء. والإغارة على الهجن عامل ضعف تسهل مهاجمته من قبل الفرسان البدو، لذا تجد الغازين المنظمين يستخدمون الخيل والإبل معاً، بحيث تباشر الخيول الهجوم إلى أن تنعقد المعركة الفعلية.

هـذا ويبلغ تعداد إبل قبيلة بني صَخر بحدود العشـرين ألف رأس، وهي ربما قادرة على حشد خمسمئة رجل مسلح.

* * *

انتهت ترتيباتي الآن تقريباً، وما من سبب يمنعنا من البدء باستثناء أحد أهم أولويات السّـفر فـي الصّحـراء ألا وهو الرّفيق أو جواز السّـفر البشـري. نظام الرّفيـق رائج عند البدو الرُّحّل غير قادرين على القراءة والكتابة، فإلى من ينبغي أن نقدّم جواز السّـفر أو رسـالة التعريف؟ لذا يأخذ البدوي رفيق سفر لضمانة سلامة درب المسافر في أراضي عشـيرته. وفق العرف، إذا عزم عبد الله المرور عبر أراضي قبيلة حْمود ينبغي أن يأخذ رجلاً من قبيلة حْمود ليكون في أمان، وبالتالي تكون سـلامة عبد الله هي مركز اهتمام أعضاء هذه القبيلة.

لا أعتقد أنه ينبغي لي الاعتماد سـوى على رجل من الشّـرارت أو ربما من المخيم المشـترك بين الرّوَلة والشّـرارت في رحلتي. أما الخطر الوحيد الكامن فهو من الغزاة الممارسـين للنّهـب من قبائـل شـمَّر Shammar والحويطـات Huwaitat وبني عطيّة Bani Atiya، الأمـر الـذي لا ينفـع معه حارس. لـذا اتخذت من رجل من الشّـرارت رفيـقَ درب لـي وأخذت أرجـو حصول الأفضل. كنا في ذلك الوقت في السّـادس من فبراير، وقد كان الطّقس بارداً جداً مع القليل من الثلج.

على الرّغم من إظهار الصّحراء لبعض علامات اقتراب الرّبيع، لم تكن المراعي كافية لتمكين الجمال من الاستغناء عن المياه فترة طويلة كما سيكون عليه الحال بعد شهر من الآن. لذا كانت قطعان بني صَخر ترعى في مناطق تتوفّر فيها المياه على بعد حوالي ست ساعات عن القبيلة، وقد أرسلتُ إبلي معهم لتتمكن من شرب كميات كبيرة من الماء لآخر مرة قبل مباشرة السّفر، لأننا سنمضي لمسافة لا تقلّ عن 100 ميل قبل أن نصل إلى أيّة منطقة يُتوقع أن يكون فيها ماء مرة أخرى، وحتى توفّر الماء هناك لم يكن مؤكداً. كان بحوزتنا أربع قِرب من جلود الماعز مليئة بالماء لتكفينا نحن الأربعة ولمدة خمسة أيام.

كان القمر بدراً، وقد هدفنا إلى الاستفادة من ذلك لعبور المنطقة الخطرة، لذا وعند غروب الشّمس تسللنا خارج مخيم بني صَخر وتوجّهنا صوب الجنوب الشّرقي.

* * *

الفصل الثالث

الانطلاق إلى تيمـاء

«في أرض البرية والحفر، في أرض الجفاف وظلال الموت. في أرض خواء لـم يمر أو يسكن بها إنسان». - إرميا

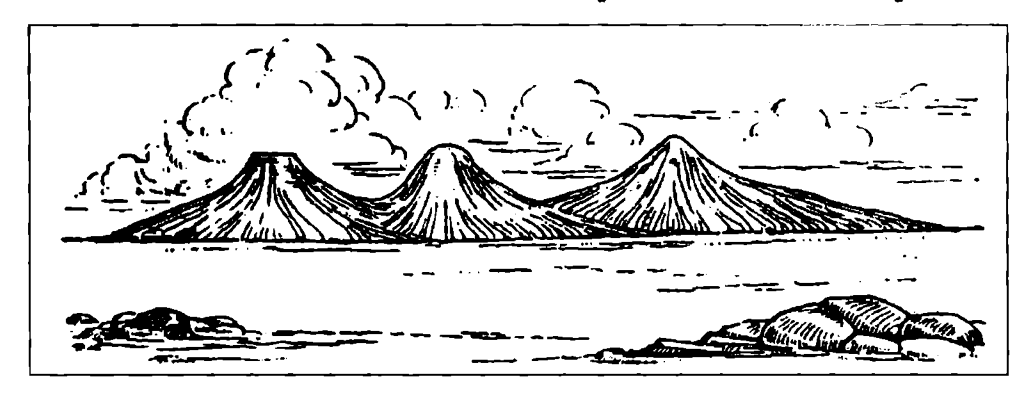
ليلة صحراوية تزحف السّحب في سمائها تحت أضواء القمر المتقطعة لتفتح أمامنا الطّريـق. كان علينا قطع حوالي مئتي ميـل للوصول إلى أرض النّفود الكبرى حيث كنا نأمـل في العثور علـى المَهاة، قد نجدها قبل الوصول إلى الرّمال، ولكننا كنا نعرف أننا سـنصل إلى النّفود. ارتحلنا سـريعاً حتى منتصف الليل ثم أنخنـا جمالنا ونمنا بجانبها حتـى بـزوغ الفجر، ثـم عاودنا الحركة مـع بزوغ الفجر ولبضع سـاعات قبـل التوقف لتنـاول بعـض الطّعـام. تلك هي عـادة العرب عند السّـفر عبـر المناطـق الخطرة، فقد علّمتهـم الخبرة الطّويلة أن أسـلم خطة هي «مواصلة التحـرّك». فإذا ما ناموا في منطقة ما عليهم أن يتحركوا ويغادروها سـريعاً قبل أن يأكلوا شـيئاً؛ أما إذا أكلوا مساءً فعليهم مغادرة تلك المنطقةليناموا في مكان آخر.

كنـا نعـرف الجزء الذي أمامنـا أنها أرضٌ خاوية ليس فيها من أحـد، ولم يكن هناك مَن يسـتفيد من تلك البقاع سـوى قبيلة بني صَخر التي تركناها وراءنا، إنهم ينزلون في هـذه القفـار للاسـتفادة من الرّعي في فصـل الرّبيع. كُنـا نأمل بألا نرى أحـدا، لأننا إن التقينا بأحد فلا بدّ أنه سيكون عدواً مما سيثير المشاكل. نحن نعبر الآن نقطة اللاعودة، حيث اعتاد الغزاة ghazzus المرور جيئة وذهاباً إلى سوريا، لذا أسرعنا في اجتياز تلك

المنطقة. كان لدى الوديان والمنخفضات البيضاء ذوات الصّخور الكلسية الأثر الوحيد على بقايا المراعي. لاحظتُ أن جميع مسايل الماء تجري الآن باتجاه الشّمال الشّرقي إلى أراضي السّرحان، ذلك الحوض الواسع والقائم بحدّ ذاته هو السّمة الرّئيسية في صحراء الجنوب السّوري. يجمع حوض السّرحان بالإضافة إلى غور الجوف المياه المتجمعة من حوالي 36,000 ميل مربع.

في تلك النّقطة ودّعنا وراءنا كل ما هو معروف من معالم واتجهنا إلى الجنوب والجنوب الشّرقي عبر القفار المجهولة، كما كانت. إلى أن التقط رفيقي الشّراري بوصلته، إلى يميننا تقع الثليثاوات (الثلاث أخوات) Thulaithukhwat، أما أمامنا فصخور وقف Waqf النّاتئة التي مررنا بينها كحجر الصّوّان. تضائلت المراعي بالتدريج إلى أن غابت تماماً عن النّظر وأصبحت السّهوب البيضاء المتموجة أراضيَ صخريّةً سوداء.

أخذت التموّجات تنبسط شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت الأرض منبسطة تماماً، أسرعنا للدخول في الأراضي الواسعة المفتوحة، المسطحة والملساء كطاولة البلياردو والسّوداء كقبعتك. هذه هي الأرض المعروفة بأرض الصّوّان. اعتقدت أن البلقاء Belqa أرضٌ جميلة مفتوحة ولكن هذه الأرض تبدو كالمحيط مقارنة ببقية الأراضي. عندما تلاشت أراضي ثلاث أخوات Thulaithukhwat والوقف Waqf عن النّظر، جالت العيون شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً في الأفق فلم تقع على شيء. تحركنا نحن الأربعة في تلك القفار مثل النّمل في ملعب كرة التنس!

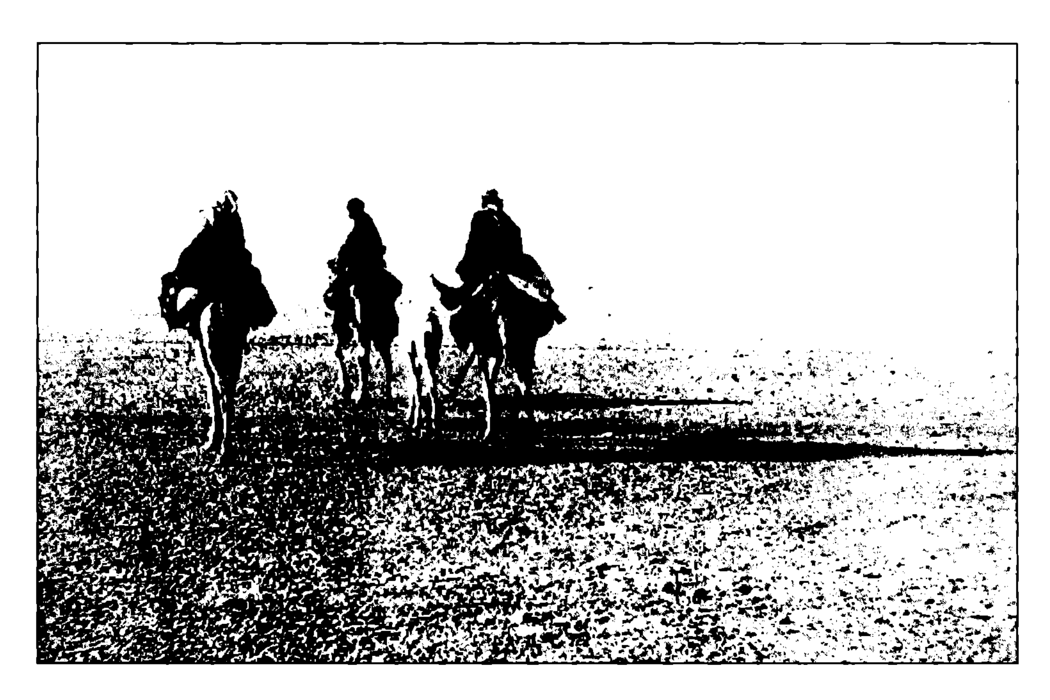


وحتى هذا الفراغ لم يكن كما بدا عليه الأمر لأول وهلة، فقد وجدناه يتقاطع مع أودية جافة استمدّت منه وجودها حتى وقفنا على حافتها. وصلنا أولاً إلى وادي باير Bayir وفيه استرحنا قليلاً وتناولنا طعامنا، لا بدّ أنه كان مسيلاً هاماً. بلغ عرض المنحدر 300 ياردة وفيه كانت المياه قد شقت قنوات عميقة.

كان هناك الكثير من الشّجيرات الصّغيرة والقليل من أشجار السِّدر، وبعيداً إلى الغرب كانت هناك نقطة علاّم معروفة باسم «متاهة باير» Mataha Bayir تقوم بإرشاد المسافرين التائهين إلى مواقع الآبار وإلى أطلال موقع باير Bayir. قطعنا وفي الوقت المحدد الرّؤوس الثلاثة لوادي غرّا Ghara وفي نهاية المطاف وصلنا إلى وادي رَسا Rasa حيث بتنا لليلتنا في ذلك الوادي الرّملي العميق. لقد كان منخفضاً واسعاً من الأرض يحتوي على بعض النّباتات لتغذية الإبل وعلى عددٍ محدودٍ من الأشجار وعلى الكثير من الحيوانات.

حافظتُ على إخلاصي للمتاحف التي وظفتني، فقد كنت وعلى الرّغم من الرّكوب شبه المستمرّ للإبل أنصب الفخاخ كل ليلة لصيد حيوانات صحراوية قليلة في الصّباح. كانت المسألة الأكثر صعوبة التي واجهتني حينها هي المحافظة على تلك الحيوانات إلى أن أجد نفسي قادراً على سلخها، وقد عفوت عن عدد منها لأنها لم تكن بالمستوى المطلوب! كانت المنطقة مليئة بالحياة البرّية للحيوانات الصّغيرة حتى بدت بعض الأماكن وكأنها أقراص من الشّمع بسبب الحفر التي تحتويها، والتي كانت تغور تحت وطء أرجل الجمال لتصل إلى ركبها. كما كانت هناك أيضاً جحور معزولة تدلّ على وجود الجرابيع أو فئران الكنغر. كان الغزال غائباً تماماً عن هذه المنطقة لأسباب واضحة وهي عدم وجود مرعىً له، وحتى أرانب الصّحراء الشّائعة عادة، تجدها نادرةً هنا. حتى الطّيور كانت نادرة أيضاً باستثناء غُرابين تبعانا عدة أيام على خجل ناعقين وكأن لسان حالهما يقول:

«إنه من عادة المسافرين في هذه المنطقة ترك مكافأة على شكل جيفة للغربان!».



بادية أرض الصّوّان

قريباً من هنا وإلى الشّـرق تقع مسـارات اثنين ممّن سـبقني إلى هذه المنطقة وهما ڤالين Wallin وپالغريڤ Palgrave، وعلى الرّغم من أن بداية كلّ منهما كانت مختلفة فالأول باشـر رحلتـه قريباً من الطَّفيلـة Tafila والآخر من معان، غير أن كليهما سـعى لتحقيق نفس الهدف في وادي السّرحان: آبار أويسِط Waisit التي تقع على بعد حوالي 40 ميـلاً الى الشّـرق من مخيّمي في وادي الحَسَـا[1]. لكن أياً منهما لم يسـتطع إضافة الكثير إلى خريطة المنطقة؛ في الواقع فإنّ خريطة عام 1909 لم تقدّم سـوى جزءً كبيراً من بقعة بيضاء اللون، جاء ڤالين ليشير في تلك البقعة إلى بركة بايق[2] pond of *Baig* وهي بركة ماء تشـكلت بسبب مياه المطر في الجزء العلوي من وادي باير Bayir، لأنه لم يأت على ذكر الآبار أو الأطلال. أما الأسـم الآخر على خريطته فقد كانت البُسـيطة

(1) ذكرت أعلاه أنّ الحَسا وادٍ في الأردن يقع إلى الجنوب الشرقي من جبل مؤاب وإلى الجنوب من القطرانة، وإلى جهة الشرق منه باير.

(2) هكذا يبدو لي الاسم كما كتبه المؤلف بالإنكليزيّة نقلاً عن ڤالين، ولعل القصود به باير. ولا أدري إن كانت هذه البركة ما تزال موجودة.

Albuseita، وهي نقطة علاّم مميّزة على الأرض وسنلتقي بها مرة أخرى.

أما پالغريف Palgrave فقد أضاف اسم قبيلة واحدة وهي قبيلة الشّرارت Shararat وصفة واحدة وهي «رملية»! أما غوارماني Guarmani الذي اتّبع الطّريق جنوباً إلى تيماء بخط موازٍ لمساري ولكن إلى الغرب قليلاً، فقد أضاف أسماءً كثيرةً ومعظمها يمكن التحقق منه اليوم. ارتحنا الآن من الشّعور بأننا معرّضون للاجتياح في أيّة لحظة عابرة من قبل الغزو، وما عدا شعورنا بنقص المياه لكنا شعرنا بالكثير من الرّاحة في سفرنا ذاك.

أسرعنا الخطى، ولكن ليس كمن يدفعه حافزٌ ما بحيث يتمّ حساب كل دقيقة. سافرنا لمدة اثنتي عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين، كنا نتناول وجبتين: الأولى في التاسعة صباحاً والثانية في السّادسة مساءً، وكنا ننام بجانب إبلنا في العراء. لم يكن هناك رتابة في الحدث على الرّغم من تشابه الأيام، غير أنّ كل يوم كان يُمثل حياة جديدة. عند بزوغ فجر يوم جديد فوق حافة العالم الأسود كانت تبدو لنا نفس المساحة اللامتناهية أمامنا كما لو أنها ستدوم إلى الأبد. بدت عند الفجر بأفضل حللها، صخور الصّوّان بدت زرقاء اللون، ومناطق واسعة بدت وكأنها بقعة ماء تشعّ تحت أشعة الشّمس، سراب كان قد لفّه الصّمت. حتى الفجر كان قد لفّه الصّمت كبقيّة اليوم دون أن يتمّ كسر حاجز ذلك الصّمت حتى بصوت طائر مغرّد. أما قُبّرات الصّحراء القليلة فكانت وحيدة وأصواتها تشبة محيطها في كآبته.

بدت تلك الطّيور الصّغيرة وكأنها تغرد خارج سربها في ذلك الخواء، ولكن في اليوم التالي رأيتُ الحيوانات النّموذجية الخاصة بتلك المنطقة الصّخرية، ألا وهي النَّعامة. ونحن ننحدر إلى اسفل وادي هدرج Hedrij أفزعنا ثلاثة من تلك الطّيور الهجينة، فقد أُخذت على حين غرّة، لم أرَ سوى ثلاثة أعناق طويلة تختفي عن الأنظار؛ حقا، «متى تطاولت إلى هذا الحدّ فهي أعلى من الفرس وراكبه»، كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي ألمح فيها ذلك الطّائر النّادر والمثير للاهتمام، رغم أنني قطعت ستمئة ميل في أكثر مناطق لجوئها سريةً.

على الرّغم من قيام الآشوريين بصيد النَّعام منذ زمن بعيد، وقد ورد ذلك في تاريخ زينوفون[1] Xenophon، لم يتمّ الاعتراف بها كجنس مستقل إلا في أواخر عام 1909، ومن المؤكد أنها ستضاف إلى قائمة المخلوقات المعرّضة للانقراض. خلافاً للمَهاة التي تبحث عن حماية لها في تلك القفار الرّملية الشّاسعة، تعيش طيور النَّعام في السّهول المفتوحة، لذا فاصطيادها أسهل بكثير ولم توفر لها الصّحراء الجنوبية الكبيرة الحماية، إنه طائر نادر جداً إن لم يكن قد اختفى من تلك البقاع. قيل لتشيزمان Cheesman من قبل دليله العائد لقبيلة مُرّة Murra إن النَّعام «قد اعتاد القدوم إلى صحراء يبرين في أيام جدّه، الذي كان آخر من اصطاد نعامة من قبيلة مُرّة»، وأضاف قائلاً: «إن النَّعام ما زال موجوداً في الصّحراء الجنوبية العظمى بالقرب من نجران وفقاً للتقارير المحلية».

وتدلّ تجربة توماس Thomas على أن النَّعام كان قد تم اصطياده في السّهول جنوبي الصّحراء من قبل أفراد حراستي في السّنوات الماضية، ويرجع سبب انقراض النَّعام في السّهول الجنوبية إلى مطاردته من قبل البدو المسلحين ببنادق حديثة. أخبرني فيلبي Philby أنه لم يسمع عن النَّعام (في العصر الحديث) في جزيرة العرب جنوبي صحراء «فقد انقرضت في الرّبع الخالي منذ أربعين أو خمسين سنة وفقاً لما يرويه البدو». ولكن تمّ الحفاظ عليه في الحَماد الشّمالي على الرّغم من عمليات الصّيد الجائرة التي قامت بها قبائل الصّلَبَة Suluba والشّرارت Shararat.

أصبحت طيور النَّعام معروفة لنا مثل المَها بشكل رئيسي كأجناس معرّضة للأسر تم جلبها إلى بغداد ودمشق. فقد تبيّن من خلال المعلومات الشّخصية أنّ مشاهدة تلك الطّيور بحالتها البرية أقلّ بكثير مما كان عليه الوضع في الماضي. عندما كان النَّعام يجول في الأيام الماضية في جميع أنحاء الصّحراء السّورية حتى ضفاف نهر الفُرات،

---

(1) زينوفون (وباليونانيّة: كسينوفون) 430-354 ق.م. مؤرخ يوناني من أثينا، كان تلميذ سقراط. اشترك مع الفرس في حروبهم، وله كتاب شهير يعرف بالأناباسيس *Anabasis* (الزّحف إلى داخل البلاد) أرّخ فيه تقهقره مع رجال قورُش الأصغر آلاف الكيلومترات.

شاهدها العديد من الإنكليز العاملين لدى شركة الهند الشّرقية. فعلى سبيل المثال شاهد السّيد بارثولوميو پليستد Mr. Bartholomew Plaisted العامل لدى شركة الهند الشّرقية خلال عودته الى إنكلترا عن طريق البصرة و«عبر الصّحراء الكبرى إلى حلب» عام 1750، شاهد النَّعام الى الشّمال من وادي حوران الذي يبعد 25 ميلاً من نهر الفُرات.

وفي عام 1771 قام السّير أيير كوتي Sir Eyre Coote بالرّحلة نفسها ووجد بيض النَّعام قرب الطيّبة Taiyibe الواقعة قريباً من طريق القوافل العابرة من تدمُر إلى دير الزّور على ضفاف الفُرات، بينما في عام 1774 أُهدي إلى أبراهام پارسونز Abraham Parsons الذي كان يشغل سابقاً منصب القنصل في إسكندرونة، خمس عشرة بيضة ساخنة (تحتوي على أفراخ نعام) أُتي بها من أقصى الشّمال - إلى الشّمال من الطيّبة Taiyibe والتي لا يزيد بُعدها عن ثلاثة أو أربعة أيام إلى الجنوب الشّرقي من حلب. وقد أكّد ذلك بوركهارت Burckhardt بقوله «كان أهل حلب يجلبون معهم إلى بيوتهم في بعض الأحيان نعاماً قد تم اصطياده في رحلات تستغرق يومين أو ثلاثة أيام شرق حلب».

بعد بضع سنوات، انطلق السّيد إروين Irwin العامل لدى مؤسسة مَدراس Madras على عَجل، في مهمة لا تحتمل التأخير، من حلب الى البصرة مباشرة، فقد عثر فريقه على عش يحتوي على خمسة عشر بيضة نعام في 1 مارس 1781 بالقرب آبار جبّ الغنم[1] Jubb al Ghanam في منتصف الطّريق بين حلب وبغداد. وقد سافر الميجور جون تايلور Major John Taylor التابع لمؤسسة بومباي عام 1789 خارج الهند براً بالطريق الصّحراوي وسجل مشاهدته للنعام والبيض في ذات المكان الذي ذكره د. پليستد ولكن إلى الجنوب وليس الشّمال من وادي حوران.

---

(1) كتب المؤلف: موضع مائي يقع على بعد حوالي 25 ميلاً إلى الجنوب والجنوب الغربي من الرّحبة، و45 ميلاً الى الشّمال الغربي من البوكمال، وكلاهما على نهر الفرات. وقد غاب الاسم عن الخارطة منذ زمن طويل.

وثمّة ذكر آخر للنعام كان عام 1797 عندما رأى أوليڤييه Olivier، وهو مبعوث فرنسي إلى تركية وبلاد فارس خلال فترة الاضطراب السّياسي في الشّرق الأوسط، رأى النَّعام في نفس المنطقة التي وجدها فيها إروين Irwin تعشش، أي إلى الغرب من الرّحبة Rahba على نهر الفُرات.



صيد الآشوريّين للنَّعام

وفي وقت لاحق تمّ اصطياد النَّعام إلى الشّمال من موطنها، ثم أصبح من الصّعب جداً الحصول على معلومات جديدة عنها. رأى پالغريف Palgrave مجموعة كبيرة منها في الجزء الجنوبي من وادي السّرحان، وكذلك رأى داوتي Doughty آثار أقدام حديثة على الحافة الشّمالية لحَرّة خَيْبَر Khaibar Harra، ويقول: «إنها تنحدر إلى سهل مدائن صالح، وقد رأيتُ آثار أقدامها في إثلب Ethlib» وهي هضبة في سهل هجر Hejr. وفضلاً عن ذلك، حينما كان مقيماً في قلعة في مدائن صالح، أحضر

الصّيادون بيوض نعام وتناولها، «كان طعم العجّة لذيذاً»، في حين أن الدّخل السّنوي لأحد معارفه من صيادي قبيلة الهتيم Heteym كان يحصل عليه من جلدين لدى وصول الحجّاج من مكّة. كان يبيع الجلد الواحد بـ40 - 45 ريالاً. وقد أمسك ذلك الصّياد نفسه رألين[1] كانا قد تربيا في ساحة القلعة.

لا شك أن الخط الحديدي الحجازي قد ساهم في إبعاد النَّعام عن المنطقة المحيطة بالسّكة الحديدية. ومن المسافرين المعاصرين توصلنا إلى بعض المعلومات، فقد أخبر أحد صيّادي قبيلة الشّرارت موزيل Musil أن النَّعام يتردّد على منابع وادي طبّال Wadi Tabbal في أشهر الرّبيع، وأنه قد تم العثور عليها في الشّمال بالقرب من عدرا القريبة من دمشق. وتمّ جلب رألين صغيرين لشيكسبير Shakespear في 24 أبريل 1914 إلى مخيمه على الحافة الشّمالية للنّفود على بعد مسيرة يومين إلى الشّرق من الجوف، كما تمّ تقديم جلد وبيضتي نعامة إلى غِرترود بِل Gertrude Bell في منطقة طُبيق Tubaiq. وتناول ليتشمان Leachman بيض نعام طازج في الصّحراء على بعد مئة ميل الى الغرب من كربلاء، وكذلك على بعد 200 ميل إلى الغرب من البَصرة خلال وبعد الثورة العربية كما ذكر ضباط بريطانيون. كما تم إحضار بيضتين إلى لورَنس Lawrence في سهل البَسيطاء Bisaita إلى الغرب من الجوف، نجح في طهيهما على نار الجيلاتين المتفجر!

تعرّف جويس Joyce إلى النَّعام في وادي السّرحان الشّمالي؛ وهولت Holt في صحراء سوريا الجنوبية، في حين رأى فيلبي Philby آثارها في وسط وادي السّرحان، ووجدها رَتر Rutter في بلد الحمم شمالي الوادي. وأخيرا عام 1922 وجد أحد صيادي الصّلُبَة Suluba بيضتين في حيّ الوديان في الجنوب الشّرقي للحَماد السّوري، وأحضرهما إلى بغداد. ولكن على الرّغم من أنهما وصلتا إلى بغداد في غضون 11 يوماً من تاريخ أخذهما من العش، وعلى الرّغم أيضاً من الإسراع بهما وبوساطة البريد الجوي إلى حديقة حيوانات لندن ووضعهما هناك في الحاضنة، فإنهما لم تفقسا.

---

(1) أي زوج من صغار النَّعام، مفرده رأل.

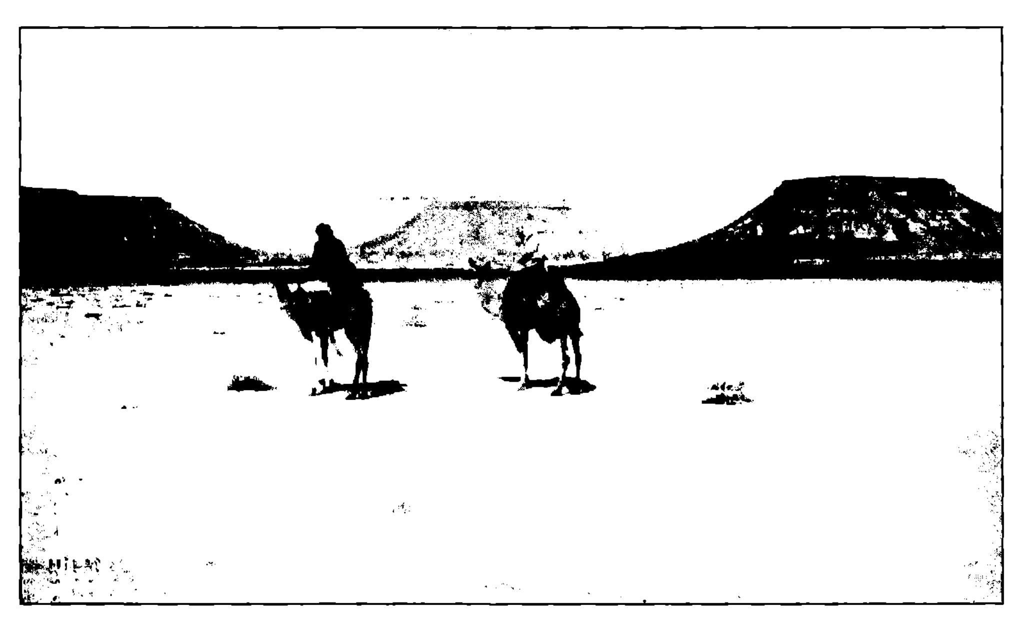
وفي تلك السّنة قدّم ابن سعود هديةً إلى السّير پرسي كوكس أول مفوض سامٍ للعراق، كانت عبارة عن اثنين من طيور النَّعام لتعيش في بغداد. وهكذا يبدو أن موطنَ النَّعام العربي يقتصر على الصّحراء جنوبي سوريا وعلى المنطقة الواقعة بين النّفود والخط الحديدي الحجازي. وربما كانت أعدادها أكبر في السّهول الواقعة شمالي الجوف وغربيّه. في الغرب، أي بين وادي السّرحان والخط الحديدي الحجازي أي بين خطي العرض 31 و32 وعلى الجانب الشّرقي من وادي السّرحان تنتشر شمالاً حتى خط العرض 33 وأحياناً تصل إلى الـ 34.

كانت أمامنا وإلى الجنوب من وادي هدرج Hedrij نفس الصّحراء السّوداء عديمة الملامح، ولكن في اليوم التالي شاهدنا دلائل على تغيير مقبل. فقد بدأت الصّخور السّوداء تندمج مع الحمراء وتحوّلت صخور الصّوّان إلى رمال وتحولت الأراضي الملساء إلى تموّجات ارتفعت في بعض الأحيان لتشكّل هضاباً.

قيل إنّ هناك بئراً أمامنا، ولكن كان هناك شك في وجود ماء في تلك البئر. فإذا ما كان الغزاة قد سبقونا وتزوّدوا بالماء فستكون البئر قد جفت ولكن ليس لدينا خيار آخر فقِربنا كاد الماء فيها أن ينفد ولذلك علينا المحاولة. كان اسم البئر حوزة Hausa على اسم التلال التي تقع فيها، تلال صخورها ناتئة تقع في نهاية الطّرف الجنوبي للصحراء الصّوّانية ذات 70 ميلاً. من آداب البدو عدم التسكع بالقرب من الآبار، لأنها، كما هو معلوم، مصدر لمعظم المتاعب المتكرّرة، وخاصة عندما تكون معزولة وتوفر الماء فيها أمر غير مؤكد. لذا تسابقنا إلى البئر للتزوّد بالماء والتحرك مباشرة.

تبعنا الوادي الذي كان لنا بمثابة البرّ بالنسبة لمسافر طال غيابه في البحر، كان الوادي غاصاً بالأعشاب وبجميع أنواع الحياة المثيرة للاهتمام. وجدتُ هنا آثاراً للمهاة والغزال وحتى الفهد، ورأيتُ أيضاً الوعول الجبلية تتحرّك هنا وهناك فوق الهضاب القريبة منا. إنّ هذه لعَمري هي المدينة الفاضلة مقارنة مع القفار الخاوية التي كنا فيها، شعرت حينها بالرّغبة لقضاء بضعة أيام في هذا المكان. لدى وصولنا إلى البئر وجدناه وفيراً بالمياه العذبة وعلى عمق حوالي 40 قدماً. نزل ذلك الفتى الشّراري إلى

أسـفل البئر يملأ القراب بينما كنا في انتظاره في الأعلى. وكم اسـتمتعنا بالماء بقدر ما استمتعت إبلنا.



الجبال المسطّحة

وفجأة كسر تلك السّكينة صراخ أربعة فرسان عرب عُراة الصّدر والبنادق جاهزة في أيديهم، بدو وكأنهم يسعون لغنيمة ما! كان قد مرّ علينا خمسة أيام دون أن نرى أو نسمع أيّ إنسان، لذا كان ذلك اللقاء المفاجئ بالنسبة لزملائنا بمثابة صدمة! خصوصاً أن دليلنا الشّـراري لهذه المنطقة كان في أسـفل البئر في تلك الآونة! لذلك كان ذلك الشّـراري بعيداً عن الخطر ولكن غير ذي فائدة بالنسبة لنا. كانت المسألة مجرّد لحظات. التفت المراوي (الرجل من قبيلة مُرّة) ملتقطاً بندقيته وركض لمواجهة المتسـللين. تحصنت أنا في موقع ممتاز خلف صخرة وأخذت أراقب المراوي، واستعديت لإطلاق النّار إذا اطلق المراوي النّار (تعلمت حينها ألاّ آخذ الحرب البدوية على محمل الجد).

أشرف العرب علينا وأعلنوا عن هويتهم بصوت عالٍ: «شرارت»، فأجابهم المراوي «مراوي»، وماهـي إلا لحظات حتى كان الجميع يقبّلون بعضهم على الطّريقة العربية.

عـادت البنـادق إلى جرائبهـا وخرج الشّـراري من أعماق البئـر، واسـتمعنا إلى أخبار الطّريـق. لو كان هؤلاء اللصوص من قبيلة الرّوَلة Ruwalla أو الحويطات Huwaitat لـكان الوضع مختلفاً جداً! كانت غِرترود بِل Gertrude Bell قد وجدت هذه المنطقة حافلـة برجـال الحويطات وذلك في ربيع عام 1914، ولكن كان برفقتها جواز سـفرها إلى القبيلة فسافرت بآمان بين ظهرانيهم. وعلمنا أن الرّوَلة كانوا قد أُجبروا على الرّحيل إلى الجنوب من قبيلة السّـرحان، وقد يكونون في دربنا. كانت هذه الأخبار سـيئة، فلم يكن معنا رفيق رويلي ولـم نتمكن من الحصول على واحد. جعل ذلك من الطّريق إلى تيماء طريقاً خطرةً، والمنطقة الواقعة بين هذه المنطقة والجوف تكاد تكون مستحيلة.

قيـل إن رجـال الشّـرارت يهيمون في مـكان ما من القفـار التي أمامنـا، لذلك قررنا المضـيّ قُدماً أملاً باللقـاء بهم. بقِرابنا الجلديـة المُترعة وإبلنا المنتعشـة، ودّعنا قطاع الطّـرق والمناطـق الخلابـة، واتجهنا جنوبـاً عبر الـوادي الملتوي وفوق تـلال الرّوزة Rausa إلى أن وصلنا في المساء إلى وادٍ رملي بعيد على الطّرف الآخر. وضعنا خيامنا هنـاك على الرّمـال الحمراء النّاعمة، التي فاحت منها رائحة المَهاة فأخذت أجوس في الأرض أستطلع معالمها. ربما لن يستطيع أحد سوى صياد أن يُدرك معنى رؤية وحش نادر لأول وهلة في أرض يصعب الوصول إليها، يخالج المرء نتيجة ذلك شعورٌ مفعمٌ بالإثـارة دون شـك. كلّمـا زادت الصّعوبات نأت المسـافة، وكلّمـا ازداد مكر الطّريدة وخجلها ازداد معها وقع اللقاء بها أول مرة.

عندما يقوم الإنسـان بكسـر الحواجز وتقع عيناه لأول مرة على الكنز ينشرح صدره وتهدأ فورة رغباته، إذ يكون الخيال قد تحوّل إلى واقع ملموس. ثم تأتي بعد ذلك ردّة الفعل، وهذا ما حدث لي عندما كنت أراقب الكثبان الرّملية الحمراء وفجأةً وفي مجال رؤيتي وقفت مَهاةٌ بيضاء لامعة منفردة، كانت بمثابة الأسطورة بالنسبة لي، أعترف أنني لـم أرغـب في التطفـل عليها أكثر، فقد توغلتُ إلـى داخل مكمن سـرّها ورأيتُها أخيراً وجهاً لوجه، ولكن تولّد لدي بعد ذلك شعورٌ بالنفور منها، فرغبتُ بالزحف بعيداً على رؤوس أصابعي وتركها دون أن أتسـبب لها بأي إزعاج. لقد رأيتُها من خلف حجاب،

وعلـى الرّغـم من تلك النّعمـة (أو اللعنة؟) فقد نزل على النّبي نوح «ولتكن خشـيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الارض» سـفر التكوين 9: 2. لكنني طاردتُ المَهاة بنفس الشّكل معتقداً أنني قد تساويت معها الآن، ولكني للأسف كنت مخطئاً.

أفضـى بي التفافٌ طويل إلى كثبان رمليـة، وبالاقتراب منها أكثر وقعت عيناي على مالـم أكن أتوقعه، ليس وعلاً واحداً من فصيلة المَهاة بل قطيعاً بأكملة من ثيران وأبقار وصغارهـا التـي تركـض بجانبها. بـدا المنظـر غريباً عند الغسـق، بدت وكأنها اشـباح حيوانات تتحرّك بصمت في عالم خيالي. عالم من الرّمال الحمراء صمته أشبه بصمت القبـور لـن يلبث أن يلفه جناح ظـلام الليل ليبتلعـه بهدوء. لقد أصابني ذلك المشـهد بشـيء مـن التنويم المغناطيسـي فلم أدرك الواقـع إلا وقد حلّ الظلام، فتلاشـت تلك الصّورة، المَهاة وكل شيء، كما لو أنه السّحر!

في اليوم التالي عدتُ إلى المطاردة وتبعتُ ذلك القطيع حيثما حل، كان تتبّع آثارها على الرّمال النّاعمة أمراً سـهلاً، تعقبتها شـمالاً، ثم تابعتُ غرباً وجنوباً إلى أن تورّمت قدمـاي، فقد كنـت أجري حافي القدَمين. كانـت المَهاة تنتقل في دائـرة هائلة وكذلك فعلتُ أنا. ثلاثة أيام مضت وأنا أتعقبها دون أن تقع عيناي على ذلك القطيع مرة أخرى! لقـد فقدتُهـا في مـكان ما في الجـوار حيث كنت قـد وجدتها أول مـرة، ولكنّي عزّيتُ نفسي بتذكّر كيف حذّرني داوتي Doughty سابقاً بقوله: «لا يقع الوضيحي Wothyhi إلا بيـد أشـدّ الصّيادين حرصاً»، وبنـاءً عليه قرّرتُ التزوّد بالمـاء وتعبئة قربتي الجلدية الفارغة مرة أخرى من منطقة الحوزة Hausa الخطرة والبدء من جديد.

اقتربنـا من البئر هذه المرّة بمزيد من الحذر، إذ ينبغي لنا ألا نضيع الوقت. نزل أحد أفـراد فريقي إلى أسـفل البئر، وأخذ اثنان بسـحب الماء إلى الأعلـى بينما عملتُ على حراسـتهم. لم يحدث شـيءٌ خطير هذه المرة. إنّ ضجة الوعول البعيدة على الصّخور سـبّبت لنا الذعر، وكان عدد القبور حول البئر نذير شـؤوم وتذكيراً لنا بأن هناك آخرين كانـوا أقل حظاً منا. غادرنا البئر دونمـا عائق وركبنا متجهين جنوباً مرة أخرى، يحدونا الأمل بالعثور على الشّـرارت Shararat. رأيتُ أثنـاء عبور هضاب الحوزة الوعلَ مرة

أخرى، وكنت محظوظاً بما فيه الكفاية لقتل ذكر وعل جيّد، مما وفّر لنا اللحم الطّازج الذي اشتدّت الحاجة إليه، ووفّر لنا أيضاً عيّنة عن جلد كامل من هذه المنطقة البعيدة.

كان اسم نوع ذكر الوعل ذاك هو *Capra nubiana sinaitica* «العنز النّوبي السّينائي»، ما لم يتمّ التفريق بين هذه الوعول صغيرة الحجم واعتبارها أجناساً فرعيّة مشتقة من أبناء عمومتها التي تسكن الجبال الغنية. قد يكون من المؤكد أن لهذه المنطقة الصّحراوية المعزولة حيواناتها الخاصة بها. أنا أذكر أن لون ذكر الوعل الذي كان يعيش في الصّحراء السّورية وحول تدمُر فاتحٌ جداً، قريب من الأبيض وصغير الحجم.

إن وعول هذه المنطقة صغيرة الحجم أيضاً ولكن لونها يضرب إلى الصُّفرة. تعلّمت أمراً عن المَهاة حينها أنها إما أن تعيش منفردة أو بشكل ثنائي أو ثلاثي لا تتجاوز السّت حيوانات، أو على شكل قطعان كبيرة بين العشرين والثلاثين رأساً. رأيتُ ذكور المَهاة العربية وعلى غرار قريباتها الأفريقية تمتاز بقرونها الصّغيرة بينما تمتاز إناثها بقرونها الطّويلة. أما الظباء الصّغيرة فقد كانت حديثة الولادة، ولدت في منتصف فصل الشّتاء، وتتراوح حركتها بين الرّكض خبباً أو التكاسل كباقي الوعول.

تتغذى الوعول بشكل رئيسي على عشب أصفر طويل يدعى النَّصي *Nussi* يصل طوله إلى 18 بوصة، وكذلك إلى حدّ ما على أغصان شجيرات الغَضا *ghadha* فتقضمها. وشجيرات الغضا هي نوع من أنواع شجر السِّدر وتعدّ المصدر الغذائي الإضافي للحيوانات التي لا تشرب الماء في تلك المنطقة وتنمو على شكل طُفيلي. تنمو هذه الأعشاب الطّفيلية على جذور شجرة السّدر وترمي بطلعها الطّويل المشبع بالعصارة، فتكون بالتأكيد أفضل شراب بالنسبة للمهاة وحتى بالنسبة للرجل البدوي. تحفر المَهاة في الأرض مستخدمة حوافرها العريضة لتصل إلى الطّلع قبل أن يظهر على سطح الأرض. أخبرني العرب أن من عادة المَهاة تجهيز حفر عميقة من الرّمل إما من أجل توفير الحماية لنفسها أو للحصول على سرير بارد بعض الشّيء، غير أنني لم أستطع اكتشاف ذلك. وهي عادة غريبة ينبغي البحث فيها.

لـديّ الدّليل القاطـع على الحَدس القوي الـذي تتمتّع به المَهاة وأنا على اسـتعداد لتصديق الاعتقاد بأنّ مجرّد رؤية آثار أقدام إنسـان في الرّمال قد تدفع المَهاة إلى سباق الرّيـح إلـى الأفق. كانت تلال الحوزة Hausa مقدّمة لهضبـة طُبيق Tubaiq وهي مزيّة فريـدة فـي طبوغرافيا شـمالي جزيرة العرب. وقـد ذكر دواتي Doughty ذلك بشـكل مبهـم، فـي التقرير الأصلي، معتبراً إياها مَعلماً رئيسـياً على الطّريق المباشـر بين تيماء ومعـان. «هـو جبل، كمـا يقال، ينتصب بين الشّـرق والغـرب وأكبر حجمـاً من عرنان Irnan. تتراكم الثلوج في الشّـتاء طويلاً على هضبة جبل طُبيق J. Tobeych التي تبعد مسافة ليلتين عن معان».

كان غُوارماني Guarmani الزّائر الوحيد لهذه المنطقة، وقد مرّ عبر نهايتها الغربيّة، وما أورده كان مجرّد: «إنه جبل عالٍ نوعاً ما، صخوره من البازلت وقمّته متشققة تغطي جوانبه أكواماً من الصّخور التي تتكسّـر باسـتمرار وتنحدر إلى أسـفل الجبل مشـكلة أكواماً من الحجارة المتشـظيّة»، وبعبارة أخرى تعاني المنطقة من تآكل شـديد بسـبب الرّيـاح والطّقـس. تأثـر شيكسـبير Shakespear كثيراً لدى سـفره على طـول الجانب الجنوبي من طُبيق Tubaiq عام 1914. وقد كانت تلك الأرض بالنسـبة له «بلداً مخيفاً غيـر صالح للرّعي بأي شـكل من الأشـكال». وقد ذكّرتـه التلال بتلـك الواقعة خلف مضيق هُرمُز Hormuz ولكن هذه أكبر وأرضها صخرية أكثر، غير أنها متشـابهة بلونها الأحمر، وقال إنه لاحظ «أن هذا البلد مُقفر غير صالح للرّعي، ولا يجتازه سوى قطاع الطّرق من أجل الإغارة على المسافرين».

وقـد زارتها غِرترود بِل Gertrude Bell قبل بضعة أشـهر من شيكسـبير في طريقها إلى جبـل شَـمَّر Jabal Shammar. وخلال فترة التأخير التي جـرت في مخيم قبيلة الحويطات Huwaitat، اصطحبهـا محمّـد أبـو تايـه Muhammad Abu Tayyi لرؤيـة الآثار في تلك الهضاب، التي سـرعان ما كشـفت عـن طبيعتها الغريبـة. «إنها أسـطورية ومُفعمة بالجمال البرّي»، كتبت مُعربةً عن أملها بالعودة في أحد الأيام لإجراء دراسة معمّقة عنها.

لقد ثبت أن آثار كلوة Kilwa تعود إلى المجتمع المسيحي، ربما حيث استقرّ النُسّاك،

وهي تعود إلى حوالي الألف ميلادية، ولكن وفق اعتقاد غرترود قد يكون هذا موضعاً للسّاميين أيضاً. وصلت بعثة مشتركة تتألف من مدير الآثار في شرقي الأردن Trans-Jordan ومدير مدرسة الأبحاث الشّرقية الأميركية في القدس في نهاية عام 1932 إلى طُبيق Tubaiq من أجل استكشاف موقع كلوة خاصة. ذهبت البعثة بالسّيارات تحت حماية سيارة مدرّعة من ذلول شراري dhulul Sharari! وكان الاكتشاف الأكثر إثارة للاهتمام هو الكشف عن آثار تعود إلى العصر الحجري ورسومات على الصّخور تبيّن أن إنسان ما قبل التاريخ وجد أرض طُبيق أرضاً مناسبة للصّيد كما حدث لي. شكّلت الوعول والمَهاة موضوع الكثير من صورهم، التي بَدَت تماثل قسوة وواقعية تلك اللوحات المعروفة في أفريقيا وإسبانيا.

حافظت أرض طُبيق على سرّيتها، جدباء تلفحها أشعة الشّمس صيفاً ويلفها الضباب شتاءً، وليس ذلك مستغرباً. خلال مروري عبر تلك التلال كان الضباب يغطيها، ولم أكن أستطيع أن أرى سوى محيطي القريب، ولكن حتى ذلك القليل الذي رأيتُه بدا غريباً بشكل كافٍ ليبرهن على أن أرض طُبيق Tubaiq كانت مكاناً متميّزاً جداً، شعرت وكأنه قد تم زرعي فجأة في جبال القمر؛ لم يسبق لي أن تصوّرت وجودي على هذا الكوكب! وزاد تكاثف الضباب من غرابة المشهد. وأخذت التلال المخروطية تلوح في الأفق خارجة من الضباب وكأنها الحمم المندفعة من البراكين.

ظهرت قمم الجبال الهائلة السّوداء الكئيبة فجأة من خلال الشّقوق في الضباب، ثم ما لبثت أن اختفت مرة أخرى قبل أن يكتشف المرء كنهها. حفرٌ عميقة غامضة فاغرة فاهها أمامنا دون أن نتمكن من الوصول إلى قعرها. تابعنا سفرنا خلال المناطق الجهنمية التي يلفّها سكون الموت دون علامة على الحياة وفي جوٍّ مفعم بعدم الواقعية كما لو أنها كانت من عالم آخر. واجهت الإبل وعورة الطّريق بصعوبة شديدة، على الرّغم من أنها كانت قد رعت في هذه المناطق سابقاً ويجب أن تكون قد اعتادت على وعرة الطّبيعة. تسلقنا المنحدرات الملساء الشّبيهة بأكوام الرّماد العملاقة وانحدرنا نزولاً على جنباتها كالخَبَث المتصاهر.

شـقـقنا طريقنـا عبـر متاهة من الممـرّات الضيقـة «البوّابات» كما يسـميها العرب - أسـوار رمليـة ضيقة لا تكاد تسـتطيع الأبل أن تعبرهـا إلا نادراً. وصلنا فـي نهايتها إلى الطّرف الآخر. نظرنا خلفنا فرأينا ولفترة وجيزة سلسلة من الهضاب المسنّنة الشّامخة، التـي بـدت من الجنوب وكأنهـا جُرف هارٍ نُحتـت أدقّ تفاصيله وأضفيـت عليه متاهة من الأخاديد ليزداد جمالاً حتى أن أحداً لا يسـتطيع أن يشـيح ببصره عن ذلك المشهد الرّائـع فـي طُبيق ما إن يقع نظـره عليه. لا يغطي النّطاق الفعلـي أكثر من نحو 300 ميل مربع، يقع محورة الرّئيسـي كما قال داوتي Doughty بين الشّـرق والغرب ويرتفع إلى 1000 قدم فوق سطح الصّحراء المحيطة به.



كالقواطع النّاتئة بخاصرة صخرة ساحلية

إنه مسـاحة واسـعة رمليـة تغطيهـا الحمـم البركانية، شـكلها غريب، فقد تلاشـت الرّمـال وبقيـت الحمـم التي تغطـي أكواماً مـن الرّمال فبـدت الجبال مسـطّحة القمة، بينمـا أخذ الحجر البازلتي المقـاوم مكان الحصى الرّملية في المنحدرات وتكدّسـت الرّمال المتهاوية في أسـفل المنحدر مشـكلةً آثاراً رائعة. في الأسفل وما بعده، تتكسّر الانجرافات على أعتاب الهضاب كالأمواج على شاطئ صخري وتتلاشى مبتعدة إلى

الشّـرق من طُبيق Tubaiq في أراضٍ صخورها رملية تتخللها الكثبان لتغرق أخيراً في سـهل بسَـيطاء Bisaita. وترتفع في الغرب لتصل إلى أقصى ارتفاع لها حوالي 4000 قدم.

أظن أنّ طُبيقاً Tubaiq هو اسـتمرار لما يسـمّى سلسـلة هضاب شَرورا[1] Sharora المتاخمـة للخطّ الحديد الحجازي في الشّـرق. تنحدر مياه طُبيق Tubaiq عند توفرها في ثلاثة منخفضات، إذ يجري الجزء الشّمالي منها باتجاه مسَيلات وادي عناب Wadi Anab ومنهـا إلـى الحوض الكبير في جفر الذي يقع إلى الشّـرق مـن معان؛ أما الجزء الغربـي فيتدفق فـي منخفض آخر فـي المـدوّرة Mudauwara على الخـط الحديدي الحجازي، والباقي ينحدر جنوباً وشرقاً، وربما أخيراً يصل إلى وادي السّرحان.

ينبغـي إعـادة التدقيق في حيوانات هضبة طُبيق Tubaiq مـن جديد، ونودّ أن نعرف مـا إذا كان طير الشّـوكور الكبيـر أسـود الـرّأس Chukor blackheaded (Alectoris melanocephala) يعيـش هنا، فقد وُجـد في مكان غير بعيد عن هذا المكان في جبال مِدْيَـن علـى سـاحل البحر الأحمـر. كما نودّ معرفـة الصّنف الـذي ينتمي إليـه الغزال المحلـي أو أنه فصيلة مسـتقلة بحد ذاتهـا. وأنا أوافق أنه ينبغي عـدم ربط غزال داوتي Doughty's gazelle القـوي والبازلتـي اللـون بـأيٍّ مـن الأجنـاس المعروفـة. تعيش الوعـول هنـا بأعداد كبيرة ملاحَقة من قبل النّمر، أما الفهد فيعتمد على سـرعته الكبيرة في السّـهول للحصول على طعامه. ويعتمد القـط البري ذو اللون الصّحراوي الجميل علـى افتراس الحجل الصّخري ويحافظ الوشـق السّـنوري على اسـتمراريته وهو قط بحجم الثعلب، لكنه ليس بفهد ولا بنمر وربما يكون قطاً برياً.

تركنا طُبيقاً Tubaiq ودخلنا في مجال آخر من القفار King Desolation، «قفار شبه جزيرة العرب غنيّة في تنوعها» ولكن لم يكن لديّ أيّة فكرة أنها يمكن أن تحتوي على

---

(1) تعرف باسم: جبال شرورا، وهي تقع إلى الشمال من تبوك والشرق من هضبة حِسمى. وينبغي عدم الخلط بينها وبين مدين شرورة الصّحراويّة التي تقع في الطرف الغربي الجنوبي من صحراء الرّبع الخالي.

مثل هـذا التنوع من الرّهبة، لأنها كانت بالتأكيد من أكثر الأراضي التي رأيتُها ضراوة. لقـد كانت منطقة قفـار رملية جافة، صُقلـت بفعل الرّياح الغربية علـى مدى عصور لا تُحصـى وتُركت لتنهـش وتلحق الضّرر بالمنطقة منذ بدايـة الزّمن لتخلق فوضى تفتقر إلـى الوصـف. تناثر في المشـهد مزيج من الصّخـور البالية بفعل الرّيح من كل شـكل وحجـم يمكن تصوره، وبكل تشـكيلة رائعـة يمكن تخيلها. كانت هنـاك ذرىً معزولة وأبراج منفردة وقواميع هرميّة مهجورة.

كانـت هناك جبال منبسـطة القمّة كالأماكـن المرتفعة عند الأقدميـن، وكانت هناك أمكنـة مرتفعـة تبدو مشـوّومة الشّـكل كالقلاع الخربة. كانت هناك مسـاحات واسـعة مـن الصّخور التي حتّتها الرّياح والطّقس فبدت على شـكل فطـر عملاق. كانت هناك صخور متداعية وكتل صخرية محطمة أثّرت بها الرّيح المحمّلة بالرّمال فبدت لا تشبه أي شيء آخر في الطّبيعة، بينما تظهر بين الفينة والأخرى صخور كبيرة أشبه بأبي الهول لتحرس وبصمت كامل مروّع مجموعة من الأشـكال الغريبة والبشـعة. ملايين السّنين من أعمال الحتّ أنزلت مستوى الأرض إلى ما هو عليه الوضع اليوم تاركة هذه الآثار البائسة واقفة وجارفة الباقي شرقاً لتشكّل ذلك المهاد الرّملي العميق المسمّى النّفود.

عبر هذا الهياج الشّـنيع للصخور وانجراف الرّمـال، حثثنا خطى إبلنا لأننا لا نعرف أيـن ومتى سـنقع على الماء في قفار الشّـرارت، أو أننا قد نفشـل في العثـور عليه، لقد أضحت الرّمال الحمراء النّاعمة هي مزيّة هذه المنطقة وصفة حياتنا اليومية التي نعيش وسـطها. فكل هضبة وكل نتوء يجرّ وراءه شـرقاً خطاً طويلاً من الرّمال، وكل صخرة، كل حجر وشـجيرة تُخفي ورائها كومة صغيرة من الرّمال حمراء اللون. كان الرّمل في كل مكان بل وصل إلى أصغر الشّقوق، تغلغلت الرّمال حتى إلى ملابسنا ولم يخلُ منه حتى طعامنا.

طلب مني دليلي الشّراري في اليوم الثاني استطلاع الأرض التي نحن مقبلون عليها، فالأرض تقع في منخفض أمامنا ونحن قادرون على استشـراف منظر واسع جداً منها. هيـأتُ مجموعـة من ثلاثة جمـال، ومن أعلى قمّـة أحد التلال رأيت قطعانـاً كبيرة من

الجمـال تتجه نحو المنطقة التي قيـل إنها تحتوي على آبار مُغَيرا[1] Mughaira. كانت تلك وبدون شك أراضي قبيلة الشّرارت Shararat ولحسن الحظ كان دليلي منهم.

انحدرنـا باتجـاه الآبـار فوجدناها مجموعة مـن الموارد الضحلة جـداً التي لا يزيد عمقهـا عـن 10 أقدام تحت سـطح الأرض. كان الماء جيداً ولكنه متغيّر اللون بشـكل كبير. هنا اجتمعتُ بالمجموعة الرّئيسية للأخوة من الشّرارت Shararat الواردين على المـاء، لقد شـكّلوا جمعاً غفيراً وكانـت قطعانهم عديدة جداً، ولكـن يبدو أنه حتى مع هذا التجمّع الكبير من جماعات البدو الرّحل بكامل رَحلهم قد تاهوا في فضاء قفرهم الواسـع فأخذوا يتدفقون قادميـن من غموض الصّحراء حتى بدا المشـهد حول الآبار وكأنه أرضُ المحشر.

(1) يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربيّة السّعوديّة: المُغيراء، لكن المنطوق العامّي لأبناء المنطقة هو: «المُغيرا» ولا تُلفظ الهمزة الأخيرة.



الجمال المزينة بالسترائد الطّويلة والجلود المدبوغة الحمراء

كان الرّجال منشغلين في استحضار الألحان البرية ولكن الممتعة، والإبل تتزاحم علـى المـاء بعد أن تمّ جمعـه لها في أحواض كبيـرة جلدية. قـاد الأولاد العراة قطعان الإبل المؤلفة في معظمها من إبل الذّلول الشّرارية الشّهيرة بالسّباق dhululs Sharari، الصّفراء داكنة اللون أو البيضاء، بينما كانت الإبل المختصة بالحمل سوداء اللون وقد ازدانت بشرّابات طويلة من الجلود الحمراء المدبوغة. وكانت الإبل الأخيرة قد ركبتها نسـاء تميّزن بشكلهن الصّحرواي مستخدمات العصي عوضاً عن القصب وقد حُملت صغار الجمال في خُرج شداد الإبل وأطفالها في الخُرج الآخر دون أي تمييز!

كان حشـداً جذابـاً، وفي تعارفي الثاني معهم شـعرت أني قريـب منهم، وفي وقت قصير وجدت بينهم أصدقاءً. ويبدو أنهم أفقر من فأر الكنيسة كما يُقال، خيامهم خِرق واهيـة لا تسـتحق اسـم خيمة، وفي كثير مـن الحالات لم تكن أكثر مـن بضعة ياردات مربعـة من القماش المنسـوج تدعمها ثلاثة عصـي يلتمس شـاغلوها الاحتماء بها من الرّياح والمطر أو تجنّب أشـعة الشّـمس الحارقة. «لايحتاج المرء سـوى للقليل هنا»، ولكن بمشـيئة الله، اسـتطاع هؤلاء المعدمون من الشّرارت Shararat أن يخفضوا من احتياجاتهم إلى الحدّ الأدنى بشكل لا يُعقل.

حتى مشـايخهم، الذين حللتُ عليهم ضيفاً، كانوا عاجزين عن تقديم القهوة، ومع ذلـك كان لديهـم فخذُ غزال أولمنا عليه ذلك المسـاء، التهموا حصتي من ذلك اللحم الطّازج بينما كنت أتناول لأول مرة هدية السّهول المتميّزة: حبوب نبات السّمح *samh* البعلـي. كانت صفقتهم تلك رابحة فقد وجدتُ أن ذلـك النّبات من أكثر الأطعمة غير القابلـة للهضم التي تناولتها في حياتي. لم أسـتطع هضمها لمدة أيام! وكما هي العادة تعـدّ الشّـرارت أن ذلـك النّبات هو هبة السّـماء لتلـك القبيلة. إنه نبـات صغير الحجم ولكـن غنـيّ جداً يتم جمعـه بكميات وافرة تُمكـن القبيلة من بيعها إلـى الواحات التي تعتبره قمّة الرّفاهية. ويقال أيضاً إنه نبات غني جداً بالطاقة ممّا يشكل بالنسبة لهم قيمة كبيرة إضافية لنظامهم الغذائي المتسم بالحمية.

ينمـو هـذا النّبـات فـي التربـة القاحلة جـداً، في أكثـر المناطـق جفافـاً لتميّز أرض

الشّـرارت الواقعة بين معان، والجوف وتيماء. وعلى الأرجح تُعدّ تلال طُبيق Tubaiq وسـهول البسَـيطاء Bisaita أكثر الأراضي التي يتم فيها جمع هذا النّبات. أينما ذهبت في هذه الأراضي الجدباء تجد انتفاخات في الأرض بسـبب تلك الحبيبات التي يقوم العـرب بجمعهـا. ولا يظهر من تلك النّبتة فوق الأرض سـوى جزء قليل، مجرد سـاق صغيـر مليء بالعصير يشـبة إلـى حدّ كبير نبات السّـمفير samphire غيـر أن جذر هذا النّبـات أطـول في الأرض.. وله زهـرة صغيرة صفراء تتحول في النّهايـة إلى بذور بنيّة صغيرة الحجم.

تنمو هذه البذور قريباً من سـطح الأرض وتُستخدم في صناعة الخبز والثريد أو يتم خلطهـا مع التمر. وهي نبات سـنوي زهري ذو أزهار ملونـة mesembryanthemum وقد فشلت جميع الجهود في استنباته صناعياً. يعتبر العرب أنه هدية من النَّدى، ولكن ڤالين Wallin أخبرنا أنه ينمو مباشـرة بعد هطول الأمطار عند ارتفاع الثريّا مباشـرة بعد غروب الشّـمس، ولا أعلـم إذا كانت هذه اللحظة مؤاتيـة أم لا من أجل محصول جيّد من هذا المسمّى بـ «الخبز البري»، ولكن كان هناك القليل من المطر ونبات السّمح قد بدأ بالظهور.



خيامهم كانت خرقاً ممزقة



يملأون المياه في قرب جلدية

يُعتبر أفراد قبيلة الشّرارت Shararat صيّادين مهرة بارعين في التعقّب وإطلاق النّار مقارنةً مع باقي العرب، باستثناء أولئك الغجر الصّحراويين الأكثر إثارة للاهتمام، قبيلة الصّلُبَة Suluba، يمكنني القول إنّ أفراد الشّرارت هم الأفضل في شمالي جزيرة العرب بالصّيـد. منذ أن أقمت بينهم كصياد، التقينا وجهاً لوجه مع المَهاة، وربما كان ذلك هو السّـبب الذي جعلهم يثنوا عليّ عظيم الثناء. تمّ نحر حوار صغير فقامت النّسـاء بجمع الدّم في وعاء، وبوسـاطة قشة رُسمت خطوطٌ حمراء على رقاب إبلي وأرجلها. يتخثر الـدّم ويجفّ في هـذا المناخ الصّحـراوي ويبقى لفترة طويلة. وهذه العلامة تُستعمل كتعويذة بين جميع العشائر في الشّرارت Shararat: لقد أصبحتُ الآن شرارياً..

«وخذوا باقة زوفا واغمسوها في الدّم الذي في الطّست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالـدّم الذي في الطّسـت. وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيتـه حتى الصّباح: فحين يـرى الدّم علـى العتبة العليا والقائمتيـن يعبر الرّبّ عن الباب ولا يـدع المُهلك يدخل بيوتكـم ليضرب» الأصحاح 24 من سـفر الخروج 12. لقد عاينـتُ العناية الإلهية أكثر من مرة خلال رحلتي وخرجتُ سالماً، لأنه على ما يبدو مازال الأصحاح 24 من سفر

الخروج 12 يعني شيئاً بالنسبة لأولاد سام، وأنّ عهد الدّم ما زال قائماً.

أظنّ أن الشّرارت Shararat ليسوا من ذوي الدّماء العربية النّقية، أي أن ذلك ليس من طبيعة البدو وهم غير قادرين على تتبّع نسبهم إلى إبراهيم. فجيرانهم من ذوي الدّماء الزّرقاء ينظرون إليهم بشيء من الدّونية ولا يتزاوجون معهم. يلقي هذا الوضع الضوء على الدّيمقراطية العربية، والتمييز بين أفراد طبقة البروليتاريا العاملة رائع حقاً. ليس هناك من مساواة في المقام هنا بل على العكس تماماً؛ فكلما زادت طبيعة العربي الصّحراوية كان أسرع في اتخاذ صاحب! ويقال إن الشّرارت Shararat، مثل معظم القبائل، تكرّم جدها، وأن قبره موجود في هضاب طُبيق Tubaiq. فإذا ما كانوا سيدّعون أحقيتهم بأي أرض لتكون ديارهم فستكون طُبيق Tubaiq بالتأكيد لهذا السّبب بالذات. ولكنهم ليسوا بالقوّة الكافية لفرض حقوقهم، خاصة وأن قبائل أقوى منهم تنتهك محمياتهم. وعلى الرّغم من هذه الدّونية للشرارات فإنها تتمتع بحكمة تفتقدها قبائل أكبر منها.

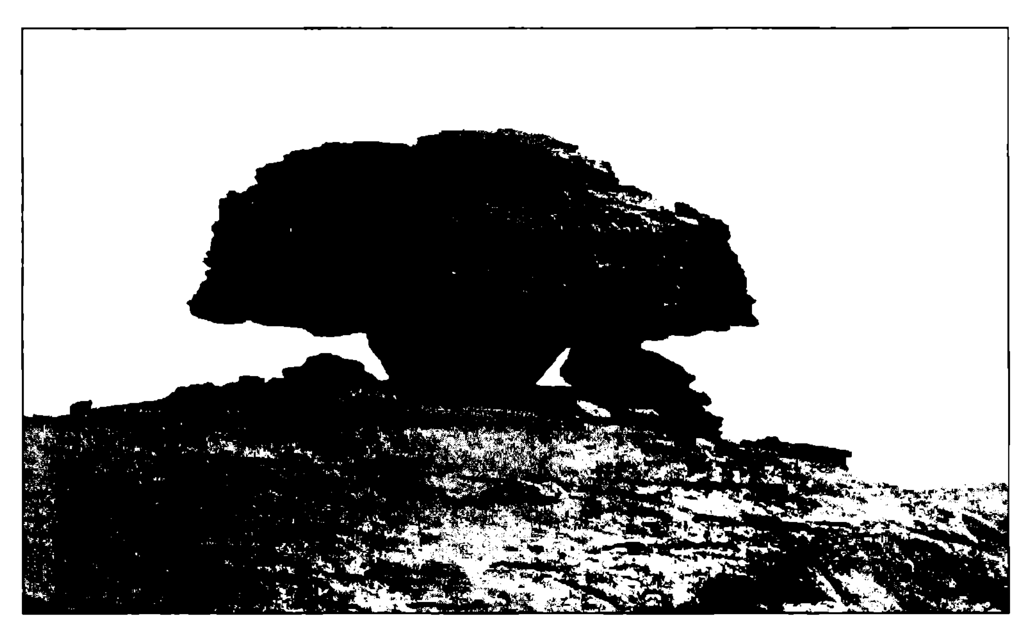
على الرّغم من عدم وجود أرض خاصة بهم، فقد نجحوا في النّضال من أجل الوجود. فقد ربّوا أفضل أنواع الإبل في شمال جزيرة العرب، والإبل الجيدة تعني المال الوفير. إنّ عددهم كبير وفي تزايد، وهم شجعان ورُماة مهرة، يُسعى لكسب ودّهم للمشاركة في المعارك الصّغيرة، إنهم طفيليّون على المجتمع ولكن بحكم الظروف وليس عن طريق الاختيار، وأتساءل فقط عمّا إذا كانت لهم أصول ساميّة تلك التي تجلب الرّخاء لجميع من يعيش معهم! وجَمال نسائهم يفوق معدّل جمال نساء البدو، ويمتاز أغلبهم بمزيّة أخرى وهي استخدامهم لليد اليسرى في الغالب. لا يقومون بعروض كبيرة كالتي تأتي عليها قبيلة الرّوَلة Ruwalla، بل تراهم مغمورين، وكما وصفهم داوتي: «هادئون يميلون إلى الكآبة في سلوكهم» ولكن تكمن النّار وراء ذلك في داخلهم، فهم نشطون جداً يعيشون في الأماكن التي يندثر فيها الأخرون.

عندما ألححتُ على صياد شراري ليعمل على خدمتي، أتى إليّ مع بعيره بكامل أقتابه، يحمل بندقيته، وتجول معي لأسابيع عديدة، وعلى الرّغم من شدّة برودة

الطّقس في بعض الأحيان لم يكن يتدثر بشيء آخر غير ملابسه في الليل. ليس لدى قبيلة الشّرارت زعيم وهذا هو سبب خرابهم، فقد انقسموا إلى فصائل عديدة، فقد انقسم البيت على ذاته. وقد انعكس ذلك على سلوكهم عند آبار مُغَيرا Mughaira، لقد قرّروا في البداية أن يقيموا عند الآبار، ولكن في وقت لاحق من ذلك اليوم بدأو بتقويض مخيماتهم، وبعد بضع ساعات من تحرّكهم أخذوا بالتردّد، فبعضهم يرغب بالرّحيل جنوباً والبعض باتجاه الشّمال، بعضهم يودّ الالتحاق ببني صَخر وآخرون بالحوزة Hausa. أخيراً تفرقوا باتجاهات مختلفة وتُركنا لوحدنا!

كان تردُّد الشّرارت Shararat سبباً لتراجعي أنا أيضاً. فقد قمتُ بخطوة خاطئة، لن أعرف أبداً لم بدأتُ بالرّحلة ذات الـ150 ميلاً باتجاه تَيماء، ولكن تبقى الحقيقة الوحيدة هي أنني قمت بتلك الرّحلة. لو أنني تمسّكت بالشّرارت وارتحلتُ معهم بسلام لكنت وفرت على نفسي الكثير من المشاكل التي لا لزوم لها؛ ولربما كنت وجدت المَهاة في مدة أقصر من الوقت وبأقل عدد ممكن من الضحايا الذين قدّمتُهم من رجال وإبل. ولكن من ناحية أخرى، كنتُ افتقدت رؤية واحة تيماء النّادرة والأثرية، كان هناك بئرٌ وحيد بين مُغَيرا وتيماء يدعى فَجر Fajr، ماءٌ غير مؤكد في مكان خطر لذلك لم نعوّل عليه كثيراً، بل انطلقنا جنوباً عبر نفس القفار الرّملية والنّتوءات الصّخرية المخروطية ونفس التراكمات الرّملية. خمسون ميلاً إلى بئر فجر ومئة ميل على امتداد الصّحراء التي ندرك خلوّها تماماً من المضارب، قد تحتوي على المَهاة.

حثثنا خطى إبلنا واستجابت لإرادتنا، وكنا في الليلة التالية ننحدر إلى أسفل الوادي الذي يقع فيه البئر. يُعدّ بئر فجر ملتقى اللصوص، خاصة من الحويطات Huwaitat، الذين يجدونه مكاناً مناسباً للتزود بالماء قبل الشّروع بغاراتهم الخاطفة على السّرحان وما بعدهم. أدهشت الحويطات غِرترود بِل Gertrude Bell «كشعب عظيم، أغاروا على جميع القبائل المحيطة بنهر الفُرات، إنهم مشهورون بشجاعتهم التي تميل إلى التهوّر والوحشية».



الفطر العملاق

اقتربنا من البئر بحذر شـديد، فقد كنت أفتقد إلى رفيق باسـتثناء الشّـراري. لم نكد نبتعد عن الوادي حتى رأينا آثاراً حديثة العهد تؤدي إلى البئر، مما جعل الفتى الشّراري يحجـم ويرفـض الذهاب إلـى أبعد من ذلك، فمشـيتُ وحيداً واقتربت مـن البئر حتى سمعتُ أصوات سقي الإبل. هذا كافٍ! فعدنا أدراجنا وانطلقنا ولم نتوقف حتى ابتعدنا عنهم مسيرة عدة ساعات، علمنا بعد ذلك أنهم كانوا جماعة من الحويطات. استطعتُ تحديد مكان بئر فجر على الخريطة على الرّغم من عدم تمكني من تذوق ماءها.

كان الزّائـر الأوروبـي التالي لورَنس Lawrence عـام 1917، الذي اتجه من الوجه Wijh إلـى وادي السّـرحان برفقـة عودة أبـو تايـه Auda Abu Tayyi وعصابته مثليي الجنس من قاطعي الطّرق، وجد لورَنس بئر فجر، كما قال لي، حيث توقعها مسترشداً بخريطتـي، وكتـب لي لاحقاً أن وصفـي[1] للمنطقة «غطـت المنطقـة الصّحراوية بين الخـط الحديدي والسّـرحان بشـكل جيد جداً، في رأيـي». أجبرتنا هـذه الحادثة على ضرورة التوجه مباشرة إلى تيماء سواءٌ أرغبنا بذلك أم لا.

(1) كتب المؤلف: صفحة الجوف من خريطة العالم.

كان لدينا ما يكفي من الماء للإرتحال مباشرة ولكن لا يكفي إن حصل أي تلكؤ، لذا ضاعت مني الفرصة الأخيرة لصيد المَهاة قبل الوصول إلى واحة. يعتبر وادي فجر مسيلاً هاماً يتفرع عنه ثلاث جداول[1] وفقاً للورانس، الأوروبي الوحيد الذي رآها في نقطة التجمّع القريبة من خط الحديد الحجازي، الذي يبعد حوالي خمسين ميلاً عن البئر الذي يحمل اسمه. ثم يسقط في نهاية المطاف في غور السّرحان على بعد مئة ميل إلى الشّمال. هذا على رواية عوده أبو تايه: «وجدنا تحت أقدمنا سواقي ضحلة تشق الأرض». وأشار عودة إليها قائلاً «إنها تجري إلى نَبك[2] Nebk في أرض السّرحان، ولسوف نتبعها حتى نلتقي بالحويطات في مضاربهم الصّيفية». غير أن موزيل Musil اعتبر أن وادي فجر ينتهي في خَبرة الحاوي Khabra Hawi في أقصى غرب نطاق عريج Araij الرّملي. قد يعتقد المرء أن أصل الاسم يعود إلى قبيلة الفقرا tribe Fuqara (فجر)، الذين يجولون في المناطق القريبة من تيماء، فقد كان ذلك هو الحدّ الشّمالي لديرتهم.

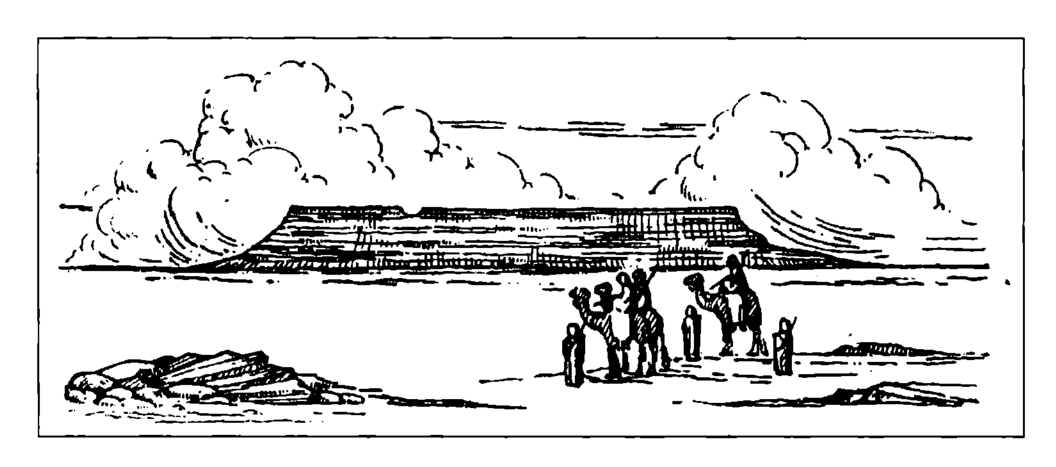


---

(1) كتب المؤلف: وفقاً للورنس كانت الجداول الثلاث هي أبو عرادة Abu Arad، والكلب the Kalb ورباط الخيل Riat al Khail. تتحد هذه الشّعاب الثلاثة لمسافة قصيرة شمالي بئر فجر، ينحدر جنوبي البئر وادي خبرة عجاج Khabrat Ajaj وهو منخفض من الأرض يمتلئ بالماء عند الفيضانات، وعلى الرّغم من تجفافه السّريع، فإنه يوفر في شهر مايو الماء الصّالح لسقي الإبل والبشر في بعض الأحيان. ومن هناك يتشكل سيل الحَويّة Seil Hawiya الذي ينحدر شمالاً إلى وادي السّرحان فيخترقه في نقطة تبعد حوالي عشرين ميلاً أو نحو ذلك إلى الغرب من مجموعة آبار عرفجة Arfaja group of wells.

(2) تعرف باسم: النَّبك أبو قصر، إلى الشمال الغربي من الجوف.

يُستدل على الاقتراب من بئر فجر من قِبَلِ الجنوب بوساطة علامة الجرانيات Jiraniyat الواضحة:



رأيتُ هنا أول مهاجر ربيعي، وهو طائر هُدهُد hoopoo منفرد في البرّية. عند غروب الشّمس ودون قصد أتينا إلى مخيّم صغير للرّوَلَة والشّرارت حيث أمضينا تلك الليلة معهم. يتزوّد هؤلاء العرب بإمداداتهم المائية، كما أخبروني من مُليح Mulaih، وهو مصدر مائي يبعد حوالي الخمسين ميلاً إلى الشّمال الشّرقي من ذلك المكان.

استرعى أبناء قبيلة الرّوَلة Ruwalla اهتمامي، فقد كانوا مختلفين جداً عن أفراد الشّرارت وعن أبناء بني صَخر حتى. لم أكن قد رأيتّ سابقاً بدواً بهذا السّموّ، لقد أدهشوني بكونهم أرستقراطيي القبائل الرُّحّل، إنهم قويّو البنية ومستقلون، يدركون معنى القوة ويعرفون كيفية استخدامها، كانوا واسعي الثراء بالقطعان، ويعتبرون أن جزءاً كبيراً من الصّحراء السّورية مُلكٌ لهم. امتطى الرّجال جيادهم وحملوا الرّماح الطّويلة، بينما كانت نسائهم تغيب داخل هوادج عالية مُزدانة قد ثُبتت على ظهور الإبل، في الواقع منحتني قبيلة الرّوَلة انطباعاً بأنها من نفس طبيعة كيپلينغ Kipling، الذي كان يؤمن بما يلي: «أربعة أشياء هي أكبر من أي شيء، وهي النّساء والجياد والقوة والحرب!». ويمتلك أمراء البدو هذه الخيول، وكلاب الصّيد والصّقور.

تقع بالقرب من المخيم بعض التلال المنخفضة، التي لا يزيد ارتفاعها عن 200

قدم فوق سطح الصّحراء، وهناك كانت الوعول، وقد رأيتُ هناك أيضاً شابين من قبيلة الرّوَلَـة يقومـان باصطياد الماعز البري على الأقدام مستعينين بالصّقور والكلاب التي يطلقانهـا! واصلنا رحلتنا عبر أرض صخورها قرمزية قليلة الرّمال، أرض جرداء عارية لـم تجد حتـى الإبل فيها ما تأكله على الإطلاق، منطقة في منتهى القسـوة تدعى الحل Al Hul، بـدأت الأرض الرّمليـة السّـوداء تحتلّ مكان الصّخرية الحمراء مع المسـافة ولم تلبث أن تغيرت إلى سهول بيضاء.

حثثنـا الخطى لنصل إلـى وجهتنا، تيماء. ولـم نلتقِ خلال طريقنا بأحد سـوى بقايا جمليـن نافقين وبعض الثيـاب الملطخة بالدّماء، وقد سـمعنا لدى وصولنـا إلى تيماء بـأن هذه المنطقة كانت مسـرحاً لمعركـة جرت بين قبيلتي الرّوَلة وشـمَّر. كانت الغلبة في تلك المعركة لشـمَّر وقد استولت على عدد لا بأس به من جمال الرّوَلة Ruwalla. فاتتنـا تلك المعركة التي جرت قبل بضعة أيام مـن مرورنا، وبقدر ما أكره حياة المدن، فإنني أعترف بأنني بدأت أشعر برغبة عارمة للتجوّل في شوارع تيماء.

* * *

رأيت في منطقة تبعد حوالي الثلاثين ميلاً إلى الشّـمال والشّـمال الغربي من تيماء، فـي وادي نَيّال[1] Nayyal حيوان مَهاة وحيد، وهو الأول منذ أن غادرنا طُبيق Tubaiq والوحيد الذي سـأراه لأيام طويلة قادمة. وفي الثاني والعشـرين من شهر فبراير أي بعد ستة عشر يوماً من مغادرتنا لمخيم بني صَخر وصلنا إلى حافة جُرف. أمامنا وأسفل منا يمتدّ منخفض واسـع أبيض اللون يبدو متلألأً تحت أشـعة شـمس الصّباح، بعيداً وفي وسطه تقع بساتين نخيل تيماء الدّاكنة.

* * *

---

(1) يقع وادي نَيّال إلى الشمال الشرقي من تيماء ما بين العسّافيّة والجبعاويّة وشمالي وادي الخنافريّة.



هوادج مزيّنة رائعة

الفصل الرّابع

تيمـــاء

«الإغراء في تيما القديمة»

كرؤية اليابســة بعد رحلة بحرية طويلة، كما لو أننا رأينا جزيرة وسط محيط موحش فتوجهنا إليها غير مدركين ماذا تخبئه تلك الجزيرة لنا. سادت الجو العام حالة من عدم اليقيـن، فقـد كنا نقترب من شـيء مغاير تماماً لما عرفناه سـابقاً: مسـتوطنة قديمة جداً ومعزولـة، مجتمعها ربما كان الأكثـر انغلاقاً على وجه الأرض. مجتمعٌ يكره الغرباء ويسـتاء من التدخل بشـؤونه. وعلى الرّغم من بُعد الخط الحديدي الحجازي مسـافة سـتين ميـلاً عن تيمـاء فإنه اعتُبـر تهديداً لخصوصيّتهـا. وأقرب أرض مسـكونة لتيماء توجـد في جبل شَـمَّر الذي يبعد 150 ميلاً إلى الشّـرق، بينما تفصلهـا عن وديان خيبر السّـبعة مسـيرة أربعـة أيام. قد يظـنّ المرء أن تيمـاء أرض نائية لدرجة تجعلها بالنسـبة للمرء الرّاغب بالاختفاء خشية التدخل بشؤونه، مكاناً مرغوباً به!

ربما كان هذا الشّـعور بالعزلة التامة قد ولّد لدينا مزاجاً من العصبية والشّك، شعرنا به ونحن في طريقنا إلى أسفل سفوح جريش Jarish بعد أن عبرنا سفوح الملح البيضاء واقتربنا من الأراضي الزّراعية. التناقض الشّديد هو مزيّة آسيا بمجملها وجزيرة العرب على وجه الخصوص. بعد اجتياز 300 ميل من القفار الصّحراوية، وجدنا أنفسنا وسط أشـجار النّخيل الشّاهقة، وأشـجار الفاكهة المزهرة، وجداول المياه الجارية والحقول الخضـراء، لا بـدّ أن هذه هي الجنّة، «إنها جنّة عَـدْن لعيون قد جفّت داخل الصّحراء»،

كمـا أن صـوت أي فلاّح يعمل في التربة أو من سـكان المدينة سـيكون سـماعه ممتعاً مقارنةً بصياح البدوي الأجش.

دخلنا تيماء من خلال ممرّات ضيقة تكاد لا تتسع لمرور الإبل، كانت أشجار الفاكهة المليئة بالبراعم تتدلّى فوق أسـوار الحدائق العالية والطّيور تغرّد بينما كان عبق رائحة النّباتات والمحاصيل والتربة رطبة بمثابة النّبيذ بالنسـبة لرجل متعب يُشـعره بالنشـوة. نادى المراوي صوتٌ من الحقول وخرجت قريبةً له راكضةً للقائه، فقد اتّخذ المراوي زوجـة له من تيمـاء. وهنا تكمن الحكاية، فقد اكتشـفت لاحقـاً أن زوجة المراوي في تيماء الآن. ولو لم تكن هنا لما استطعنا دخول عش الدّبابير هذا أبداً.

على أي حال، في المرة التالية التي مرّ فيها مراوي بهذه الطّريق برفقة مسافر أوروبي (غِرتـرود بِل Gertrude Bell فـي عام 1914[1])، تجنّب المرور فـي تيماء! ومع ذلك فأصهـار المـراوي العرب الذين يعتبرونـه ذا مقام عالٍ بينهم والقادم من دمشـق - جنة أبنـاء الصّحـراء - أبدوا السّـرور لرؤيته، تمّـت مرافقتنا عبر الحواري حتـى وصلنا إلى بيت كبير لنسيبه في أفضل حي تحيط به حديقةٌ غنّاء. رحبّوا بنا أفضل ترحيب وأدخلونا قاعة فسيحة نظيفة تماماً برودتها منعشة.

كان تغيراً لطيفاً جداً عما شهدناه من حياة وحشية عشناها في الشّهر الماضي. وكان شـعورنا أفضـل بعدما تناولنا منسـفاً من لحم الضأن النَّجـدي والأرز، تم تقديمه بطبق كبيـر يـأكل منه عشـرة أفراد معاً. كميـة المياه غير محدودة وليسـت جيدة مـن الدّرجة

---

(1) كتب المؤلف: تعرفتُ بغرترود بِل في أبريل عام 1905، عندما أتيتُ دمشق بعد مرور مدّة عام لي في سوريا قادماً من تَدمُر، ولدى دخولي إلى فندق ڤيكتوريا، التقيت بسيدة إنكليزية تتحدث باللغة الفرنسية والعربية إلى بعض الأجانب المعتادين على التواجد في ذلك الفندق. كانت قد وصلت لتوّها من جبل الدّروز. التقينا ثانية في لندن بعد عدة سنوات من رحلة صيد المَهاة هذه، وقد حاوَلت إقناعي مشاركتها في رهان على مغامرة جديدة في جزيرة العرب. أبديتُ ممانعتي ولكني عرضتُ عليها اصطحاب دليلي المراوي الذي أخذَتْه في نهاية المطاف. ولكن اللافت للنظر، أنها آلت إليّ بفكّ شيفرة جميع كتبها المتعلقة بالطرق وتحديد الطّرق المختصرة ووضع الملاحظات لمسافة 1500 ميل على الخريطة.

الأولى، فطعمها يشبه طعم الماء الدّافئ المرتشح من قربنا الجلدية، والتّمر ذو النّوعية الاستثنائية والشّهرة الكبيرة عند تجار التّمور في الشّرق الأوسط بأكمله، ممّا يمكن أن يفكر به المرء.

تستحقّ تيماء الزّيارة على الرّغم من وعورة الطّريق وعدم وضوح رؤية المستقبل. بعد أن ألقى أقارب المراوي وأصدقائه النّظر علينا، وبعد أن استمعوا إلى جميع وآخر أخبار العالم الواسع وراء الصّحراء، ذهبنا بدورنا في جولة على منازلهم حيث قوبلنا وفي كل مكان بضيافة في منتهى الكرم والأصالة.

قالوا لي: اعتبر «بيوتنا بيتك»، ووعدوني بأن يطلبوا من الصّيادين أن يأخذوني في اليوم التالي لاصطياد بقر الوحش والنَّعام، وبدت التوقعات رائعة. غير أن العاصفة اندلعت في اليوم التالي، فقد تلقيتُ أمراً مبرماً من حاكم تيماء بمغادرة الواحة فوراً! لم أستسغ فكرة طردي إلى تلك القفار النّائية التي وصلتُ منها لتوي. كنتُ قد بدأت للتوّ في الاستمتاع والشّعور بأنني في منزلي، فقد أحببت مضيفيّ واستمتعت بحسن ضيافتهم. كنت أرتاح من عناء السّفر المضني ومن ركوب الهجن لفترات طويلة. بمعنى آخر لم يكن بودّي الارتحال لأي سبب من أول تقريع أسمعه.

لذا قدمنا على الحاكم - رجل ابن رشيد - لتقديم احترامنا إليه وشرح سبب زيارتنا. أخبرناه أننا قدمنا إلى تيماء فقط من أجل شراء الطّعام وللعثور على دليل يدلنا على الطّريق إلى جبل شَمَّر. ولكن كان الحاكم عنيداً، وأخبرنا أن الطّرق المؤدية إلى حائل مغلقة وأن علينا العودة من حيث أتينا، ناقشنا الأمر معه ولكن عبثاً.

حاولنا إثبات نوايانا السّلمية، في حين كان الحاكم ومستشاره يعزفون على وتر الافتراضات السّخيفة المعتادة بأنني كنت جاسوساً[1]، أو كان في حوزتي سُمّ. أخيراً

---

(1) كتب المؤلف: ليس بذلك السّخف الذي اعتقدته، فقد أتى توقيت زيارتي سيئاً! إذ كانت إمارة حائل تترنّح تحت صدمة التمرّد داخل حدودها، والخوف من الهجوم من الخارج. فالجوف على حدودها الشّمالية قد قام باحتلاله النّوري الشّعلان زعيم الرّوَلة، وقد سرت إشاعات أن الأتراك كان قد خططوا لاستهداف تيماء. كانت الشّائعات تدوّي في الصّحراء، والواحات في

خرجنا من عنده، بعد أن وقع المراوي بإحراج لم ينفعه معه اسمه - المعروف في جميع أنحاء الصّحراء - في تلك الواحة. تحققت أسوأ مخاوفنا في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما دخل الرّجل العظيم وجواسيسه إلى مقر إقامتي عند مضيفي طالباً تفتيش جميع حاجياتي.

ببراءة عرضتُ عليهم أشيائي لأبرهن لهم أن اهتماماتي لم تكن تتعدى الأمور العلمية، ولكني لم أتمكن من سبر غور تلك الحيل العربية، فعن طريق المكر استطاع الحاكم إبعادي عن مُضيفي وعن المراوي وعن خدّامي بينما كان رجاله السّود ضخام الجثة ينهبون أمتعتي، إذ لم يكن السّم هو الشّيء الذي يبحثون عنه بل أكياس المال لدي! وما إن وضعوا أيديهم على أكياس الذهب حتى شهروا أسلحتهم! لم يكن شعوري بالإهانة بسبب رفعي يديّ للأعلى أكبر من شعوري بالوحدة، إذ كنتُ أعزلَ دون سلاح وسط مجتمع متعصب، غير قادر على القيام بشيء.

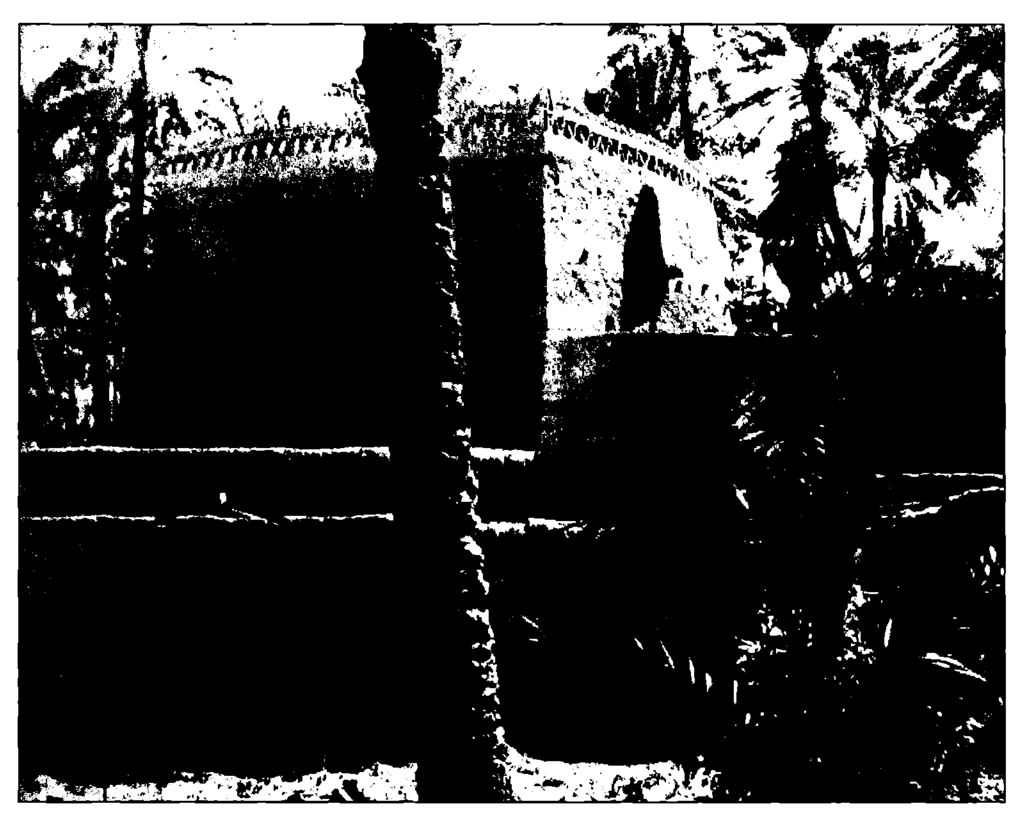
ولكن لم تكن الأمور بالسّوء الذي بدت عليه، لأن بعض رموز الشّرف مازال تمارس حتى هنا في تيماء، والتي تتجلى بتحريم السّلوك غير اللائق مثل سرقة الضيف. ما إن سمع الحاكم بالعنف الذي تعرضتُ له حتى هبّ منتفضاً ليعلن عن تبرّئه من هذه الأفعال مدعياً بأن السّرقة التي جرت لم تكن قد وقعت بأمرٍ منه، وأمر بإعادة جميع المسروقات، فأعيدت على الفور. احتطتُ للأمر ونقلت جميع أشيائي مباشرة إثر ذلك إلى حوزة حريم مُضيفي والتي تعتبر في جزيرة العرب «آمنة بمثابة البنك في إنكلترا».

ثم تلت ذلك فترةٌ من القلق، ولكن عن طريق الاحتيال والرّشوة والخداع تمكنت من البقاء في تيماء لبضعة أيام أخرى. على فترات كانت تأتيني الأوامر بالرّحيل غير أن المراوي كان على استعداد للمخاطرة بتجاهل الأمر، على الرّغم من أنه لو سارت الأمور على غير ما يرام لكان هو من عليه أن يدفع الثمن. كانت زوجته التيمانيّة الشّابه إحدى النّساء القلائل اللاتي يكشفن عن وجوههن ويبتسمن لدى لقائهن الغرباء ولم

حالة انتظار وترقب نكدٍ الجواسيس في كل مكان، وعلى الرّغم من عدم معرفتي بالأمر في ذلك الوقت فإن البلد بأكمله كان في حالة ثورة.

أكـن قـد رأيت مثل ذلك في جزيرة العـرب. ولكن تبدو في بعض الأحيـان أنها جريئة اللسـان، متحرّرة أكثر من اللزوم، «وبعبارة أخرى كانت ذات شـخصية مميّزة، وسَرَت شائعة بأنها لا تنوي مغادرة موطنها في تيماء مرة أخرى والعودة إلى دمشق مع مراوي. لـذا تسـكعنا قليلاً هنـا، وقد خدم ذلك الهدف الـذي كنت بصـدده! ومارأيته في تيماء خلال هذه الأيام كان يستحق ذلك العناء وتلك المخاطرة.

أول عجائـب تيمـاء هو هَـدّاج Haddaj، أو جُب بئر كبيـرة معروفة في جميع أنحاء جزيرة العرب. فالمكان هنا مدينٌ بالفضل لنبع ماء رائع وصافٍ تتدفق مياهه من داخل الأرض. إنـه منظـر رائع ومثيـر للإعجاب فـي هـذه الأرض القاحلة. بئـرٌ عظيمة جداً تسـتطيع أن تُروي مئة جمل مرة واحدة، تُسـتجرّ منها المياه باستمرار ليلاً ونهاراً واهبةً الحياة. كانت تستجرّ منها المياه منذ أيام كانت تيماء تدعى تيما؛ منذ ذلك الحين وهذه البئر في اسـتخدام مستمرّ تقريباً ولم يُعرف عنها أنها توقفت عن العطاء أبداً. إنها موردٌ لا ينضـب أبـداً ذو طبيعة أرتوازيـة، فالبئر بمثابـة خزان مائي ضخم بعـرض يصل إلى خمسـين قدماً وبعمق حوالي ثلاثين قدماً. تحافظ مياه البئر على مسـتواها بغض النّظر عن كمية السّحب التي تجري منه فلا تزيد ولا تنقص.



دور في تيماء

وعلى الرّغم من جمال منظرها فإنها فاترة ولا طعم لها، وقد قيل إنها تسبّب المرض إن لم يتمّ تبريدها في أباريق خزف قبل الإقدام على شربها. لقد كانت بئر هَدّاج Haddaj بمثابة القلب من تيماء بأكثر من معنى، فهي التي تزوّد شريان الصّحراء بدم الحياة، وهي أيضاً مكان الاجتماع العام لسكان المدينة. «عندما تغرب الشّمس في المساء، يأتي إلى هناك مواطنو البلدة الصّحراوية وسيوفهم مشرعة في أيديهم، للاستراحة على حواف البئر الطّينية ولساعات طويلة؛ وهو المكان الذي يتسكّع فيه البدو الرُّحّل الغرباء في هذه الواحة».

تمثل هذه البقعة مشهداً مُفعماً بالحركة خلال بعض ساعات اليوم، وخاصة عندما تأتي الإبل لتشرب، إذ يبدو أنها تبقي البعض في حالة عمل دائم. في واقع الأمر يتوقف عمّال البئر عن العمل عادةً عندما تزداد حرارة الشّمس خلال النّهار وفي أوائل المساء،

ولكن عموماً العمل لا يتوقف فأنين بكرات البئر تحت وطأة الحبال التي تسحب الماء مـن البئـر لا ينقطـع، حتى غدا هـذا العويل هو الصّفـة الملازمة والسّـمة المميّزة لهذه الواحة الخرسـاء، قد يسـبّب هـذا الصّراخ بعض الضجر بالنسـبة للوافـد الجديد على المنطقة، غير أن أهلها لا يعيرون ذلك الأنين أذناً واعية.

أحصيتُ 60 جملاً تسحب الماء من هذا البئر في وقت واحد، وقد سجّل غوارماني Guarmani أن «48 بعيراً كانت تعمل بشـكل مستمر». وقال داوتي Doughty إنه كان هناك ثمة ستين بكرة لسحب الماء ولكنها نادراً ما كانت تعمل في آن معاً، وعلى الرّغم مـن تصـدّع جزء من جـدران البئـر كان لا يزال هناك أربعـاً وأربعين بكـرة عاملة وقت زيارته. وقال أوبير (هوبَر) Huber إنه رأى خمسـاً وسـبعين بكرة فوق البئر وقد قيل له إنّ العـدد يرتفع إلى المئة عند الحاجة، بينمـا أحصى أويْتِنغ Euting ثمانين قناةً تخرج بالماء من حفرة البئر.

أما الدِّلاء الجلدية فهي ضخمة جداً لدرجة تعجز الحيوانات عدا الإبل عن سحبها وهي ملأى بالماء من هذا العمق. قد يصل حِجم الواحدة منها إلى عشـرين غالوناً بما مـن شـأنه أن يصل وزن الواحـدة إلى 200 ليبرة. دعنا نعتبر أن هناك ما معدله خمسـين رأسـاً من الإبل تعمل على رفع المياه لمدة اثنتي عشـرة سـاعة في اليوم، نجد أن معدل الماء الذي يتم سـحبه من البئر يصل يومياً إلى مئة ألف غالون يتم تحويلها إلى قنوات الرّي، لا شك أن ذلك يمثل إمكانات غزيرة لمساحة أرض صغيرة.

تتألف تيماء من ثلاثة أفرع منفصلة، أما المسـتوطنة الرّئيسـية والتي تقع في الوسـط فوحدها تتم تغذيتها من ماء هَدّاج، أما الاثنتين الأخريين ففيهما آبارهما الخاصة بهما. يصـل عدد مصادر المياه إلى لعشـرين ولكنها أقلّ مردوداً من هَـدّاج. وعندما يتم رفع الـدِّلاء مـن هَدّاج لمسـتوى سـطح الأرض، تميل تلقائياً لتسـكب الميـاه في أحواض حجريـة ومنهـا لتجـري في شـبكة مـن قنـوات الرّي حتـى تصل إلـى بسـاتين النّخيل والحقـول. ويتـم تخزين جزء من هـذه المياه في أحـواض طينية من أجـل توفير مناخ رطب لأشـجار النّخيل. ففي كل حائط يوجد تقريباً واحد من هذه الأحواض الصّغيرة

الممتعة تحت شـجرات النّخيل، تجتمع عليه الطّيور كما الحشـرات والذباب وكذلك طائـر السّـنونو والمارتيني. ونتيجة لهذه الإمـدادات الوفيرة بالميـاه كانت جنّة حقيقية مـن النّباتـات الفاخرة لا يمكن أن تتوصـل إليها إلا بتربة صحراويـة مروية بمياه الآبار الجيدة.

يشـمخ النّخيل الباسـق لارتفـاع يصل إلى نحـو 90 قدماً، ليهب عطائه على شـكل أفضـل وأحلـى أنواع التمور وبثمن يقارب العشـرين ريالاً أو حوالي 2 جنيه اسـترليني لمحصول الشّجرة الواحدة. لكن هذه التّمور شهية المذاق أصبحت لعنة على السّكان الذين يسـتخدمونها بشـكل رئيسي كوسـيلة لمقايضة السّـلع التي يرغبون بها ولكن لا ينتجونها مثل اللحوم الطّازجة والسّـمن. تذهب معظم مقايضات التمور إلى الشّرارت التـي تأتي بالأغنـام والطّرائد البرية والسّـمن. والى جانب النّخيل رأيتُ أشـجار التين والليمـون والرّمان، الـدّراق والخوخ، والأتـرُج العملاق، والعنـب والبطيخ بكميات صغيـرة، بالإضافة إلى التبغ وهو منتج غريب عن واحة يعدّ سـكّانها عموماً من الأتباع المتشددين للمذهب الوهابي (السَّلفي) الذي يمنع الانغماس في مثل هذه الكماليات. ويوجد أيضاً محاصيل أخرى كالشعير والقمح والدُّخن.

وعلـى الرّغـم مـن ارتفاع تيمـاء الكبير الـذي يصل إلـى أكثر من 3000 قـدم، فلقد وجدتُها تبعث على الاكتئاب، خاصة عندما يلفحها الهواء الصّحراوي. يشـعر الإنسان الأجنبـي القابل للتكيّف بذلك، ولكن البدوي يعير ذلك اهتماماً أكبر. قد يرجع سـبب هذا المناخ إلى موقع الواحة في أسـفل المنخفض. وعلى الرّغم من أنها بالكاد يمكن ملاحظتها للعين العارضة، فالتجويف الذي تقع تيماء فيه يكاد يغرق بأكمله عند هطول المطار الغزيرة لعدم وجد مصارف لمياه الأمطار. وقد سـجل أوبير (هوبَر) Huber أنّ تيماء تعرّضت للدّمار ثلاث مرّات بسبب الفيضانات، وأنها هُجرت في إحدى المرات لعدة قرون إثر أحد تلك الكوارث.

اعتقـد داوتي أن تيماء «تفوق ازدهاراً أيَّ مـكان آخر رأيتُه خلال ترحالي في جزيرة العـرب»، وقد أشـار أنه «لم يرَ منزلاً خربـاً، حائطاً مهدماً أو أرضـاً مهجورة في معظم

أنحـاء جزيرة العـرب». بينما قال أوبير (هوبَر) Huber من ناحيـة أخرى إن الواحة في تراجـع، مؤكداً أن جميع السّـكان، عدا عدد قليل من الأسـر الكبيرة، مجبرون من قبل البدو على تأجير إبلهم ليتمّ اسـتخدامها لاستجرار الماء من البئر، الأمر الذي من شأنه أن يستنزف رؤوس أموال أولئك النّاس ويصيب مواردهم بالشلل.

ومع ذلك، وفي عام 1909 أيقنتُ أن المساحة المزروعة من الواحة في ازدياد، فقد رأيـتُ اشـجار نخيل صغيرة مزروعـة حديثاً تحيط بتلك الكبيرة وقد بُني سـورٌ حديث ليحيـط بها. وتيماء القديمة[1] أكبر مسـاحةً وليس هناك مـن مانع يحول دون ازدهارها واسـتعادة مجدها مـرّة أخرى طالما أن أهلها أذكياء ونشـيطون بما فيـه الكفاية للعثور علـى المـاء. ينبغي أن تكون المـوارد التحتأرضية غيـر محدودة. وعنـد زيارتي لتيماء كانت المسـاحة المزروعة منها حوالي 2000 فدان وعدد سـكانها، وفقاً لعدد الأسـر، حوالي المئتين وخمسين أسرة.

عـودة إلـى البئر وقصصه. لقد تم ترميم الجزء الذي انهار مـن جدار البئر عند زيارة داوتي Doughty، ويبدو أن الجدران الأربعة للبئر قد جرى تدعيمها. يبدو أن الانهيار العرضي للجزء المتبقي من الجدار أدى إلى اكتشاف المعجزة الثانية لتيماء والتي تدعى حجر تيماء. «ذلك النّصب التذكاري الآرامي الشّهير الآن» أحد أنفس الكتابات السّامية في العالم. علم داوتي Doughty به من قبل زيدان Seydan، الحدّاد في المنطقة، الذي هـداه لرؤية «الألواح المكتوبـة»، كان «النقش طويلاً على حجر مـن جدران بئر هَدّاج Haddaj التـي انهـارت إلى الأسـفل». أدرك داوتـي Doughty مغزاهـا، فتلك الكتابة مختلفة كلياً عن أيّ نص رآه في الحِجر Hejr. كما كان هناك أيضاً رسـمٌ بالإضافة إلى الكتابة.

---

(1) كتب المؤلف: تُعدّ تيماء واحدة من أقدم المواقع المأهولة في جزيرة العرب. عُرف اسمها من خلال النقوش المسمارية، والملك البابلي الأخير، كما قال لي الآثاري الفرنسي رنيه دُسّو René Dussaud، كان قد أقام لعدة سنين في تيماء. وقد ذُكرت تيما في العهد القديم في عدة أسفار مثل إشعيا وإرميا وأعمال الرّسُل.

لكن قبل أن يقوم بنسخ هذه الكتابة أصيب بالرَّمَد، ولم يعُد له بصره قبل عشرة أيام وبعدها غادر تيماء. كان التقرير الذي قدّمه داوتي إلى المستشرقين الأوروبيين عن الحجر هو سبب الزّيارة المستعجلة التي قام بها الفرنسي الألزاسي شارل أوبير (هوبَر) Charls Huber متتبعاً أثر داوتي في العام التالي. نزل أوبير (هوبَر) في تيماء في نوفمبر 1880، وكتب شارحاً «النقوش التي جمعتُها لم تكن كثيرة ولكنها بالغة الأهمية بقدر قدمها ولغتها المندثرة، أحد تلك النّقوش كان نَبطياً والآخر آرامياً والثالث لم يتم فكّ حروفه بعد».



حجر تيماء (الجانب الأيسر)

دون شـك، إحـدى تلك النّقوش وعلى الغالـب أنها الآراميّـة، كان هو الحجر الذي كان ذكـره داوتي. لـم يتحـدّث أوبير (هوبَر) بالمزيد عن الموضـوع بل عاد إلى أوروبا طلباً للاستشارة وما لبث أن عاد مرة أخرى عام 1883 إلى جزيرة العرب مصطحباً معه عالم آثار من ستراسـبورغ هو يوليوس أويْتِنغ Julius Euting، وصل الإثنان إلى تيماء في الخامس عشـر من شـهر فبراير 1884 وأقاما هناك لمدة خمسة أيام. هناك شك كبير فيما يتعلق بالمكتشف الحقيقي لحجر تيماء.

يقـول داوتـي إنّ الحجر ذا النّقـش الطّويل الذي تـم العثور عليه فـي أنقاض انهيار جـدار بئـر هَـدّاج Haddaj والـذي كان هو أول من كتـب عنه، هو الحجـر «الذي أراه أوبير (هوبَر) لعالم الآثار أويْتِنغ بعدي ببضع سـنين. يعتقد أويْتِنغ أن النّقش، والإهداء الـذي يحتويه، والذي قـد كتب بنفس الحروف الآراميّة للنقوش الأخرى التي وجدتُها فـي تيماء، قد يعـود تاريخه إلى أربعة أو خمسـة قرون قبل المسـيح». ويضيف أويْتِنغ قائلاً: «تؤسفني حقيقة أنّ التّرغيب والتّرهيب لم يفلحا في الحصول على أحد الألواح المنقوش عليها، والتي كانت قد استخرجت من بئر هَدّاج الكبير قبل بضع سنين، حتى أنـه لم يُسـمح لنا حتى النّظر إليها من أجل نسـخها». يتحـدث أويْتِنغ عن الحجر الذي يصفـه بأنـه حجر تيماء، قائلاً إنه اكتشـفه وقـد زُيّنت به عضادة باب منـزل في الجانب الجنـوب الغربي من المدينة. وقد اهتدى إلى هذا البيت بفضل زيدان Seydan نفسـه، الحـداد من حائل والمقيم في تيماء، الـذي اتخذ من داوتي Doughty صديقاً له وقاده إلى العديد من الحجارة التي نُقش عليها وأخبره عن أُخر.

ذكـر أويْتِنـغ في تقريره الخـاص بتلك اللقى قائلاً: يوم الأحـد 17 فبراير 1884، كنا قـد انتهينـا للتوّ مـن تناول طعـام فطورنا عندما أتـوا لنا بوجبـة طعام مع ثوينـي الرّمّان Tueni Er-Rumman، حيث تم تقديم التّمر والفطير والسّـمن الطّازج المُذاب الذي قُـدّم وحـده في اثنين مـن الأطباق الصّغيرة، أما مشـروبنا فاقتصر علـى اللبن الرّائب.. كنـا بالـكاد قـد انتهينـا قبل أن يتـمّ اصطحابنا مـن قبل فهـد الطّلـق Fahad Talak إلى منزلـه لتناول الطّعـام، حيث تناولنا مرة أخـرى التّمر والخبز والسّـمن والحليب. كان

بيـن المدعوين رجلٌ خبير ماهر بالأسـلحة يدعى زيدان، اسـتعنتُ بخدماته كدليل في المدينة نظراً لمعرفته بطبيعة الأرض واهتمامه بمخططي. ولم أشـعر بالأسـف لقراري ذاك.

مـا إن انتهت وجبتنا حتى انطلقـتُ معه إلى الجزء الغربي من المدينة، حيث، ووفقاً لـه، غاصـت تيما القديمـة مقدار قامتيـن في باطـن الأرض. التقط مـن الأرض خلال مشـينا السّـريع عبر تلك الأراض الرّملية بعض القطع الزّجاجية وبعض القطع الصّدئة مـن البرونز مـع بعض الـرّكام للأرضيـات الإسـمنتية وعقيق أحمـر. أدهشـتني القناة المتجه شـمالاً والجدران الكلسـية، التي كان المقصود منها أصـلاً تصريف المياه إلى السّبخات. وإلى الجنوب وصلنا إلى قصر الدّير Kasr ed-Dair، وهو مبنى مربّع كبير تحتلّ الأبراج زواياه بالإضافة إلى أنقاض بئر متداعية.

من هنا قادني لمدة خمس دقائق أخرى باتجاه الجنوب إلى دار تُدعى دار طليحان[1] Tlehan التـي فيهـا قمتُ بأعظم اكتشـاف لي خـلال جولتي في العالـم العربي. فعلى البـاب الثاني مـن النّاحية الدّاخلية للـدّار وعلى عضادة الباب الأيمن رُكز حجرٌ رأسـاً علـى عقب وقد نُقش على الجانب الضيق منـه بحيث لا يمكن ملاحظة النّقش للوهلة الأولـى. يُعـرف هذا الحجر في الوسـط العلمي بإسـم مسـلّة تيماء. بالكاد اسـتطعتُ السّيطرة على مشاعري ما إن وقعت عيني على تلك الحروف؛ وبهدوء مُختلق تناولت ورقة نسخ «كالك». ولكن صاحب الدّار طلب المال نقداً، فمنحتُه المال وبكل سرور.

ثم طلبتُ من زيدان الحضور مبكراً في صباح اليوم التالي، وأسـرعتُ إلى المنزل، كنـت أشـعر بتعـب كبير، غير أن شـعوري بالإثـارة كان أكبر حتـى أُخبر أوبيـر (هوبَر) Huber باكتشـافي الجديد، ولإطلاعه على أهمية النّقش الذي يعود بالتأكيد إلى القرن السّـادس قبل الميلاد. ينبغـي نزع الحجر في الغد وجلبه لنا هنا. دُعينا في المسـاء إلى دار ثويني وتناولنا القهوة مع عبد العزيز الرّمّان. كنت أفضل ألف مرة أن أكون قد بقيت

(1) كتب المؤلف: تقع دار طليحان Tlehan في الجانب الغربي من المدينة على بعد نصف ميل من البئر الكبير.

في المنزل لدراسة انطباعي حول ورقة الضغط «كالك» التي طبعت عليها النّقوش. يوم الإثنين في 18 فبراير 1884 جفاني النّوم بسبب تفكيري المتواصل طوال الليل بتلك المسلّة، وعندما طلع الفجر، درست ورقة الكالك من جديد على ضوء الشّموع.

عند انبلاج الفجر، كنت أنظف نفسي وملابسي من القمل وتبعني زيدان، خبير الأسلحة، بذلك، وبعد أن قمت بجولة سيراً على الأقدام خلال المدينة عدت إلى المنزل، وعندما وصلت رأيتُ سبعة من الرّجال واقفين في فناء المنزل وكانوا قد وضعوا للتوّ المسلّة التي وجدتُها في دار طليحان. أعطيتُ كلَّ حمّال ربع مجيدي، وصاحب المسلّة مجيديّاً ونصف، أي مايعادل خمسة ماركات. غادر الغرباء المنزل بعد أن دفعتُ لهم، وبقيتُ أنا والمسلّة أخيراً وحدنا لأتفحصها عن قرب.

في ذلك الوقت تذكّر أوبير (هوبَر) أنه كان قد شاهد ذلك الحجر سابقاً في رحلته الأولى (1880) ولكنه لم يعره أيّ اهتمام. «يبلغ ارتفاع اللوح الحجري 110 سم وعرضه 43 سم و سماكته 12 سم. إنه مدبّب من الأعلى ويحمل على جانبه الأيسر الضيّق رسماً لشكلين للإله صلم هجم Selem of Hagam على شكل رجل ملتح واقف وهو يرتدي الملابس الآشورية ويعتمر القبعة الآشورية الملكية العالية على رأسه، حاملاً بيده اليسرى رمحاً وماداً يده اليمنى كما لو كان يقوم بحماية الكاهن. ويظهر قرص الشّمس المجنح فوق الإله. أما تحته وبشكل أصغر تقريباً فهناك رسم للكاهن صلم شزب Selem Schezeb كما هو منقوش على المسلّة بلباسه الآشوري، حاسر الرّأس واقفاً بوضعية من يقدّم الأضاحي على المذبح المزيّن برأس ثور. ولقد بَدَت الكتابة والرّسوم بشكل شبه نافر. على الرّغم من أن الجزء العلوي من الحجر (قد تم وضعه بشكل رأسي على الأرض) قد تضرّر نوعاً ما (خاصة السّطر الخامس إلى الثامن) فإنّ النّصّ مازال مقروءاً بدقة مقبولة حتى اليوم».

هذا ما كتبه أوبير (هوبَر) Huber في مذكراته المتعلقة بتلك الصّفقة. وبتاريخ الثامن من فبراير يقول:

«أرسلتُ إلى الحاكم عبد العزيز وبرفقة عبد له ومحمود طالباً معرفة صاحب

الحجـر الذي يحمل النّقوش الفينيقية[1] الطّويلة، مـع تعليمات تقتضي بإنجاز الصّفقة معـه وإحضـار الحجر لـي مهما بلغ الثمـن، ومهما بلغ «البقشـيش» الـذي ينبغي عليّ دفعـه، علـى أمـل أن ينجحا فـي مهمتهما. عـاد رجالي في السّـاعة العاشـرة والنّصف يحملون الحجر معهم، وذلك بفضل الله!... إنها مسـلّة رائعة، لسوء الحظ هناك كسر فـي قاعدتها... الأحـرف نافرة غير أن الثلـث العلوي منها كان قد تضرّر بشـكل كبير. المسـلّة الآن ملكي: ولكن كيف سأنقلها؟ لا شـك أن وزنها يزيد عن 150 كيلوغراماً، إنها تزيد عن نصف حمل بعير، وكيف لي أن أنقلها في شحنة واحدة؟».

من هنا يبدو أن أويْتِنغ Euting هو مكتشف المسلّة، بينما كان أوبير (هوبَر) Huber مشـتريها. ولكـن هل كانت هذه المسـلّة هـي الحجر الأصلـي الذي أشـار إليه داوتي Doughty والـذي كان فـي بئر هَـدّاج Haddaj ومن ثم تم نقله ليتـم تثبيته على مدخل أحد المنازل، أم لا؟ لن نعرف ذلك أبداً. وليس لنا أن نعرف أيضاً أحقية أويْتِنغ Euting في المطالبة بتسجيل اسمه كمكتشف للحجر.

فقـد رأى أوبيـر (هوبَر) Huber كتابات كثيرة سـابقاً، ولا نسـتطيع معرفة ما إذا كان أوبيـر (هوبَر) يعني هذا الحجر خاصة عندما تقدّم بتقريره إلى وزير الدّاخلية، ممّا أدّى في نهاية الأمر إلى تعاون الاثنين معاً. ولكن ممّا لا شك فيه أن أويْتِنغ Euting كان أول من عرف أهمية القيمة الأثرية لهذه المسلّة.

وتبقى الحقيقة بين ذينك الاثنين، أحدهما يعتبر نفسه مكتشف ذلك الحجر والآخر مستشـرق باحث اسـتطاع حلّ رموز الحجر، أنهما لم يكونا متفقيـن. من المحتمل أن يكـون أوبير (هوبَر) قد أدرك الآن قيمة اللقـى التي تـم العثور عليها، وهذه الحقيقة هي التـي كتبـت التاريـخ اللاحق لهذا الحجـر، ومازال تاريـخ ذينك المسـافرين غير قابل للتفسير. وفي الثالث عشر من شهر مارس غادر المسافران تيماء وإلى الأبد.

وذكـر أوبير (هوبَر) فـي مذكراته الأخيرة عـن موضوع النّقوش قائلاً: «أما بالنسـبة

(1) كتب المؤلف: كان هوبر Huber يُشير دائماً إلى الحجر بإسم المسلّة الفينيقية ما عدا في مناسبة واحدة عندما أسماها مسلّة الملك شزب، علماً أن شزب كان في الواقع كاهناً وليس ملكاً.

للمسلّة الفينيقية والنّقوش الأخرى، فقد تم توضيبها وتغليفها بشكل جيّد، وبما أنه ليس لديّ بعير أحملها عليه الآن فسأقوم بتركها مبدئياً، على أن يتم وضعها في القلعة من أجل سلامتها حيث سيقوم عبد العزيز النّقري بوضعها في مقرّ إقامته لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، على أن آخذها معي عند عودتي من العَلا El Ala، إذا توفّر لي جمل، وإلاّ سأرسل من يأتي بها عند وصولي إلى حائل».

ذهب الإثنان جنوباً إلى العَلا Al Ula وافترقا هناك، حيث عاد أويْتِنغ Euting إلى وطنه عن طريق الوجه Wijh، بعد أن نجا بالكاد من الهجوم الذي تعرض له من قبل عرب جهينة Jahaina في الطّريق، بينما طاف أوبير (هوبَر) عائداً إلى الدّاخل، ليس إلى تيماء بل إلى حائل. أقام في عاصمة شمَّر سبع أسابيع يدوّن مذكراته الغزيرة، ويستكشف المناطق المتاخمة، والأمر الأكثر أهمية هو كسب ودّ الأمير الحاكم الذي مازال محمّد بن رَشيد سيّء السّمعة ذاته (الذي قام بقتل جميع أقاربه المقربين ما عدا واحداً منهم في يوم واحد)، ولكنه مازال يُعتبر رجلاً عظيماً كما يقول هوغارث Hogarth «كان أشد النّاس عزيمة في القرن الذي عاش فيه»، أو كما يكرر فيلبي دوماً «كان أحد أعظم الرّجال الذين أفرزتهم جزيرة العرب على مدى الدّهر». كان في حالة حرب مستمرة، وعندما وصل أوبير (هوبَر) كان في غارة غاب فيها عن عاصمته ثمانية وتسعين يوماً. بعد ثماني سنوات تقريباً فرض سيطرته الكاملة على وسط نجد. كان مقدراً له أن يرى سياستة تتحقق في أثناء حياته ومات بعد ذلك على فراشه كما مات بعض الأمراء العرب وليس اغتيالاً، تاركاً «إمبراطورية واسعة منظمة استطاعت ضم وسط جزيرة العرب بأكمله وصولاً إلى وادي الدّواسر Wadi Dawasir في الجنوب».

تعلق أوبير (هوبَر) بتلك الشّخصية بشكل كبير. وفي الخامس من مايو ولدى عودته إلى حائل من حملة إلى السّلاليّة Salailiya في أقصى الحدود الجنوبية للإمارة، حيث كانت هناك نقوش، كتب أوبير (هوبَر) يقول «بعد ساعتين من وصولي، عاد كل من محمود، ونعمان ومقلط من تيماء جالبين معهم المسلّة الفينيقية وبعض الألواح المنقوش عليها هي الأخرى».

لم يعد أوبير (هوبَر) يذكر المزيد عن تلك الكنوز، ولكن تركها في رعاية أمير البلاد، وانطلق في رحلته ليقطع ستمئة ميل عابراً القصيم ومن ثم إلى جدّة، مارّاً بمنطقة غير مستكشفة نسبياً، فليس هناك من رجل أوروبي شاهد المنطقة بين القصيم وجدّة سوى داوتي. لن نتمكن من معرفة الهدف الذي كان أوبير (هوبَر) يتطلع إليه من خلال تلك الرّحلة الطّويلة، الشّاقة والخطرة الى السّاحل أبداً. لكنه كان واثقاً من مبدئه لأن نيّته كانت العودة في نهاية المطاف إلى حائل لجلب النّقوش.

وصل إلى جدّة في التاسع عشر من يونيو وتابع يكتب مذكراته حتى الثامن والعشرين منه. ويرد في الثاني والعشرين أن الأمور لا تسير على ما يرام، ومرة أخرى كتب يقول إنه ينوي العودة إلى جبل شَمَّر عن طريق مكّة، ومن أجل ذلك كتب إلى الأمير يطلب منه العثور على رفيق من عتيبة Ataiba ليكون في انتظار وصوله إلى مكّة. على أي حال، أخيراً بدأ أوبير (هوبَر) في رحلته عائداً إلى أعماق جزيرة العرب. كان النّجاح حليفه بشكل كامل لدرجة أنه استغنى عن الحراسة فقد قتل حارسه على يد أدلائه قبل بضعة أيام بالقرب من رابغ Rabigh. لمن ستؤول المسلّة الآن إلى برلين أم إلى باريس؟ ذلك اللوح الخارج من حفرة بئر في تيماء ثم المغلّف في حائل، خلق الآن وفجأة إشكالاً في أوروبا الغربية، ولا يمكن وصف الإشكال سوى أنه ناجم عن غيرة دولية حادّة.

حاول المهتمّون بالحجر الحصول عليه أثناء نقله في الطّريق إلى جدّة أو إلى دمشق. وتشبه قصة اكتشاف الحجر القصص الرّومانسية، لكنّ هذه القصة صحيحة بكل تفاصيلها. أما أفضل شرح لهذه القصّة فقد ورد في تقرير رالي Ralli «مسيحيون في مكّة»، والذي أقتبس منه:

«أرسل أوبير (هوبَر) نسخة عن الحجر من جدّة إلى رينان Renan في باريس، وقد قام أويتِنغ Euting بالشّيء ذاته ولكن أرسله إلى نولدِكه Nöldeke في برلين. وقد أرسل مع نسخة الحجر رسالة تقول بأنه اكتشف الحجر وأنه في طريقة إلى ألمانيا». صدف أن كان مساعد القنصل الفرنسي في جدّة فيليكس دى لوستالو Felix de

Lostalot فـي باريس آنذاك ومسـاعده طالب الترجمة في عـدن، فانتهز جزائريٌ منفيٌ يعيش في مكّة هو سـي عزيز[1] Si Aziz الفرصة ليتولى الأمر. كان رجلاً داهية وليس من السّـهل خداعه، تفوق على دى لوسـتالو في سرعة البديهة العملية، فعرض خدماته علـى القنصـل الهولندي الذي كان يمثل فرنسـا مؤخراً. بعد فتـرة وجيزة من عودة دى لوسـتالو إلى جـدّة كلفته الحكومة الفرنسـية لضمان إنزال العقوبة بقتلـة أوبير (هوبَر) واستعادة ممتلكاته بما في ذلك مسلّة تيماء.

كان لا بدّ من إجراء تلك المفاوضات بشـكل سـرّي، لأن أوبير (هوبَر) كان قد قام برحلته تلك معارضاً لإرادة السّلطات التركية. لم يكن هناك من رجل أقلّ ملائمة لتولي تلك المهمة من دى لوستالو، كان رجل يفتقد إلى البراعة، ولا يتكلّم اللغة التركية ولا العربية، كما كان يجهل وبشكل فادح الآداب الشّرقية. خاطب والي الحجاز بكثير من الفظاظـة مما اضطره في نهاية المطاف إلـى الاعتذار. كان العمل الأكثر ذكاءً الذي قام به دى لوسـتالو هو قبول عرض سي عزيز لتسليم المسلّة وممتلكات أوبير (هوبَر) إلى القنصلية الفرنسـية، وبالمقابل كان من الطّبيعي أن يتلقى سـي عزيز نفقات سفره، كان المبلغ الذي اشـترطه هـو 5000 فرنك انتزعها بصعوبة من نائـب القنصل البخيل، وما كان على سـي عزيز سـوى اللجوء إلى المناورة الشّـرقية المعروفة بالادّعاء بوجود مَن دفع ضعف ذلك المبلغ، والذي سيفصح عن اسمه قريباً.

مـن إقامة هورخرونْيه[2] Hurgronje في جدّة قبيـل مغادرته إلى مكّة، قيلت كلمة، ولكـن لـم يشـارك بالموضوع «قضيّة أوبير» سـوى من خـلال ترجمة رسـالة أو اثنتين للقنصلية الفرنسـية. كما وجه رسـالة إلى صديقه القديم، البروفسـور أويتِنغ Euting، ليطمئنه عن ممتلكاته ووصولها الآمن المحتمل إلى جدّة. منذ تلك اللحظة اشـتبه دى لوستالو بتواطئه من أجل نقل المسلّة إلى ألمانيا.

---

(1) أي السيّد عزيز، على طريقة أهل الجزائر في اختصار العبارة.

(2) كتب المؤلف: مستعرب هولندي احتلّ مكانة عالية بين السّلطات الأربع في المجتمع المكي، وكان قد أمضى خمسة شهور في المدينة المقدسة، ولكن بسبب هذه الأحداث المؤسفة سيضطر إلى تمديد إقامته إلى أجل غير مسمى.

اعترض هورخرونْيه Hurgronje ولكن دون جدوى. وأكّد دى لوستالو وبصراحة كبيرة رأيه أنه ليس هناك من عالم يُمانع في الاستيلاء على اكتشافات زميل له، مدعياً بأنه يعرف أولئك العلماء تماماً وجميعهم متشابهون. وخوفاً من أن تضر مثل هذه الشّكوك بأمنه في مكّة، كتب هورخرونْيه عشية مغادرته جدّة رسالة إلى نائب القنصل أقسم فيها بأنّه ليست لديه أيّة رغبة في حيازة المسلّة، وأنه غير مكلّف من قبل أي جهة للقيام بذلك. قوبلت رسالته بطريقة ودية، ووعده دى لوستالو بالمقابل بإبقاء أمر إقامته في المدينة المقدّسة سراً.

تعارف هورخرونْيه Hurgronje وسي عزيز في مكّة حين كان سي عزيز على وشك المغادرة إلى حائل من أجل القيام بمهمته. حينها اشتكى لهورخرونْيه من بخل نائب القنصل الفرنسي، واقترض من هورخرونْيه 200 فرنك لتغطية نفقات سفره، وقد سدّد هذا المبلغ بوقت لاحق. لم يلتق الرّجلان بعد ذلك حتى يونيو. بحلول ذلك الوقت كان سي عزيز قد أنجز الغاية من رحلته وكان قد سلّم ممتلكات أوبير (هوبَر). كان ابن رشيد، أمير حائل، قد حفظ ممتلكات ضيوفه الأجانب دون أن يمسّها أحد طوال فترة غيابهم الطّويلة. فسلّم الممتلكات إلى سي عزيز بصفته ممثلاً للحكومة الفرنسية.



في واحة تيماء

استمع هورخرونْيِه إلى رواية صديقه وأكّد كما في أكثر من مناسبة سابقة بأن مصاريفه سيتم تسديدها من قبل السّلطات المسؤولة. تم إرسال المسلّة إلى باريس وهي الآن في متحف اللوڤر. «هذا هو المدى الذي وصل إليه هورخرونْيِه Hurgronjes» فيما يتعلق بمسلّة تيماء. ولم يخطر بباله مباشرة الخطر المميت الذي تشكّله هذه المسلّة على مهنته، الأمر الذي سآتي عليه الآن. فقد تم استدعاؤه في شهر أغسطس من قبل القائمقام (فقد كان الوالي في الطّائف) حيث تُلي عليه أمرٌ باللغة التركية يأمرة بمغادرة مكّة على الفور، أُعطي فرصة ساعات قليلة لحزم أمتعته وتمت مرافقته من قبل جنديين اثنين إلى جدّة.

«بدا سبب ذلك التصرف واضحاً له في جدّة، ففي الخامس من يوليو صدر مقالٌ مثير للقلق في مجلة التان *Temps* (الزّمن) يصف مقتل أوبير (هوبَر) ويتّهم هورخرونْيِه Hurgronje بمحاولة سرقة مسلّة تيماء. وتم إرسال هذه المعلومات إلى السّلطات من قبل دى لوستالو وتمّت ترجمة الخبر إلى اللغتين التركية والعربية». ذكر الخبر أن أوبير (هوبَر) كان قد عثر على مسلّة تيماء تزيّن جدار أحد المنازل، فقام بشراء ذلك المنزل ونزع تلك المسلّة من مكانها ثم عاد فباع المنزل. ثم تم شرح بعض رحلاته، وانتهى المقال بمقتله وبوصول الأخبار إلى دى لوستالو في باريس.

قبل عودة لوستالو إلى جدّة، كان لقصة المسلّة وقعٌ كبير في الخارج، وكان أويْتِنغ Euting يتابعها بفارغ الصّبر من دمشق، وكذلك عالم آخر هو الدّكتور سنوك بوسيروز Doctor Snouck Busyrouse (هكذا قيل اسمه) والذي كان يقيم في مكّة تحت اسم عبد الغفّار. ما إن وصل لوستالو إلى جدّة حتى كلف سي عزيز بالتوصل إلى المسلّة وحيازتها.

حفّت الرّحلة المخاطرُ من كل جانب. وصل حائل ولكن بعد انطلاقه من المدينة هجره مرافقوه العرب وفي المدينة تعرّض للتفتيش والاعتقال من قبل السّلطات المحلية ولم يتم الإفراج عنه قبل أن يثبت أن حقائبه كانت قد أرسلت إلى بغداد. تمكن بعد مغادرته المدينة من تجنب ملاحقيه بزيادة سرعة مسيره والتوجه جنوباً،

فاستطاع بذلك النّجاة من محاولة اغتياله. سادت الإثارة نتيجة ذلك المقال وعمّت البلد بأكمله، وقد قال هورخرونْيه إن أكثر من نصف المقال ملفق. إن القصة المزيفة لاكتشاف المسلّة وشراءها وكذلك تفاصيل الرّحلة غير العادية للسيد عزيز (والتي تختلف عن رواية هورخرونْيه لها) تبرّر مثل ذلك الحكم. سواءٌ كانت الحقائق مزيفة أم واقعية، وعلى الرّغم من قدرة هورخرونْيه على تبرئة نفسه أمام السّلطات التركية والتي لا يلقي لوماً على تصرفاتها ولا يمكنه سوى الإطراء على أدبهم الكبير معه، جعلت من مواصلة إقامة هورخرونْيه في مكّة أمراً مستحيلاً. فقد ذكره المقال بالاسم، وقد يُشاع قريباً في الخارج أنه لم يتحول إلى دين الإسلام من أجل التفرغ لدراسة الشريعة المطهّرة ولكنه مسيحي متنكّر في ثياب الإسلام غرضه كان سرقة الآثار.

لا حاجة لذكر المصير الذي كان بانتظار المتلبّس في جريمة القتل في مكّة... حاول دى لوستالو الدّفاع عن تصرفاته وإيجاد الأعذار لنفسه، وأنكر أن تكون المقالة التي نشرت في مجلة التان *Temps* من إيحاءه، ومن خلال الخطأ في ترجمة اقتباس عبارة وردت في رسالة هورخرونْيه استطاع أن يورّطه. فقد وعد هورخرونْيه وباللغة الفرنسية بأنه «لا يهتم بالمسلّة أبداً» بقوله: "de ne pas s'occuper"، بينما استبدل دى لوستالو عبارة pas بعبارة: plus فصارت الجملة تعني أنه «لم يعد مهتماً بالمسلّة» مما أعطى معنى آخر مختلفاً تماماً. وأخيراً، طلب دى لوستالو من سي عزيز الشّهادة بأن هورخرونْيه عرض عليه مبلغ عشرة آلاف فرنك مقابل المسلّة. لم يخطر ببال سي عزيز أن استخدام اسم هورخرونْيه بهذه الطّريقة قد يؤذيه، وبالنسبة للعرف عند العرب يعتبر رفع السّعر بهذه الطّريقة أمراً مقبولاً. حاول هورخرونْيه مع سي عزيز للحصول منه على نفي رسمي لما أورده في شهادته ولكن عبثاً. كان سي عزيز منفياً من قبل القيادة الفرنسية في الجزائر وكان يحصل منهم على معاش تقاعدي يتم دفعه له من قبل نائب القنصل، لذا لم يكن سي عزيز يجرؤ على المخاطرة في التخلي عن ذلك المبلغ الشّهري. «منهم أتلقى رزقي» أخذ يناشد بقوله: «كيف لي أن أشهد حقاً أو باطلاً ضد قنصل الحكومة الفرنسية؟». أقصى ما وعد به هو أن يقول الحقيقة فيما إذا قابل الوالي وجهاً لوجه.

«كانـت العـودة إلى مكّة مسـتحيلة بالنسـبة لهورخرونْيـه، لذا أبحر مـن جدّة. قطع أبحاثـه ولـم يتمكن من حضور موسـم الحج. أخذ معـه هيكل أوبيـر (هوبَر) العظمي مـا عدا عظام يديـه التي لم يتمكّن من اسـتردادها. ودُفنت الجمجمـة التي تحتوي في صدغها الأيسر ثقب الرّصاصة التي اخترقتها في جدّة. تواضع دى لوستالو في السّماح بالثناء الكبير على سي عزيز من قبل مواطنين اثنين بارزين».

قُتـل أوبير (هوبَر)، والمسـلّة لبثت مؤبّدة في متحف اللوڤـر، أمّا تيماء فاختفت مرة أخـرى في متاهة الصّحراء مسـتعيدةً بنجاح عزلتها الفريدة، حتى يـوم زيارتي بعد ربع قـرن مـن الزّمان. منذ ذلـك الحين لـم يقم أي مسـافر غربي، على حدّ علمي (باسـتثناء الأب جوسّان والأب ساڤينياك[1] Fathers Jaussen and Savignac) بدخول الواحة. على الرّغم من السّـمعة المشوّشة التي يتمتع بها التيمانيون[2]، فهم لم يتصرفوا بصورة جدّ سيئة مع الأوروپيين الخمسة الذين اقتحموا عليهم عزلتهم.

---

(1) كتب المؤلف: عالما آثار بارزان وأستاذان في جامعة سانت إتيين الإنجيلية في القدس، كانا قد وصلا إلى تيماء بعد سبعة أيام من مغادرتي لها. اعتبر ذلك الغزو الأوروپي لتيماء بعد فترة طويلة من العزلة أمراً عظيماً بالنسبة للتيمانيين، الذين أجبروهما على المغادرة في اليوم التالي! كان الاثنان قد قدما إلى المنطقة من أجل دراسة الآثار في الحِجر Hejr وفي العلا Al Ula متتبعين الطّريق الذي رسمة هوبر عام 1884. وعلى الرّغم من المقدمات الجيدة والمعرفة في طرق وأساليب العرب التي أبدياها، بالكاد سمح لهم الحاكم أن يقيما ليلة واحدة في تلك الواحة.

(2) التعميم بالمطلق المبني على رأي شخصي لا يجوز أبداً، ولا نقبل به كحقيقة راهنة بأي حال من الأحوال. لكننا مع ذلك مضطرّون لترجمة النصّ كما جاء.



رجل تيماني

استُقبل غْوارماني Guarmani – كموظف تركي رسمي، مكلف بشراء الخيول من أجل الباشـا في دمشق، استقبالاً حسـناً. وجد داوتي Doughty المعروف بأنه نصراني في تيماء المكان الأكثر أماناً مقارنةً مع معظم واحات جزيرة العرب التي زارها. كانت زيارته الأولى قصيرة المدة، ولكنه عاد أدراجه ماراً بذات المسـارات التي سـلكها من قبل (و هو فعلٌ يفتقر إلى الحكمة في منطقة معادية وخاصة في جزيرة العرب)، ومكث أكثر من شهر في الواحة، وعلى الرّغم من عدم محبته للتيمانيين فإنه ترك لديهم انطباعاً حسناً لدرجة أنهم دعوه للإقامة بينهم.

تجنّب أوبير (هوبَر)، وهو مسلم، الخطر الكبير، ولكن مهمّته التي تقتضي الحصول على النّقوش ونقلها بعيداً جلبت عليه اتهاماً لا مفرّ منه وهو تصيّد الكنوز، ولكن على الرّغـم من ذلك ورغم تحقيق هدفه تمّ اسـتقباله اسـتقبالاً مشـرفاً فـي زيارتيه كلتيهما. أعترف شـخصياً أنني فوجئـت بالضيافة والودّ الذي أظهرة التّيمانيون لي، إذ لم يتسـن لـي التعرف بشـكل جيد على العادات العربية وطباع العـرب وكذلك لغتهم كما أتقنها أسـلافي. مع ذلك فقد تم استقبالي بشكل حسـن ما عدا من قبل رجل ابن رَشيد. على الرّغـم من النّزعة الفرديـة وعدم الثقة في الغرباء والنّاجمة من دون شـك عن عزلتهم، فهم يتمتعون بمزيّة تمكنهم من الصّمود وفهم وجهات النّظر الأخرى.

يُعرف التّيمانيون بين جيرانهم العرب بأنهم غير مضيافين، وصعبو المراس ومشاكسون متقلّبـون[1]. ولكن في حالتي وعندما تعلق الأمر بغارة سـتجعل مني ضحية تعصب محلي أثاره الحاكم دون ش ، برهن مُضيفي عن ضيافته العربية الأصيلة بأقصى حدودها، وبدا في الواقـع أنه على اسـتعداد لتعريض نفسـه للخطر عوضاً عن غريب التجـأ إلى بيته. بدا الأمر في اليوم الخامس وكأن وجودي كان على وشـك أن يشـكّل سـبباً لأحد الخلافات العائلية الضروس التي كانت تمزّق مجتمع تيماء قبل وصول سيطرة ابن رَشيد إليها. إذا ما ضعفت قبضة الحاكم فستكون النّتيجة الحتمية تعصباً أعمى وعنفاً غوغائياً.

---

(1) هذا كلام المؤلف، ولا نتبنّاه ولا نعدّه ملزماً، فكثيراً ما تلعب النواحي الشخصية والأهواء أو حتى التّحامل دوراً في إطلاق أحكام عامّة فيها قدر من التجنّي.

ما إن رأيت، في الغَسَق، أنصار مضيفي وجميع عشيرته قد بدأوا يتوافدون فرادى وجماعات مدجّجين بالأسلحة، حتى علمت أن المتاعب على وشك أن تقع. وفق قول داوتي: «الرؤوساء والشّعب العنيد في تيماء» كانوا من الواضح أنهم سيعالجون الوضع حسب طريقتهم الخاصة مرة أخرى. في وقت لاحق ذلك المساء وعندما عاد المراوي من مقابلة طويلة مع الحاكم يملؤه الغضب، رأيت بوضوح أن أفضل شيء بالنسبة لنا جميعاً الجو الصّحراوي، وأنه كلما أسرعنا بالعودة إلى الصّحراء كان أفضل. لذا سلمت الهدايا التي اخترتها لمضيفي والتي كنت قد جلبتها معي من دمشق وأخذنا نستعد للرحيل.

مع عدم وجود دليل يرشدني إلى جبل شمَّر، و لم تزل الرّغبة في الحصول على المَهاة تستحوذ عليّ، فقد قررت أن الشّيء الوحيد الممكن القيام به وفق الظروف الرّاهنة هو النّسحاب إلى منطقة طُبيق، وإن أمكن اتباع طريق مختلف عمّا قدمنا عليه. إنّ النّفود، التي أعرفها من خلال الخرائط التي وضعها كل من داوتي وأوبير (هوبَر)، لم تكن بعيدة جداً إلى الشّمال الشّرقي من تيماء. إن استطعت رؤية تلك الظاهرة في رحلة عودتي، فينبغي ألاّ أضيّع فرصة سفري تلك دون جدوى، كما إنني أدرك أيضاً أن الحدود الغربية للنّفود الواقعة بين تيماء والجوف هي أرضٌ بكرٌ غير مستكشفة بمعظمها وبالتالي فهي تستحق الاستكشاف. وبالإضافة إلى ذلك فقد أجريت حساباتي بأن أفضل فرصة لي لإيجاد المَهاة هي معاودة أدراجي والسّير وفق مخططي السّابق وليس متابعة السّير إلى نجد.

حزمنا أمتعتنا على عجل، لأن الجوّ العام في تيماء تلك الليلة كان مشحوناً للغاية يكاد أن ينفجر كالبركان! أخذ مضيفي ينهال عليّ بأكوام من المؤن لأننا سنقطع ما لا يقل عن 300 ميل في أرض قفراء لا زاد فيها ولا ماء، ثم قام بحفر الأرض بقرن غزال ليعطينا كميات كبيرة من التّمور بعد أن استخرجها من الحفر التي كانوا يقومون بتخزين التمور فيها. تم إدخال الإبل عبر البوابة الخلفية لأن الطّرق الأمامية كانت تعج بالمقاتلين، وتم تحميل الجمال بصمت وأخذنا ننتظر إشارة البدء بالتحرك، وما إن

أعطيت لنا الإشارة حتى انطلقنا متسللين بعيداً سالكين حارة ضيقة ثم مجتازين منطقة زراعية ومن ثم أخذنا نسابق الرّيح في الأراضي الصّحراوية الواسعة.

كانـت إبلنا قد أخذت قسـطاً وافراً مـن الرّاحة ومن التغذية، لذا جعلنا نحثّ السّـير ليلاً، وفي الثالثة صباحاً توقفنا وأخذنا قسطاً من الرّاحة لبضعة ساعات ثم تابعنا مسيرنا لنخرج من منطقة الخطر وسط قبائل شمَّر والرّوَلة.

مـا إن لاح الفجـر حتى رأيتُ واحـداً من أبدع المناظـر الطّبيعية وأكثرهـا تأثيراً في نفسـي على الإطـلاق، ألا وهو ذلك الحاجـز الرّملي الهائل لصحـراء النّفود الكبرى، 30,000 ميل مربع من الرّمال التي حملتها الرّياح قد تكدّست أمامي، ومع بزوغ الفجر ظهر الحاجز كشريط قرمزي اللون في الأفق الشّرقي.

* * *

الفصل الخامس

صحراء النّفود الكبرى

«تلك القفار الرّملية اللامتناهية»

كانت الطّبيعة على ما يبدو واعية عندما زرعت هذه الرّقعة المجدبة الشّاسعة وسط منطقـة قاحلـة وجافة جداً، وأمدّتها بمصادر كبيرة جداً وبشـكل غيـر مألوف من المياه علـى طـول الجانب الغربي لتلك الرّمال. كانت هناك سلسـلة من الآبـار الغائرة تحت سور النّفود تمتدّ لبضعة مئات من الأميال إلى الشّمال من تيماء.

لم تصل أيادينا إلى البئر الأول أُبَيط[1] Ubait بسبب عدم حاجتنا إلى مياهه، فقِرابنا كانت قد امتلأت في تيماء، على الرّغم من القول آنذاك إن مياه ذلك البئر كانت جيدة، كما أنها كانت ذات فائدة كبيرة لعابري السّبيل الذي يحاولون تجنّب الدّخول في تيماء في طريقهم من وإلى جبل شمَّر.

وإلـى جانبـه كان هنـاك مَعلم بـارز ألا وهو الثـلاث أخـوات العسّـافيّة Assafiya Thulaithukhwat وخلفهـا يبـرز نتوء صخـري ليطل على النّفود مـن الأعلى ويدعى حلوان خنفا Helwan Khunfa. قام داوتي Doughty بذكر بئر أُبَيط Ubait نقلاً عمن سبقه بأنه المحطة الأولى بين تيماء والجوف، ويقول: «إنه الاستراحة الصّيفية للشرارات (ومـازال هناك بعض الآثار)، حيث تنبع الميـاه بمجرد حفر الأرض بالأيادي»، مما لا

---

(1) قد يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربيّة السّعوديّة: بيط، لكنني سأكتبه في الكتاب: «أُبيط».

شك فيه أنه يمكن التعرّف على الأطلال المشار إليها من خلال مقبرة ما قبل التاريخ التي اكتشفها موزيل Musil، التي لم تكن حقيقة في أُبَيط Ubait بل بالقرب من آبار العسّافيّة wells of Assafiya التي كانت تقع بالقرب من منخفض وادي نيّال Wadi Nayyal.

اكتشف موزيل Musil تلك المياه السّطحية بنفسه عندما وجدها على عمق لا يتجاوز الثلاثة أمتار عن سطح الأرض. غير أن المياه كانت آخر اهتمامنا في تلك الآونة، بسبب المطر الذي كان قد انهمر من قبل، فقد كانت تلك باكورة الغيث منذ أن غادرنا مخيم بني صَخر. في اليوم الثاني بعد مغادرتنا تيماء مدّت إبلنا أعناقها لتتنشق النّسيم، أعطينا الأبل حق القيادة متتبعة حاسة الشّم لديها فوصلنا في النّهاية إلى بركة تجتمع فيها مياه الأمطار في منخفض صخري، شربت الأبل واغتسل الرّجال وتابعنا مسيرنا بعد أن شعر الجميع بالانتعاش. تلك التجمعات المطريّة، وكما قال لي الرّجال، لن تدوم أكثر من بضعة أيام فقط إن لم يكن هناك ريح، أمّا إذا هبت الرّياح فلن تلبث تلك المسطحات المائية الضّحلة أن تتلاشى.

اتجهنا شمالاً وسرنا بمحاذاة حدود النّفود البيضاء إلى يميننا، إلى أن وصلنا في اليوم الثالث إلى أرض رملية هي استمرار لتلك القفار الصّخرية التي مررنا بها لدى مغادرتنا لبئر فجر well of Fajr. انضممنا إلى بعض رجال الرّوَلة Ruwalla الذين كانوا في طريق عودتهم شمالاً إلى ديرتهم الأصليّة في وادي السّرحان، وأخيراً وصلنا إلى آبار مُليح.

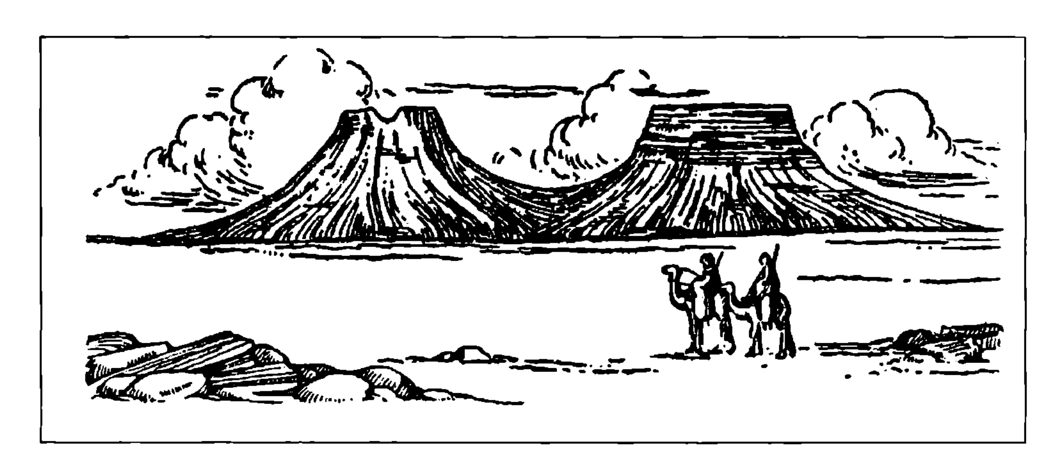
كان مخيم الشّرارات يسيطر على المصادر المائية التي وجدناها تلك، وقد كنتُ محظوظاً بأن وجدت بين ظهرانيهم صياداً واحداً على الأقل يعرف حقيقة المنطقة ويجيد اللعبة. لم يكن ذلك الرّجل الشّراري والذي كان يسمّى مسعد وهو شاب أشعث أعور، لا يملك من حطام هذه الدّنيا سوى ناقته الذلول الجرباء وملابسه التي يرتديها بالإضافة إلى أعزّ ما يملك ألا وهي بندقيته.

كان مخيّم الشّرارات ذاك من أفقر المخيمات التي رأيتُها قط، إذ اقتصرت ضيافتهم

التـي قدّموهـا لنا على لبن الإبل والتمر. كانت آبار مليح شـبيهة بتلك في مُغَيرا، عديدة ولا يزيد عمقها عن العشرين قدماً ومياهها مالحة.

* * *

غير بعيد إلى الشّرق وإلى الجنوب من كثبان النّفود كان هناك بئر آخر وهو الهوجاء Hauja، يُسـمّى بالتل القريب منه المعروف بالهوج Hauj أو شداد Shadad أو أم كور Omm Kur، وهو احديداب غريب يُرى من الشّمال على هذا النّحو:



كمـا أن اسـم الهوج يطلق على المنطقة بأكملها الواقعة علـى طول حافة النّفود إلى الشّـمال مـن تيماء. كما كان هناك أيضـا بئر آخر في ذات المنطقـة وهو مورد حداجان Hadajan وهـو علـى بُعد بضعـة كيلومترات الى الجنوب من الهوجـة التي قام موزيل بزيارتها منفرداً.

تجتمـع القبائـل حول تلـك المصادر المائية عندمـا تكون مراعـي الرّبيع في أفضـل حالاتهـا على الكثبان الرّملية، ومن هناك تجدهم يهيمـون على وجوههم مع قطعانهم بعيـداً فـي الرّمـال. والنّفـود هـي المنطقة الوحيـدة التي ليـس فيها مياه سـطحية. ففي مسـاحاتها الشّاسـعة لا نعرف سـوى بضعة آبار قليلـة معينة فقط، تقـع في منخفضات ظهـرت فيها الأراضي الصّخرية تحت الرّمال. وفي معظم الحالات تقع هذه الآبار في تشـكيلات غريبة على شـكل حدوة الحصـان تدعى الفَلج falj نجمـت في الواقع عن

إعصار حدث في الأيام الغابرة.

توجد في طيّات تلك المنخفضات بعض الآبار المبنية الموغلة في القدم، الأمر الذي يؤكد أن الكثبان الرّملية وما يرافقها من حُفر أمرٌ لا يتبدّل. ومن المصادر المائية المعروفة في النّفود هناك منخفض مشهور وهو شقيق Shaqiq الذي يحتوي على عدة آبار بالغة العمق مبنية في جزئها العلوي ومحفورة في الصّخر في أسفلها. تقع سلسلة الآبار تلك على الطّريق الرّئيسي المارّ في النّفود بين الجوف وجبل شمَّر، كما هي أيضاً حال جُبّة Jubba وهي المنطقة الصّغيرة المأهولة الوحيدة داخل ذلك المهاد الرّملي.

في الرّكن الجنوبي الغربي تم ذكر العديد من الآبار، اثنان منها معروفان وهما آبار قلبان Qulban وهي ثلاثة آبار مبنية تقع في قاع حفرة هائلة على شكل حدوة حصان، وبئر حيزان Haizan وبئر الحيزا[1] Hyza الذي طاف داوتي به وزارته غِرترود بِل Gertrude Bell عندما عبرت تلك المنطقة من الصّحراء لتتجنب الدّخول في تيماء في طريقها مباشرة إلى حائل.

نجد بالمناسبة أن ملاحظات داوتي بأن الرّكن الجنوبي الغربي من النّفود يلفت النّظر بسبب رماله الكثيفة، التي يبدو أنها تتماشى مع حقيقة بلوغ رمال هذه المنطقة أقصى سماكة لها.

(1) يقع إلى الشمال الشرقي من الدّفافيّات في الجهة الشرقيّة من تيماء.



الشّرارات يستقون في بئر مُغيرا



الشّرارات يستقون في بئر مُغيرا

صار لدينا الآن عددٌ كافٍ من القراءات عن ارتفاع بقعة النّفود وما حولها، وهي قراءات تظهر أنّ انحدار هذا الجزء من الصّحراء العربية يمتدّ جنوباً باتجاه نهر الفُرات. يبلغ ارتفاع الجانب الغربي من النّفود 2400 قدم بينما يصل في الجانب الشّرقي منها إلى 2200 قدم، وبذلك تكون نسبة الانخفاض تعادل 200 قدم في 200 ميل. ممّا سيبدو للمراقب العادي أن انحدار هذا السّهل مغطى بكميات كبيرة جداً من الرّمال والتي تحافظ على حدود المنطقة وفقاً لقوانين الطّبيعة.

غير أن الأمر ليس كذلك، فهذه المنطقة التي تدعى النّفود هي في الحقيقة يشبه إلى حدّ كبير منخفضاً هائلاً ومن المؤكد أنه كان في حقبة ما متصلاً بوادي السّرحان. عمل الانجراف الرّملي وعلى مدى العصور على ملء هذا المنخفض بالرّمال حتى غدت الكثبان الرّملية فيها أعلى ممّا سواها من الأراضي المحيطة بها، ولكن من الملاحظ دوماً أنه وبغضّ النّظر عن منشأ هذه الرّمال فإن على المرء النّزول إلى النّفود انحداراً قبل تسلق كثبانها الرّملية. في أقصى الجنوب الغربي يصل عمق الرّمال إلى ما لا يقل عن 600 قدم، ففي وسط تلك الكثبان يبلغ متوسط عمقها 400 قدم، بينما تصبح في الجانب الشّمالي والشّمالي الشّرقي منها أكثر سطحية، وتنتهي بشكل مفاجئ كما بدأت.

ليس للنّفود في أقصى جانبها الشّرقي حدود معينة، إذ تمتدّ كألسنة طوال متداخلة بشكل أو بآخر دون أن يعرقلها شيء لتجتمع في النّهاية في فيافي رمال صحراء الرّبع الخالي. تمتدّ هذه القفار الرّملية إلى ما يقارب 200 ميل في كل اتجاه يقطعها طريق واحد يمرّ من سوريا إلى نجد عبر الجوف. غير أن أفراد القبائل المتنازعة يستفيدون من هذه المزيّة في الإغارة، بحيث يكون بمقدورهم التنقل حيث يشاؤون لينقضّوا على أعدائهم الغافلين.

* * *

غادرتُ مُليح Mulaih بحالة معنوية مرتفعة، فبالإضافة إلى توظيف صيّاد محلي، فقِرَبي مُترعة بالماء، وليست النّفود ببعيدة عنا. اتجهنا شمالاً ولم يمضِ وقت طويل

حتى رأينا بجانبنا ذلك الحائط القرمزي الي رأيناه عن بُعد من قبل قرب تيماء.

لـم تكـن تلك الفضـاءات المؤلمـة من حجـارة الصّـوّان المصقولـة ولا الأراضي الصّخرية الغريبة التي مررنا بها لتشبع نهم فضولنا. ولكن ما إن وقعت أعيننا على ذلك الحاجـز حتـى صرخنا بأعلى أصواتنا وبصـوت واحد: «يا الله - مـا هذا؟» فمن رحم القفار وُلد هذا الشّيء، ليس هناك من شيء رأيناه في حياتنا شبيه له. بدا انطباعنا الأولي وكأنّ موجة مدٍّ طاغية تتقدّم عبر تلك الفيافي زاحفة لتلتهم كل ما تجده في طريقها.

وتبـدو الكثبـان وكأنها تتحرّك مقتربة، بدا وكأن الحركة قد دبّت في كل شـيء، لأن الحقيقـة كانت كذلك، فالرّمال لا تكفّ عـن الحركة. لقد دبّت الحياة في هذا المحيط دون شك.

توجهنـا نحوهـا مذهولين بجمال لونها، ومتأثرين بسـحر عظمتها. لامسـت أشـعة شـمس الصّبـاح ذُراها فبدت مشـتعلة كالنار، بينمـا كان المنخفض يغفـو بهدوء ودِعة غيـر متنبّـه لقـدوم النّهار. بـدت الكثبان عن قُرب فوقنـا كالبرج، وزاد من شـدة ارتفاع الكثبان حقيقة أن الصّحراء هي مجرد منخفض واسع يدعى الغروف[1] Lughruf. من هـذه الأرض الجوفاء رفعت النّفـود حاجزاً من الرّمل القرمـزي كأمواج عالية في بحر اسـتوائي تحولت مياهـه فجأة إلى تراب. كان هذا الهامش المرتفع بشـكل مفاجئ من قـاع الرّمال الأكثر إثارة لاهتمامنا. والسّـهوب النّظيفة علـى طول حوافها كانت وكأنها قد كُنست كنساً.

انتقلنـا بوتيرة ثابتة من الصّحراء الصّخرية إلى الرّمـال الصّافية العميقة. كانت حافة النّفود الكبرى في جانبها الغربي كما لو أنه قد تم قطعها بدقة كبيرة. لم تكن هناك منطقة محايدة بين الرّمال والسّـهوب، يمكنك قيـادة دراجتك إلى أعلى حافة النّفود ولكن ما إن تصل إلى القمّة، فعليك أن تترجّل وستجد أنك بحاجة لتكون قدماك كخفّ الجمال إن رغبتَ في متابعة المسير فوق تلك الكثبان الرّملية.

---

(1) هكذا يبدو لي الاسم بالعربيّة، ولم أعثر عليه في خرائط النّفود وتيماء وحائل.

جمال ألوان الكثبان الرّملية كانت المزيّة التي علّق عليها جميع المسافرين في تلك البقـاع، كان ينبغـي أن يقدم لنا خيال پالغريف Palgrave الخصب صوراً ملوّنة خلاّبة، غير أنّه لم يفعل ذلك بسـبب تركيزه الكلّي على العنصر الإنسـاني، فالطبيعة مهما بدت مُسـرفة فـي عطائها لم تكن تلاقي تجاوباً مع عقل پالغريف السّـامي. فقـد أفرد للنّفود عشر صفحات فقط من مجمل عمله الضخم، حتى أن بعضاً من هذه الصّفحات والتي ربما كانت موضعاً للإهتمام كان قد كرسـها لشرح شكوكه ومخاوفه الوهميّة من دليله الشّراري؛ ولم يتطرّق لذكر عجائب تلك الرّمال. بينما رأى الزّوجان بلنت Blunts في النّفود مصدراً للرّاوند وأوكسيد المغنيزيوم ليس كما توقع على الإطلاق. ولم ير نولدِه Nolde لـون رمـال النّفود بالحُمرة التي رآها الزّوجان بلنـت Blunts، ولكن من ناحية أخـرى وعن آبار حوا[1] wells of Hoa على الحافة الشّـمالية مـن الرّمال نجده يقول: «يبدو وكأن الأرض دُحيت والصّخور حولنا قد تناثرت عليها الدّماء».

أمّـا أنـا فأرى النّفـود كأكثر الظواهـر الطّبيعية إثـارة للإعجاب في حياتي. سبق أن اختبـرتُ الصّحـراء بمختلف أطيافها من السّـهوب الكلسـية الباهتة إلى قفـار الحَماد السّـوداء والصّحـارى ذات الرّمـال الحمـراء. لقـد رأيـتُ قفار تركمانسـتان السّـوداء والحمـراء، ورأيـت أراضي صحراء غوبـي Gobi النّائية، ورأيتُ الصّحارى الآسـيوية والأفريقية، لكن أياً منها لم تكن تشـابه لا في خصائصها ولا في لونها تلك التي رأيتها في النّفود.

قـد يعتقـد المرء أنه لا توجد صحـراء في أيّة منطقة فـي العالم خالية مـن أيّة معالم طبيعيـة، ولكن هنـا وبعد اجتياز نحو 400 ميل في الصّحراء العربية قدمنا إلى «صحراء ذات مظهـر جديد ومُريع جديد نسـبياً» بالنسـبة للعين الغربيّـة وبالتالي فهي ذات فائدة قصـوى، «مريع» لأن رمالها تبدو وكأنها في معركـة ضد جميع القادمين، وكأنها قادمة إليهم لتلتهمهم.

تبـدو الرّمـال، مـن بعيد، بلونهـا القاني عند الشَّـفَق، لتتحـوّل إلى بيضاء مشـعّة في

(1) هكذا يبدو لي الاسم بالعربيّة، ولم أعثر عليه في خرائط النّفود وتيماء وحائل.

منتصف النّهار، ثم إلى مخمليّة حمراء كالنبيذ عند الغَسَق. ولكن عن قرب تجد لون الرّمال بجميع ألوان طيف الأصفر والأحمر وكأنها قد مُزجت بنعومة لتصل إلى هذا اللون المدهش الذي لا يستطيع المرء أن يجد له اسماً. سبب هذا اللون ليس بعيداً عن الإدراك، فأصل صحراء النّفود يعود إلى تلك الرّمال التي ما فتئت «بِترا» تكون نموذجاً طبيعياً لها، وأيّ شخص كان قد رأى تلك الصّخور الملونة لتلك المدينة المحفورة عميقاً في الجبال لَيدرك ذلك المحيط الصّخري الذي ارتفع مدّه عالياً ليشكل صخور «بِترا» كما هي عليه الآن. «بلون العقيق والقرفة الحمراء والصّفراء».



النّفود الكبير

لا يمكن احتواء جميع ألوان صخور «بِترا»، وكذلك رمال النّفود؛ وبإضافة اللون القرمزي، والأرجواني والأصفر، لسوف تحصل على فكرة عمّا تحتاجه من ألوان لتشكيل هذه التحفة «النّفود». وصلت إلى النّفود عبر ذلك اللسان الممتدّ غرباً

والمسمى العريج[1] Araij. إنه ذلك الحزام الرّملي الذي شاهده لورَنس Lawrence ولم يدخله، حينما كان ينطلق في طريقه مسرعاً بين الوجه Wijh ووادي السّرحان Sirhan: «توسّلتُ إلى «عودة» طالباً منه تحمّل المزيد قليلاً من أجل الدّخول إلى ذلك الحزام، لكنه أجاب متذمّراً أن الرّجال لا يدخلون إلى النّفود سوى عند الضّرورة عند الإغارة»..

والعريج Araij ليس سوى امتداد لذلك المهاد الرّملي المتجه غرباً نحو جبل طُبيق Jabal Tubaiq، وهو لسانٌ من الكثبان الرّملية الممتدّة على مساحة تتراوح بين مئتين إلى ثلاثمئة ميل مربع، والتي لم تكن قد شوهدت من قبل الرّحّالة الغربيين، ولكن صادف أن مرّ بها في ذلك العام الرّحالة النّمساوي ألويز موزيل[2] Alois Musil وأنا. ومع ذلك لم يغفل داوتي Doughty عن تسجيل العريق (العريج) Araij بأنه كان «محطة ليلية في طريقه في الصّحراء إلى الشّمال من تيماء»، في المرحلة الثالثة من الطّريق الى الجوف Jauf، وأخبرنا أيضا أن النّفود في هذا الجزء غير المطروق بين الواحتين «لم يكن سوى رحلة».

* * *

ما إن وطئتُ تلك الكثبان حتى أدركتُ سرَّ هاجس المَهاة في اللجوء إلى هذا المكان حيث وفرة الغذاء والمأمن. تتوفّر هنا الأعشاب الصّفراء الطّويلة الشّبيهة

---

(1) كذا ترد العبارة في الأصل الإنكليزي، وذلك بحسب منطوقها البدوي، ولكن الوجه الصحيح لكتابتها هو: عَريق.

(2) ألويز موزيل (1868–1944) رحّالة ومستشرق كبير، تشيكي المولد من أصل نمساوي، كان من خيرة الرّحالين الذين جالوا ببلاد الشام وشمالي جزيرة العرب، ومن أكثرهم شغفاً بالعروبة والبداوة وإجادة للهجاتها وتوسعاً في دراسة أحوالها وآثارها، حتى أن الشيخ النّوري الشّعلان لقّبه بالشيخ موسى الرّويلي. نشرنا في هذه السّلسلة مختصراً لأحد كتبه «في الصّحراء العربيّة»، وسوف نقوم بتعريب كتبه الستة المهمّة بأكملها، وهي بالفعل كنز ثمين في الطبوغرافيا التاريخيّة والآثار والتراث الشعبي لبادية تَدمُر والحَماد ووادي السّرحان والجوف وشمالي نجد وشمالي الحجاز.

بالقشّ (في الواقع يقوم البدو بحصاد هذه الأعشاب وتخزينها) بالإضافة إلى توفر الطّرفاء tamarisk بكثافة. كما أنّ هناك أيضاً شجيرات الغضا ghadha التي كانت منتشرة بشكل كبير فوق الرّمال وقد مدّت جذورها في الأرض إلى بُعد لا يُعقل بحثاً عن الرّطوبة. وترى الجذور في بعض المناطق مكشوفة على سطح الأرض بعد أن تمّت تعريتها بفعل الرّياح لمسافات قد تزيد عن 15 ياردة أو أكثر. كان من الواضح أن النّفود لا تعاني شحاً من الأمطار أو تمكث بغير غطاء نباتي، ولذلك لم تكن هناك حركة شاملة للرّمال إلا بحدها الأدنى. فقد أكّد الغطاء النّباتي أن تلك الكثبان العظيمة والمنخفضات ثابتة في مكانها، بالإضافة إلى حقيقة وجود تلك المخيمات والآبار القديمة لعصور عديدة.

تُعتبر النّفود بالنسبة للبدو فردوساً حقيقياً خلال أشهر الرّبيع، حين تكون المراعي وفيرة، وحينها تجوب القبائل تلك الكثبان، بغضّ النّظر عن طبيعة الإجداب التي تعانيها، فباستطاعة الإبل تحمّل البقاء دون ماء لأسابيع طويلة بينما يعيش رُعاتها على ألبانها.

لم أكد أدخل تلك الكثبان حتى رأيت آثار قطعان كبيرة من المَها والنَّعام بالإضافة إلى الطّيور الصّغيرة الوفيرة نسبياً والحياة البرية. تشير قشور البيوض إلى أمكنة النَّعام، بينما قادنا أثر الظباء شمالاً إلى عمق الصّحراء. أمّا الصّيد في هذه المنطقة فكان مدعاةً للسّخط، حيث لا يتمكّن المرء من النّظر بعيداً إلى الأفق، فمن قمة أحد الكثبان لا تتمكن من رؤية سوى قمم كثبان آخرى متلاحقة، بينما تبقى المنخفضات ومافيها من نباتات أرضاً ميتة خافية علي. كان ينتابني شعور أشبة ما يكون بالخوف من الأماكن المغلقة claustrophobia عند التجوال في تلك المنخفضات، ممّا يحدو بي إلى الإسراع للخروج منها بأسرع وقت ممكن. ولكن ما إن أخرج من أحد المنخفضات إلى قمّة الكثيب التالي، حتى أرى منخفضاً آخر بانتظار ابتلاعنا من جديد.

* * *

أصبح الارتحال الآن مسألة التماس أسهل الطّرق إلى أعلى وأسفل وحول تلك

الكثبان. كان المسير متعباً للغاية ولكن ذا سحر خاص. فبعد السّهول التي يحدّها الأفق والتي كنا قد اعتدنا عليها يخامرنا شعور جديد بعد أن اقتصرت الرّؤيا لدينا إلى قمّة الكثيب التالي أو إلى قمم الكثبان الرّملية التي لا تحصى. كدحنا صعوداً إلى أعلى الكثبان لنرى منحدرات لا يمكن نزولها على الجانب الآخر، حيث تنزلق الأبل على أوراكها في طريقها إلى الأسفل أو تراها تفضّل المسير متبعة خطّ الذُّرى إلى أن تجد مكاناً مناسباً للنزول إلى الأسفل.

ومع ذلك، فإنّ النّفود كما قال داوتي: «ليست سوى مجرّد رحلة»، وقد اجتزنا خلالها الرّمال بنفس سرعة الدّخول فيها. يقع أمامنا سهلٌ لا حدود له، لا يعترضه سوى بعض من تلال جعلة[1] Jaala. توقفنا هنا، لأنني أدركتُ أنها ربما كانت هذه أفضل فرصة لي للنجاح بالصّيد، وربما قد تكون فرصتي الأخيرة للاجتماع بالمَهاة. من هذا المكان استطيع مراقبة أكبر مجال ممكن وربما أمكنني مشاهدة المَهاة وهي تتحرك بين السّهول والمراعي في النّفود. أقمنا مخيمنا إلى جانب الكثبان، وذهبت غرباً لأجرّب حظي بينما توجه مسعد الشّراري شرقاً.



أجمة الغضا

(1) تقع في وادي فجر إلى الشرق من تلول الشبليّات، ويطلق عليها: جعلة السّودا.



على الكثبان الرّملية العالية

في وقت متأخر من المساء رأيتُ مجموعة من أربعة ظباء ترافقها ثمانية من الغزلان في السّهل. أخذت أراقبها من خلال منظاري وكأنني بينها، وأخذت أتعامل مع تلك الصّورة المتكاملة للجمال الوحشي كما يودّ أي شخص آخر لو استطاع أن يرى ذلك المشهد. كانت المَهاة تبدو بيضاء لامعة تحت أضواء معينة فتظهر بوضوح عن بُعد، ثم يتغيّر الضوء فتصعب رؤيتها، لقد اندمجت تلك الحيوانات مع محيطها بشكل كبير. وقد كانت تلك ميزيّة غريبة لدى المَهاة في التلون.

وأعطاني الغزال دليلاً على حجم تلك الظباء، بدا الظبي العربي نموذجاً مصغراً لقريبه الأفريقي. بدا لي سبب تسميته بـ «بقر الوحش» جلياً، فوقوفه عند الرّعي وتلك الحدبة الصّغيرة بالإضافة إلى ذيله ألقت عليه شبهاً كبيراً بالبقر. كما أن حوافره الكبيرة المفلطحة أيضاً جعلت منه قادراً على التحرّك فوق تلك الرّمال النّاعمة، وكانت ذات أهمية كبيرة لدى الحفر في الرّمال للوصول إلى بعض غذائها، لقد كانت أشبه بحوافر البقر على الرّغم من عدم التمكن من ملاحظة ذلك بسبب بُعد المسافة بيننا، إلا أنها كانت تسبب للمهاة عند الحركة بعضاً من الارتباك.

كان هناك من الواضح مراعٍ مناسبة لها في السّهل، فقد تحرّكت المَهاة مبتعدة عن مكان اختبائي خلف تلك الكثبان، ولم يكن بمقدوري الوصول إليها مما جعلني أنتظر إلى الغَسَق لأتحيّن الفرصة كي أحظى بفرصة إطلاق رصاصة واحدة. ممّا جعلها تختفي خلف تلك السّحابة من الغبار التي خلفتها، جعلت المَهاة تهرب والغزلان تتقافز ككرات مطاطية راسمة الدّوائر حولها بينما التحق بها زوجان من النَّعام ليكتمل الموكب، كما لو أنها قامت بذلك لتزيد من شهيتي! لقد ذهبت بعيداً - ولكن أيّ كنز كان ذلك مقارنة بالصّيد؟

لدى عودتي إلى المخيم وجدت أن مسعداً كان أكثر حظاً مني. فلقد رأى، أحد الظباء وطارده واصطاده على حافة الكثبان، والملفت للنظر أنها كانت بقرة ذات قرون ملتوية، لقد كان ظبي مهاة بقرن مستقيم وآخر ملتوٍ. لقد كان وحيد قرن حقاً. على أيّ حال، كان هناك ظبي مهاة بأكمله باستطاعي رسمه وأخذ جميع القياسات المتعلقة به ثم قمت بسلخه والاحتفاظ به، لقد استغرق ذلك مني وقتي كاملاً.

وكنتيجة فورية لهذا النّجاح جرى تمرّدٌ من قبل رجالي: فجعلوا يجهزون أنفسهم للعودة إلى ديارهم! فالمياه التي تمت المحافظة عليها لفترة طويلة نسبياً تمّ هدرها، لأنهم كانوا يعلمون أن القِرب الفارغة ستجبرنا على التراجع والعودة. كان أقرب بئر لنا هو بئر حوزة Hausa الذي كان يبعد عنا حوالي ثمانين ميلاً، غير أنه لم يكن من المؤكد توفر المياه الكافية، فمن المحتمل أن نجد بئر الحوزة جافاً، إذاً ماالعمل؟ وكان الموقف دقيقاً: فبعد أن بلغتُ الآن مواطن انسحاب المَهاة والنَّعام النّائية، شارفت مياهنا على النّفاد ومواردنا الغذائية على الانتهاء!

* * *

الفصل السّادس

السّباق إلى الوطن

«يستطيع المسافر التحكّم ببدء رحلته، ولكن ليس بعودته» مثل عربي.

أخـذت النّفود بالاختفاء وراء الأفق خلفنـا، ثم مرّت صخور جعلة[1] Jaala أمامنا، ووجدنـا أنفسـنا نحـثّ الخطى فـي بطاح البسَـيطاء Bisaita. عندما سُئل مسـعد عن البسَيطاء أشار بكفّ يده قائلاً: هكذا. لم أعرف فيما إذا كان يعني أنها جرداء أم أنه كان يسـخر من اتسـاعها مقارنةَ بكفّ يده الصّغيرة[2]. ولكنها أرض ذات مزيّة خاصة شـبيه بأرض الصّوّان Ardh as Suwwan من حيث جفافها الشّـديد ورتابتها المروّعة. ومع ذلك، تجدها ذات نفع في مواسم خاصة فبسبب طبيعتها القاحلة تنتج أفضل محاصيل السّمْح *samh*.

حولنـا وأينما ذهبنا نرى تلك الانتفاخات الأرضية الصّغيرة حيث يقوم الشّـراريون بجمع تلك النِّعَم التي جاد الغيث عليهم بها. هذه الفسحة البازلتية الممتدّة شمالاً نحو منخفض السّـرحان غير البعيد عنا الآن، والممتدّ شـرقاً إلى واحة الجوف تقريباً، على بعد ستين ميلاً تقريباً.

اتجهنا نحو الحوزة في الشّمال الغربي وتركنا البسَيطاء إلى يميننا، ودخلنا في سلسلة مـن المنحـدرات التي كانت من الواضح فروعاً من جبـل طُبيق Jabal Tubaiq. كانت

(1) تقع في وادي فجر إلى الشرق من تلول الشبليّات، ويطلق عليها: جعلة السّودا.
(2) بل هذا التعبير في الذّهنية العربيّة يعنى أنها أرض منبسطة، كما يدلّ عليها اسمها.

معنوياتنـا منخفضة ولكن مسـتوى الماء في قرابنا كان أقـل انخفاضاً، اثنتان من القرب كانتـا فارغتين بينما كانـت الاثنتان الأخريان مترهلتين تتخبّطـان على جانب البعير مع كل خطوة يخطوها. كان الماء يبعد عنا ثمانين ميلاً والآن ستين ميلاً ولـم تُشاهد المَهاة حتى الآن. كانت البهجة تملأ قلوب الرّجال لأنهم الآن في طريقهم إلى الوطن. كانت أفكار المراوي تدور حول قدور اللحم الدّمشـقية وكان رفيقي يتحدث بشـكل مستمر عن خيام بني صَخر بينما كان الصّياد الشّـراري منشغلاً وحده بعمله، فعيناه اللتان كانتا أشبه ما يكون بعيني النّسر لم تغادرا الأفق.



البسَيطاء الخاوية

كنا على بُعد خمسين ميلاً من الماء، والآن نحن على بعد أربعين ميلاً فقط. ثمّ بإرادة اللـه وحده حدثت المعجزة. كنا على متن إحـدى المرتفعات الطّبيعية الضخمة عندما نزلنـا فجـأة دون إنذار إلى قاع وادٍ واسـع، وربما كان ذلك الجـزء هو أخفض جزء من وادي فجر Wadi Fajr، أو ربما أحد روافده، لكنه كان مسـيلاً كبيراً ومليئاً بالحيوانات المحليّة والشّـجيرات. وبينما كنا ننحدر في ذلك الوادي، إذا بقطيع من خمسـين رأس مـن المَهاة البيضاء تتدافع للخروج من قاع الوادي في طريقها إلى الهضاب المتواجدة

إلى يسارنا. صرختُ بمسعد للحاق بي وأخذتُ بدفع جملي للعدو بأقصى سرعته من أجل قطع الطّريق على ذلك القطيع وقتلت اثنين من رؤوس المَها بينما قام مسعد بقتل ثالث، وحدث ذلك كله في غضون خمس دقائق فقط.

فزنا بالجائزة، وفي السّاعة الحادية عشرة خيّمنا في قاع الوادي وأخذتُ بسلخ الظباء إلى أن حال الظلام دون إتمام عملي.

تركتُ ثلاثة جلود كاملة لتجفّ تحت أشعة شمس صباح اليوم التالي، حيث واصلتُ ما كنت قد عزمت على القيام به للحفاظ على جلودها إلى أن حال دون ذلك نقصان المياه. ومع ذلك، كنت آخذ الجلد بعد الآخر وأقوم بتنظيفه بينما كنت راكباً على ظهر الجمل. لا يمكن لأي شيء أن يحول دون سعي الرّجال الحثيث فالجحيم مقابل الجلود، الرّجال خائفون من تلك القِرب الفارغة وقد أصبحت المسألة الآن كم يمكن للإبل أن تتحمّل. ضحكتُ من مخاوفهم، لكنهم كانوا على أسس سليمة وفقاً لما حدث، فقد ضللنا الطّريق ليوم كامل وبشكل ميؤوس منه في تلك المتاهة من التلال غير محدّدة الملامح، إلى أن التقط مسعد بوصلته لنهرول بعدها إلى الحوزة المألوفة لدينا. اقتربنا من البئر يحدونا أمل كبير. هل سيكون هناك ماء أم لا؟ اتُّخذت جميع تدابير الحيطة كما فعلنا سابقاً، نزل الشّراري إلى أسفل البئر لملء الدّلو، بينما وقف رجلان في الأعلى استعداداً لرفعه، فيما قمتُ أنا بالحراسة.

لم يكن هناك الكثير من العمل ليقوموا به، فقد قام الشّراري بنزح آخر قطرة ممكنة من المياه القابلة للشرب من ذلك البئر، وتركنا ما تبقى من وحل رطب للأبل لتقوم بارتشافه.



الجائزة

حتـى ذلـك الحين كنت منشـغلاً بمطاردة المَهـاة على الرّغم من عـدم قدرتي على تقدير الموقف الحقيقي كاملاً بسبب نقص المياه، لكني فجأة أدركتُ حقيقة المسؤولية الكبيـرة الملقـاة على عاتقي. لقد كنت هناك على بعـد مئة ميل من وطني بصحبة أربعة من الرّجال ومعنا أربعة من الإبل مع قليل من الطّعام وحصّة أقل من المياه. وبالإضافة إلـى ذلك، رأيت على الجمـال علامات الجهد فأدركت أن سـرعتنا من الآن وصاعداً سـتكون أبطأ وتيرة. كان هناك أمامنا حلٌّ بديل واحد فقط، ألا وهو الوصول إلى المياه فـي طريـق عودتنا في آبار باير Bayir المعروفة حاليـاً ولم تكن كذلك آنذاك، والتي لم تكن تقع بعيدة عن طريقنا.

لـو كانت إبلنا قوية لوصلنا إلى آبار باير بمسـيرة يوم واحد، ولكن في ظل الظروف الحاليـة سيسـتغرق الأمر منا يوميـن على الأقل. لذا ضربنا في الأرض باتجاه الشّـمال والشّـمال الغربي عبر أرض الصّوّان، سالكين الجهة الغربية من مسارنا الأصلي. تابعنا بنفس السّرعة إلى أن وصلنا في مساء الليلة الثانية إلى مشارف متاهة باير وقد لاح أمامنا دون ذلك وادي باير حيث البئر. كنا نركب الإبل على طريقة العربي عند الغزو. تقدّمنا

بخـط مسـتقيم دون توقف أو تردّد، ومشـينا بعضنا بالقرب من بعـض مدثرين بعباءاتنا حتى كدنا نلامس بعضنا، وأسـلحتنا على أهبة الاسـتعداد. لقد كان لتلك المظاهر من وحدة وتيرة الحركة وانفرادية الهدف كبير التأثير على نفسية كل عضو من مجموعتنا.

يدخـل إيقـاع حركة الإبل إلـى النّفس الإنسـانية فتندمج في داخلـه تلقائياً، فيرغب بدوام ذلك الإيقاع إلى الأبد. كنت راضياً عن نجاح رحلتنا في النّهاية وأصبحنا بعيدين عـن أيّ مزيـد من الخطر. كنت أشـعر بلذّة النّصـر وأن المغامرة قد انتهت بالنسـبة لي وقـد ربحنـا الجائزة، عندما صرخ مسـعد فجأة قائلاً: «أعطني منظـارك».. كان قد رأى شـيئاً عن بُعد، وبمعونة ذلك المنظار تأكّد من وجود ثلاثة فرسـان. قال مسـعد فلنكن حذرين، تسـللنا إلى المنخفض، أنخنا جمالنا واختبأنا خلفها. لا شك أننا قد عدنا إلى منطقة الخطر، وعلينا التحرك بحذر شديد. تسمّرنا في مكاننا لفترة طويلة نرقب أولئك الفرسـان الثلاثـة وهم يجوبون تلـك المنطقة. لو أن الظلام يهبط الآن لأمكننا التسـلل تحت جناحه، ولكن بعد أن انتظرنا لمدّة سـاعة كانت لا تزال هناك سـاعة أخرى ليحلّ الظلام. بفارغ الصّبر شاهدنا الفرسان الثلاثة وهم يوسعون دائرة بحثهم حتى أصبحوا وراءنا فرأوا آثار مسيرنا، وأخذوا بالإسراع نحونا كالكلاب البوليسية.

كانوا ثلاثة أشـخاص ونحن خمسـة، مما جعلني أشـعر بقليل من الطّمأنينة. وما إن أشرفوا علينا تماماً حتى أطلق الشّراري النّار في الهواء، غير أني سدّدتُ إلى رأس أقرب الفرسـان إلي! كان حظـي كبيراً تلك الليلة أني أخطأت الرّجـل، فلو أني أصبته لانتهى كل شـيء. فمـا هي إلاّ لحظـات حتى ظهر فوق التـلال الغربية ما لا يقلّ عن خمسـين فارساً، فعلمتُ أن المطاردة في أولها، وتلى بعد ذلك خمسٌ من الدّقائق العصيبة. أذكر التدافـع المفاجـئ لإبلنا الواجفة وأزيـز طلقات البنادق، وخادمي السّـوري يفرك يديه وينتحب. صورة رائعة للحياة البرّية كموكب متكامل من فرسان عُراة الصّدور ممتطين خيلهم دون سـروج، يحملون الرّماح والبنادق ويتحركـون كزوبعة عبر الصّحراء. إنها لمحة عن الطّبيعة البشرية في صورتها الخام دون أي تجميل.

رفـع المـراوي عقيرته معلناً عن اسـمه علّ أحداً يتعرّف عليـه، لكن دون جدوى أو

دون أن يعبّره أحد. تمكّنت أنا وإياه من ركوب جمالنا وبعد أن عرف العربان أننا لسنا بالطرائد العادية تمهلوا، ثم أخذ الرُّعاع بتنزيل الأحمال عن بقية الأبل وبنزع السّلاح من بقية رجالي ثم بدأوا بالمراوي ثم بي، لم نقاوم بل أخذنا بالاستجارة برئيس قبيلتهم. سمحوا لنا بذلك فقادونا إلى باير حيث نزلوا بمخيّمهم. وكان الظلام قد حلّ عندما وصلنا هناك، وكانت نار المخيم قد أُشعلت على شكل دائرة حول الآبار ملقيةً بظلال ضوئها الغريب على عرين ذلك اللص الحتمي! أودعنا أحمالنا وإبلنا خارج دائرة النّار وذهبنا للقاء الرّئيس. هل كنا أصدقاء أم أعداء؟

هل سيتم تجريدنا من ممتلكاتنا بمافي ذلك ملابسنا التي علينا، أم سيتم إطلاق سراحنا؟ يعتمد ذلك تماماً على المراوي وعلى قدرته على إقامة علاقة ودّية مع الرّئيس. فكلمته ستكون حكماً، فإما أن يكون الإبهام إلى الأعلى أو يصير الإبهام إلى الأسفل. أذكر أنني سألتُ نفسي في تلك اللحظات فيما إن كنت آبه لما يحدث ورأيتُ أن لا شي أهمّ بالنسبة لي من إنقاذ جلود المَهاة. فأي شيء آخر قابل للتعويض وهذه الجلود أغلى من الذهب. أذكر أنني تساءلت إن كان بإمكاني الوصول إلى خط السّكة الحديديّة، حتى بعد أن يتمّ سلبي من كل شيء حتى من سروالي ولكن مع جلد واحد أو اثنين من جلود المَهاة فقط، والسّكة الحديديّة تبعد حوالي الخمسين ميلاً! أذكر أيضا الحديث الذي جرى تلك الليلة حين سقطتُ نائماً حيث كنت مستلقياً على الأرض.

أظهر لي الفجر المناطق المحيطة بي وأبدى لي خاطفي، أحصيتُ 70 رأساً من الخيل و30 من الأبل، ولا بدّ أن عدد الفرسان لا يقلّ عن المئة، ولكن مع غياب عدد من الكشافة الذين يستطلعون الأرض المحيطة فمن الصّعب تقدير عددهم بالضبط. على أي حال كان ذلك غزواً بالقوة، كانوا قد خرجوا لبعض الوقت للإغارة على المناطق شمالي حمص حيث استولوا على بعض الإبل. ولكن، وغالبا ما يحدث ذلك، فإن الغنائم تذهب في النّهاية إلى الفريق الأقوى منهم. ثم عادوا جنوباً إلى مكان الغزاة المفضل في باير للانتظار.



الكشّافة (السّبُور)

كانـت تلـك العصابـة مختلطـة أغلبهـا مـن الجبليّـة Jabaliya، مؤلفة مـن عناصر مغمورين يسكنون منطقة يصعب الوصول إليها إلى الشّرق من جبل الدّروز، ويعيشون علـى نهـب جيرانهـم. كانوا كمـا هو قائدهـم، تصلهم صلـة رحم بصخر لـذا تجدهم مسـتعدين للتعامـل معنا بودّ، غيـر أن هناك أيضاً عنصـراً قوياً من حلـف عْنِزَة Anaza فـي المخيم، الذين كانوا جميعاً في الخارج من أجل النّهب. كما أنهم أخذوا بمناقشـة حالـي كوني غير مسـلم، فأنا طريـدة عادلة. والآن أخذوا بتقسـيم أمتعتـي بينهم وكان قائدهم دوماً يأمرهـم بالإنصاف. أذهلني طرح أي سؤال عن هذه المسألة وعن قدري.

لقد أُسرت في أرض خارجة عن القانون وأنا جديرٌ بالسّرقة وليس لدي القدرة على الرّد. لقد كنت أعلم قواعد اللعبة قبل البدء باللعب، لقد هُزمت وأنا على اسـتعداد تام لقبول الهزيمة.

اسـتمرّ الترقـب حتـى منتصـف النّهـار، عندما تبيـن أنّ الخلافـات قد سـوّيت بين

العناصر المتنافسة وأنّ المراوي قد فاز. أُخبرت أن بإمكاني المغادرة بسلام ولكن بعد أن يغادروا البئر عند غروب الشّمس. قضيتُ بقية اليوم في استكشاف الجوار. لقد اكتسبت الآبارُ ذاتها الآن شهرة على حساب الدّور الذي لعبته في الثورة العربية[1]، وكمركز ثكنة في الوقت الحاضر للقوة الحدودية لشرقي الأردن.

كان هناك بئران يتم سحب مائهما بالبكرات التي أحصيتها فوجدتها تبلغ العشرين، وأتوقع أن مستوى الماء يبلغ أربعين قدماً تحت سطح الأرض.

بالقرب من ذلك المكان وجدتُ بقايا بناء عظيم يظهر عليه إبداع حرفة البنائين. كانت الحجارة عظيمة الحجم وقد ارتصّ بعضها إلى جانب الآخر بعد أن تمّ استخدام ملاط يبدو بقساوة الحجر نفسه. كانت مساحة ذلك البناء كبيرة. ظننتُ أنني وقعت على آثار خان قديم على طريق التجارة الرّوماني القديم إلى الخليج العربي، وصلة وَصل أخرى بين مصر وبلاد الرّافدين. واعتقدتْ زائرة أخرى لموقع باير ألا وهي غرترود بِل Gertrude Bell أن تلك الآثار هي أطلال قصر كان يجتمع به أمراء بني أمية عندما كانوا يذهبون في رحلات صيدهم في القرن الثامن[2]. بينما يؤرّخ لورَنس هذا الموقع بوقت سابق من أيام الغساسنة Ghassanian ربما من أيام ما قبل الإسلام. غير أنه لا يمكن تحديد تاريخ معيّن لهذه المواقع الصّحراوية القديمة. لا بدّ أن يكون باير Bayir أقدم من كل شيء.

---

(1) راجع في هذه السّلسلة كتاب «ثورة في الصّحراء» لتوماس إدوارد لورَنس (لورَنس العرب)، وكتاب «مغامرات مع لورَنس في جزيرة العرب» للويل توماس.

(2) وهذا هو الصّحيح تماماً (راجع في هذه السّلسلة كتابها «العامر والغامر») فلقد أقام بنو أميّة في بوادي الشام وشمالي جزيرة العرب قصوراً شتويّة بقصد الخروج إلى البادية والصّيد والسّمر، ومنها: المشتى، خربة المَفجَر، الخَرّانة، قصر جبل سيس، قصر الحير الشرقي والغربي، قُصير عَمرة، قصر عَنجَر. وكنت قد طفت بأكثر هذه القصور في رحلات بحث وصيد بالعقد الأخير من القرن العشرين، على خطى الرحّالين، أتنكّب مرة بندقيّة موسبرغ 512K وأحياناً Brno 2، وقد عايشت ما قصدوه من حريّة وهواء طلق وروعة في البادية لا يدركها أبناء المدن أبداً. هذه هي العروبة بمحض جوهرها.

ومؤخـراً، وُجدتْ بعض الأواني الفخارية النَّبطيّـة الملونة في هذا الموقع، وممّا لا شـك فيه أنه سـيتمّ اكتشـاف آثار لحـرف يدوية لاحقاً فـي المكان كما هـو الوضع في مرتفعات طُبيق.

* * *

فـي وقـت لاحق من ذلك اليـوم، قمتُ بزيارة قبـر جدّ قبيلة بني صَخـر (الصّخور) Sukhur. وجـدتُ الضريـح وقد تم تزيينـه بالنُذر النّـادرة والأعطيـات والجوائز التي يمكـن تخيلها. تم ربـط جميع تلك الأعطيـات وتعليقها بخرق وريـش نعام بالإضافة إلـى غطاء رأس وعلب خراطيـش، كما كان هناك حزام عريض فيه خراطيش نحاسـية فارغة، ولاحظتُ وجود زوج من المناظير الميدانية وقطع من نظارات عاديّة بالإضافة إلـى جزء مـن منظار. فأضفت إلى ذلك بعضـاً من خراطيش المانليخَـر Mannlicher المحشـوّة، وأعتقد أنها لا شـك في مكانهـا الذي وضعتها فيه حتـى الآن. أمّا منظاري الميداني فقد أعطيتُه إلى زعيم اللصوص.

* * *

بقينـا حـول البئر حتى حوالي السّـاعة الرّابعة عندما بدأت الكشـافة بالعودة، عندها قامـت العصابـة بأكملها بسـقي خيولهـا وإبلها وأخـذوا يتحضّـرون للتحـرّك. جهّزنا أحمالنـا نحـن أيضـاً، وعند الغَسَـق تحرّكت العصابة شـمالاً واتجهنا غربـاً كما لو أننا نريـد شـقّ طريقنا باتجاه السّـكة الحديدية. كنا لا نزال غير متأكديـن من وجود قوة في عُنـزَة Anaza، نعرف أنـه بإمكاننا الوثوق بكلمة الرّئيس ورجاله، لكن هل بإسـتطاعته السّيطرة على الآخرين بعد هبوط الليل؟ مشينا ببطء حتى غروب الشّمس ولكن ما إن بعُدنا عن الأنظار حتى انطلقنا مسرعين. عبرنا التلال البيضاء إلى غربي البئر، ثم حوّلنا مسارنا لنتسابق إلى الوطن.

ساعة بعد ساعة ونحن نغذّ السّير عبر تلك السّهول المسطحة حيث يصعب الاختباء، في حالة من خوف دائم من مطارِدين محتملين حتى هبط الظلام. عند الشّـفق الأحمر

من غروب الشّمس رأينا العلامة المألوفة، تلول الثلاث أخوات Thulaithukhwat الى الشّـرق منا، ولكن المنظر الأكثر روعة وقد كان هدفنا بعيداً الى الغرب منا، هو سلسلة من الهضاب الزّرقاء البعيدة الجميلة والمريحة للعين بعد تلك الألوان البرونزية للقفار الثقيلة على النّفس.

هنالك كانت جبال مؤاب، وإليها اتجهنا نحثّ الخطى بقدر ما تستطيع إبلنا تحمّله من سرعة قبل أن يلقي علينا الظلام بجناحه، توقفنا لإعداد وجبة على عجل وقد كانت تلك الوجبة الأولى لنا بعد 24 ساعة ثم تابعنا مسيرنا في الليل، شعرتُ بخُطى الإبل وهي تنتقل بنا إلى أرض الحَمَاد السّوداء القاسية ومن ثم إلى ليونة الحجر الجيري في السّهول، فعلمتُ أننا اجتزنا وإلى غير رجعة الأراضي الصّحراوية الحقيقية.

مشينا طوال الليل ولم ننم سوى بضع ساعات بين الأربع والسّت ساعات فقط ثم تابعنا مسيرنا، لم نصل إلى منطقة آمنة بعد فما زال علينا اجتياز منطقة الخطر، إذ أنّ المنطقة الحدودية هي الأخطر. رأى مسعد مرة أخرى بعض الفرسان فصرخ طالباً منظاري الذي لم يكن متوفراً هذه المرة، لنجد أنفسنا مرة أخرى ملاحقين كالأرانب والخطر يداهمنا وأمامنا عصابة أخرى، استنفدت إبلنا قواها ومنازلنا على مرمى النّظر منا. أنخنا جمالنا وأخذ الشّراري بالحبو إلى قمّة تلة صغيرة حيث أمكنه مراقبة تلك العصابة. بقينا مختبئين حتى غابوا وراء الأفق. لقد أخطأتنا العصابة بحوالي الميل! فكان علينا مرة أخرى التحرّك بسرعة على إبلنا العاجزة عن السّرعة إلى أن خارت تماماً، فما كان منا أخيراً إلا الترجّل لدفع الجمال أمامنا من أجل الاستمرار في المسير.

استمرّ الوضع هكذاً حتى المساء، عندما أشرفنا على سلسلة من التلال التي رأينا بعدها ومن خلال عتمة تلك الليلة أعمدة التلغراف الخاصة بالسّكة الحديدية المؤدّية إلى مكّة.

* * *

الفصل السّابع

استرجاع الماضي

لا يرقـى مجمـوع ما توصلنا لمعرفته عن المَهاة العربية فـي العام 1909 إلى الكثير، فعلى الرّغم من اصطياده على مرّ العصور، إما على شـكل بقر وحشـي في الصّحراء أو على شـكل وحيد قرن من خلال الأسـاطير، فإنه اسـتطاع الحفاظ بنجاح على وحدته وعزلته ممّا ربط باسمه العديد من الألغاز، الآن كما كان في الماضي.

لا بـّد أن المَهـاة كانت معروفة من قبل النّبي أيوب وأقرانـه أكثر ممّا هو عليه الحال فـي الوقت الحاضر بالنسـبة لسـكان أرض عـوص land of Uz. لأن المَهـاة في تلك الأيـام كانت مـا تزال تجوب القفار الحدودية بين سـوريا وفلسـطين وبـلاد الرّافدين. هكـذا اختفـى «الرّيم ضخم القامـة» المذكور في العهـد القديم في العصـور المظلمة وأضحى حيواناً أسـطورياً في القرون الوسـطى ولـم نسمع عنه المزيد، حتى دخل أول رحّالة غربي إلى مكّة في أوائل القرن السّادس عشر. ففي عام 1503 استطاع رجل نبيل مـن روما يدعى لودوڤيكو دي ڤارتيما Ludovico di Varthema دخول الحرم المكي ليـرى في باحته اثنين من ظباء المَهاة مقيّدين، فوصفهما بكثير من الحماس كحيوانات أسطورية من الدّرجة الأولى.

يوضح هذا الوصف تماماً كيف تستعيد الأساطير صورتها الحية! يجب أن نبقي في مخيلتنـا أنـه في تلك الأيام، وعلى مدى 300 سـنة، كان النّاس يتوقعون مشـاهدة ذلك الحيوان الأسـطوري بكامل جماله البرّي الوحشي وفقاً للتقاليد. سيتم العثور عليه في

أي لحظة من قبل بعض الرّحالة الذين يجولون في أفريقيا ويتسلقون هضبة التيبت أو يتوغّلون في عمق الرّمال العربية.

في أواخر عام 1820 أُعلن اكتشاف اليونيكورن Unicorn الأسطوري حقيقة، حتى السّير ريتشارد بُرتون Sir Richard Burton الذي قام معلقاً على رحلات ڤارتيما Varthema لم يسخر من حيوانه الأسطوري. كان ڤارتيما Varthema أحد شهود العيان على وجود اليونيكورن Unicorn. كما كانت هناك بيانات صادقة أخرى عن ذلك الوحش صادرة عن أمكنة بعيدة في مجاهل جنوب أفريقيا والتيبت، والحبشة! نحن نعلم الآن أنه لا يوجد مثل هذا الحيوان ذي القرن الوحيد. فقد تمّ عبور آخر منطقة واسعة غير مستكشفة من العالم وهي آخر صحراء رملية وأكبرها ولم يُعثر هناك إلاّ على المَهاة. لا الصّحراء العربية ولا التيبت ولا الحبشة أيضاً قادرة على إنتاج البضاعة. لذا يتعيّن علينا أن نستودع اليونيكورن في الأسطورة، والتحرّك للبحث عن نموذج أوّلي له. بعد خمسة وعشرين سنة من ڤارتيما Varthema جاء أوروبي آخر، هو البرتغالي أنطونيو تينريرو António Tenreiro إلى الصّحراء السّورية ولم يصف فقط بالتفصيل المَهاة العربية بشكل لا لُبس فيه، بل شاهدها هناك بعد أن اختفت بوقت طويل.

هذا أول ما ورد عن ظبي المَهاة في موئلها الطّبيعي مجرّدة عن جميع الأفكار المسبقة لما ينبغي أن يبدو كاليونيكورن. ومن الجدير سرد الظروف التي أدّت إلى الوصول إلى اكتشاف من هذا القبيل.

* * *

يمتاز أنطونيو تينريرو António Tenreiro بكونه أول أوروبي مسجل لدينا قام برحلة برّية جاب فيها الأرض من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي، وكان هذا في عام 1523، في الوقت الذي كانت الهيمنة البرتغالية تسيطر على الخليج العربي وحين كان مضيق هرمز معقلهم. تينريرو Tenreiro بعد مغامراته المعتادة مع الأتراك التي أُسر فيها بتهمة الجاسوسية وتم الإفرج عنه أخيراً، ظهر في طرابلس - سوريا،

وقـام فـي نهاية المطـاف برحلة صحراوية مـن حلب إلـى البَصرة، ومن ثم إلـى هُرمُز وهناك قضى بضع سـنوات. ويبدو أن رئيس القلعة كان بحاجة لإرسال مبعوث خاص وسـرّي إلى ملك البرتغال، فاختار تينريرو لهذا الغرض. لم يكن ليجد أفضل منه، فقد برهن تينريرو عن قوة شكيمته كرحّالة بالإضافة إلى إلمامه باللغتين التركيّة والفارسيّة.

لدى وصوله الى البصرة عام 1528 قادماً من مضيق هُرمُز، وجد أن القافلة كانت قد غـادرت للتو إلى حلب، غير أن ذلك لم يردعه، فاسـتأجر جملين ودليلاً عربياً وانطلق بأقصى سـرعة، 20 سـاعة باليوم، روى فيها إبله أربع مرات فقط خلال 15 أو 16 يوماً ساعياً خلف القافلة.

اسـتطاع في النّهاية اللحاق بالقافلة في «سـوكنا» *Çocana* (عين السّـخنة) بالقرب من تَدمُر، لقد اسـتطاع أن يقطع مسـافة 600 ميل بوقت قياسي. خلال رحلته تلك كان قـد «التقى بالكثير من الأبقار الوحشـية، غير أنه لـم يقابل أي رجل أو امرأة. كان يغطي تلك الأبقار جلد فضّي لمّاع، ولها مؤخرة فرس بيضاء لامعة مثل الحرير. رأسـها أشبه برأس حصان يعلوه قرنان منتصبان».

مـن المؤكد أن ذلـك الوصف أقرب ما يكـون لظبي المَهاة ذي السّـمة الأكثر تميزاً ألا وهـي لونـه الأبيض اللاّمع. أنا بنفسـي أثـرتُ الملاحظة ذاتها عندمـا وقعت عيناي عليه للمرة الأولى. ولكن يبدو أن تينريرو Tenreiro كان أكثر تأثراً بحيوان اليونيكورن الأسـطوري فـي وصفه لقرون المَهاة فقد كان ينظر إلى مـا يرغب أن يكون عليه الحال من وجهة نظره.

* * *

في القرنين السّـادس عشر والسّابع عشر كان العالم الغربي في أوج تطلعه للتوسّع. كانت كل العيون الغربية مركزة على الشّـرق تحثها الرّغبة إلى التجارة هناك. لذا فإنك تجـد سلسـلة مـن المغامريـن الباحثين عـن المشـرق الجديـد، الرّائع والذهبـي. كان البرتغاليون هم الأوائل في هذا المضمار، تلاهم الهولنديون ثم جاء الانكليز في سباق

بينهم للفوز بالجائزة ذاتها. ولقد انطلقوا بحراً في جولة حول رأس الرّجاء الصّالح أو عن طريق البحر الأحمر. ووصلوا براً عبر الصّحراء السّورية وحتى عن الطّريق روسيا.

كانوا رجالاً أقوياء بُدناء في تلك الأيام، قاموا برحلات مذهلة ولم يذكروا إلاّ القليل عنها. واندفع جميع أصناف البشر في ذلك اللبحث المحموم عن الذهب، فكان هناك المتمرّدون السّاعون لحسابهم الخاص، والمبعوثون من قبل الباباوات والأباطرة، وهناك الجواسيس والأطباء والكهنة، بالإضافة إلى التجّار الحقيقيين. كان هناك تجار المجوهرات اليهود يشترون بضائع رخيصة من أوروبا ويقومون ببيعها للأباطرة الفُرس والملوك الهنود محققين الأرباح الطّائلة، كما كان هناك مبعوثون من قبل الهيئات الدّينية.

ومن بين هؤلاء الأخيرين كان ڤينتشنزو ماريّا Vincenzo Maria الرّاهب الكرملي Carmelite Father الذي أُرسل في مهمة الى الهند عام 1656. كان رحّالة شديد الملاحظة، وخلال إقامته الوجيزة في مسقط حظى بمشاهدة أول مَهاة في ذلك المكان. «الجبال» كما يقول «يكثر فيها الصّيد وخاصة الخنازير البرية، الحجل وأنثى الغزال التي لا يأبه لأهميتها السّكان المحليون. لذا تراهم عندما يقومون بصيدها يبيعونها للأجانب بسعر زهيد.

لفتت حيوانات ضخمة انتباهي بشكل خاص في هذا المكان، أقرب ما تكون من حيث ضخامتها إلى الأيائل من حيث شكل الرّأس والجسم، غير أنها أنقى بياضاً، يكسو جسمها فروٌ حريري ونظيف بحيث لن تجد أكثر منه بهاءً. وجميع تلك الحيوانات تمتاز بقرنين يرتفعان فوق رأسها بحوالي الذراعين إلى ثلاثة أذرع، سميكة القاعدة يكاد محيطها يشبه التاج بينما يستدقّ رأسه من الأعلى بشكل حاد، وهي مستقيمة، ملساء وسوداء اللون فيها عُقد منتظمة محلزنة كاللّولب، كما سبق أن أشرت في مكان آخر.

أنا شخصياً أعتقد أن هذه المخلوقات هي ذاتها التي قام بعض الكتّاب بوصفها على أنها اليونيكورن، وبعضها وفق ما يقال يمكن العثور عليه في الأيام السّالفة بمكّة

المكرمة، ولكنها في واقع الأمر ليست يونيكورن. حاول الإنكليز شراء ظبيين اثنين غير أنهم لم يتفقوا على السّعر بشكل نهائي ممّا دعاهم لترك الظبيين على أن يعودوا لأخذهما عند رجوعهم. أما الرّعاة الذين جلبوا الظبيين فقد كانوا متيني البنية، قساة الهيئة واللباس يشبهون إلى حدّ بعيد وصف أهالي سوقطرة Socotrans بشعرهم الخشن المنتصب ولونهم الدّاكن المحروق وعيونهم المخيفة.

إنّ العديد من التجار والمغامرين الذين كانوا يجوبون الصّحارى السّورية جيئة وذهاباً عبر طريقها التجاري عندما كان في أوجه واصلاً بين الشّرق والغرب، كانوا في أغلب الأحيان يسيرون على شكل قوافل، إلاّ أن القوافل لا تعطي للصّيد الكثير من اهتمامها، وعلى الرّغم من ذلك ترى العديد من المسافرين يذكرون الحُمُر الوحشية[1] التي ما زالت تجوب منطقة نهر الفُرات على ضفتيه كلتيهما، غير أن أحداً لم يذكر المَهاة.

في وقت لاحق هُجر هذا الطّريق التجاري ولم يعد صالحاً سوى حتى منتصف القرن الثامن عشر، عندما استُخدم بشكل رئيسي كطريق مختصر من وإلى الهند من قبل الإنكليز العاملين في شركة الهند الشّرقية. كانت الأوضاع قد تغيّرت في تلك الآونة. ولدينا العديد من الأدلّة على عبور الصّحراء بين البَصرة وحلب، وبين بغداد وحلب وبالتأكيد بين بغداد ودمشق، والتي من خلالها نعرف بشكل جيد الحيوانات السّائدة في الصّحراء شمال سوريا خلال النّصف الثاني من القرن الثامن عشر. على أيّ

(1) كتب المؤلف: كان الحمار الوحشي السّوري يجوب مساحة واسعة من الحماد السّوري بين القرنين السّادس عشر والسّابع عشر. رأى جون إيلدرد حمراً وحشية بين هيت وحلب عام 1584. بينما شاهد كارترايت عام 1603 «قطعاناً من الحيوانات البرية الشّبيه بالحمر الوحشية والتي تمتاز بلونها الأبيض التام» في عانة التي لا تبعد كثيراً عن نهر الفرات. وبعد عدة سنوات رأى تيكسيرا العديد من القطعان في منطقة أور، بينما وصف ديلا ڤالّه حمار وحش أسيراً رآه في رواق منزل الباشا في البصرة عام 1625 «إنه يشبه الحمار العادي غير أن لونه كان أكثر لمعاناً ولديه خطّ من الشّعر الأبيض يمرّ من رأسه إلى ذيله كشعر الفرس، وفي عدوه ووثبه تجده أرشق من الحمار العادي».

حال نعلم أن المَهاة والحمار الوحشـي كانا قد اختفيا من الضفّة الجنوبية لنهر الفُرات وتراجعا إلى الدّاخل. لم يرد أي ذكر لهما ولكن تم ذكر النَّعامة!

يبدو أن الحمار الوحشـي كان قد اختفى من بادية الشّـام خلال القرن الثامن عشـر وانقرض في شـمال صحراء جزيرة العرب خلال القرن التاسـع عشر. ذكر بوركهارت Burckhardt أنه مازال هناك العديد منها في منطقة الشّـرارات، وذلك في العقد الأول مـن القرن الماضي. أما ملاذها الأخير فقد تبيّـن أنه كان في بلاد البراكين إلى الجنوب الشّـرقي مـن جبـل الدّروز. قال موزيـل Musil «لقد سـمعت أنه وفي قرابـة المئة عام السّـابقة كانـت الحُمُر الوحشـية تجوب منخفض السّـرحان، حيث كانـت وفرة المياه والمراعـي الخصبة في البيئـة البركانية وكذلك وعورة المنطقـة توفّر الأماكن الأفضل للاختباء. وقد قيل إنّ آخر حمار وحشـي تم اصطياده بالقرب من آبار الغَمر wells of Al Ghamr التي تبعد نحو 34 ميلاً إلى الجنوب الشّرقي من بحيرة الأزرق.



النّعام العربي

تصوير الميجور ر ي تشيزمان

يدلّ حمارٌ طاعن في السّن على أخبار المطاردات التي تعرّض لها جدّه بالقرب من منخفض السّـرحان، لكن ما إن اسـتخدمت الأسلحة النّارية من قبل البدو حتى أخذت أعداد الحُمُر الوحشية بالتناقص شيئاً فشيئاً. ما تزال الحُمُر الوحشية متواجدة في منطقة الجزيـرة بين نهر الفُرات ونهر دجلة إلى حيث أتى الصّلُبَة the Sleyb بحُمرهم العادية مـن أجل النّـزو[1]. ويؤكـد غوارمانـي Guarmani هذه الرّواية الشـفهيّة فـي التهجين بيـن الحُمُر الأهليـة والحُمُر الوحشـية، بالإضافة إلى حقيقة أمر انقـراض الأخيرة إلى الجنوب من نهر الفُرات، فيقول: «عندما يحلّ الشّـتاء، يعبر العديد من الصّلُبَة Saleib نهـر الفُرات لاصطياد الحمار الوحشـي في بلاد الرّافدين، ولا يوجـد الكثير منها الآن (1865) في الحَماد. وكانوا يأسرون بعضاً منها ويأخذونها معهم للتوالد مع حُمُرهم».

* * *

شهدت نهاية القرن الثامن عشر نهاية حركة القوافل بين حلب والخليج العربي عبر ما كان يُدعى بطريق الصّحراء الكبرى. فما كان من صحراء شمالي سوريا إلا أن وقعت في غياهب النّسيان للمئة عام التي تلتها، حيث لم يقم أيّ رحالة بقصدها، ونجد بعض راسـمي الخرائط في القرن العشرين يعودون إلى القرن الثامن عشر من أجل الحصول على معلومات عن المنطقة. لقد تحوّل الاهتمام بأسره إلى الجنوب.

شـهد أوائل القرن التاسـع عشـر الدّفعة الأولى من الرّحّالين العازمين على اختراق شبه جزيرة العرب ودخول ذلك الجزء من العالم، والقيام برحلات برية واسعة أو الوصول إلى المدينة المحرمة مكّة المكرمة. كان زيتسِن Seetzen من أوائل أولئك المغامرون في القرن التاسـع عشر، وهو روسـي[2] تلقى تعليمه في ألمانيا بهدف السّـفر والبحث في آسيا. ليس معلومـاً إذا كان قـد تلقّـى منحة من الإمبراطور الرّوسـي لقاء تلك الرّحلة، ولكن أشـيع أن

---

(1) كتب المؤلف: ومن المؤكد تقريباً أنها قد انقرضت من آخر ملاذ لها إلى الشّمال من نهر الفرات وجبل سنجار ولم تشاهد منذ عام 1927. وفيما إذا كان هناك بعض منها في جنوب جزيرة العرب في أراضي عُمان النائية أم لا فهو أمرٌ مشكوك فيه.

(2) لم يكن زيتسِن روسياً على الإطلاق بل هو ألماني، لكنه قام برحلته لحساب روسيا القيصريّة.

هدفه النّهائي كان الوصول إلى تلك الخانات الغامضة في آسيا الوسطى، التي كانت طلائع التقدّم الرّوسي الوشيك على آسيا الوسطى قد توجّهت إلى حدودها الصّحراوية.

* * *

على أيّة حال، كان زيتسِن Seetzen مستعرباً جيداً، بالإضافة إلى كونه عالم نبات مشهور حتى قبل ان يطأ أراضي شبه جزيرة العرب. لعدة سنوات جاب زيتسِن حدود المنطقة وأتقن لغة وعادات المنطقة في حلب، ودمشق، والقدس والقاهرة. وخلال إقامته في القدس عام 1808 قام بمبادرة أرسل فيها مستخدماً سورياً يعمل لديه ليستطلع الأرض الشّرقية. استطاع ذلك السّوري واسمه يوسف المالكي الوصول إلى الجوف وإلى النّفود الكبرى. ومن غير المؤكّد أن يكون قد عبر القفار ليصل إلى جبل شمَّر، ولكن من المؤكد أنه ذهب إلى ما بعد الجوف، لأنّ أدلاّئه أوصلوه إلى قِفار واسعة مليئة بالكثبان تُدعى النّفود حيث يجول البقر الوحشي الأبيض اللون.

كان ذلك أول تقرير يؤكد وجود المَهاة في الصّحراء الشّمالية[1]. ولا قيمة لتاريخ زيتسِن Seetzen اللاحق بالنسبة لنا، فيما يخص المَهاة - غير أنه ذو أهمية كبيرة في إظهار الخطر الذي يتعرّض له الرّحّالون لدى توغّلهم في جزيرة العرب. نجح زيتسِن Seetzen في دخول مكّة المكرمة، وهو الأوروبي السّادس الذي استطاع الوصول إلى هناك والبقاء على قيد الحياة. ثم تابع إلى اليمن، وقُتل على الفور تقريباً لدى خروجه من المُخا Mukha أثناء محاولته الوصول إلى مَسْقط براً. ولو أنه نجح في ذلك المشروع لاستطعنا التوصّل دون شك إلى مزيد من المعلومات عن المَهاة في الجزء الجنوبي من جزيرة العرب.

* * *

(1) كتب المؤلف: تأكيداً للتقرير، كان قد تم استلامه بعد بضعة سنوات من قبل بوركهارت Burckhardt - ذلك الشّاهد الأكثر مصداقية على كل ما رأى وفرض رقابة على المعلومات الأصلية التي جاء بها. وفي ملحق كتابه «رحلات إلى سوريا وإلى الأراضي المقدسة» يصف الطّريق من بصرى إلى جبل شمَّر، وبالمصادفة تجده يلمح إلى وفرة الأبقار الوحشية في النّفود.

ثــم في أوائل القرن الماضي جرت محاولة أخـرى للتوصل إلى طريق مختصر إلى الهند من جانب قوة غربيّة جديدة (بريطانيا العظمى) كانت تهيمن على الشّـرق آنذاك. ومـن جرّاء تلـك المحاولات أبصرت حملات اكتشـاف وادي الفُـرات النّور وجلبت إلـى الصّحـراء السّـورية أفضل رحّاليها، فـكان من بينهـم الرّحالة الكابتـن مورزبي[1] Moresby، وهو ضابط شاب في البحريّة الهندية، قال ويلستِد Wellsted عنه: «استقال طواعية من الخدمة في وقت مبكر، بسـن 19 سـنة، وكرّس نفسـه لمدة ثلاث سـنوات للتجوال عبر أجزاء مختلفة من الشّرق».

تُشـكّل رحـلات مورزبـي Moresby الجـزء الأكبـر من حجـم مجلدات ويلسـتِد Wellsted المسـمّاة[2]: «رحـلات إلى عاصمـة الخلفاء». وعلى الرّغم من سـرد تلك الرّحلات بصيغة راويها الذي ظهر اسمه منفرداً «ويلستِد» Wellsted على الغلاف، غير أنها كانت تصف الرّحلات التي قام بها الملازم مورزبي Moresby، فقد كان ويلسـتِد نفسـه في تلك الآونة مبعوثاً على متن سـفينة پالينـوروس Palinurus للقيام في بعض الأبحـاث فـي البحر الأحمر. ويبـدو أن مورزبي Moresby كان قد قـام ببعض المهام المتنقلـة ربمـا من أجل كتابـة تقرير عن التواصل البـري بين البحر الأبيض المتوسـط والخليـج العربـي، من أجـل إيجاد الإمكانات لفتـح مثل هذا الطّريق بـراً أو عن طريق النّهر، الأمر الذي كان يحظى باهتمام الحكومة الهندية بشكل جدي.

تزامنت فترة رحلة مورزبي Moresby مع اكتشاف تشيزني Chesney لبلاد الرّافدين والشّرق الأدنى لأول مرة، وذلك قبل تعيينه في قيادة الرّحلة الاستكشافية عام 1835-

(1) يكتب كاروثرز اسمه بالغلط: أورمزبي Ormsby والصواب كما أثبتنا. واسمه جون مورزبي (1830-1922 م) ضابط بحريّة بريطاني شهير استكشف سواحل غينيا الجديدة، وألّف عن ذلك كتاباً.

(2) عنوان كتابه بالإنكليزية في جزئين:

Travels to the City of Caliphs, London, 1840.

وله كتاب آخر هو: *Travels in Arabia*، نُشر بجزئين عام 1838 م.

1837. وشـهد عام 1831[1] عبور مورزبي الصّحراء السّورية من بغداد إلى دمشق، في حين كان تشيزني Chesney يرتحل من دمشق الى بغداد. تابع مورزبي بحثه ليصل إلى طرابلس، وقبرص وحلب، ثم العودة إلـى بغداد وبحوزته عدة خرائـط بالإضافة إلى تفاصيل عن رحلاته المختلفة.

* * *

لنعُـد إلـى مطاردة المَهاة! بينما كان باستطاعة مورزبي إخبارنا شـيئاً ما عن التاريخ الطّبيعي للصّحراء السّورية في ذلك التاريخ.

لقد لاحظ اختفاء الحُمُر الوحشـية بينما كانت تُرى مجموعات من النَّعام في بعض الأحيـان. لا يوجـد ذِكر فعلي للمَهـاة بينما تحدّث عن الغـزلان والوعول، ولكن لدى ذكرها كنت أسـمح للشـك بمداخلتي علـى أنها المَهـاة. لذلك فمن الـوارد أن المَهاة كانـت لا تـزال تجول إلى ذلك البُعد شـمالاً أي بيـن خطي العرض 33̊ و34̊ مسـتقبلة تلك الوديان كسـهول حـوران الغنيّة بالمرعى في فصول معيّنـة. كان مورزبي ملاحظاً جيـداً، فقد أتـى على ذكر قبيلة الصّلُبَة Suluba المختصـة بالصّيد، وأعطى صورة حيّة لفريقه الذي شـارك فـي إحدى تلك المطـاردات للغزال والقطا. الأولـى كانت بمثابة المَنّ (المَنّ والسَّلوى) بالنسبة لنا! وكان باسـتطاعتنا أسـر صغارهـا حديثي الولادة، بينما كانت الأخريات سـريعة جداً بالنسـبة لنا. كان بإمكاننا الإمساك بالمئات من تلك المخلوقـات الضعيفـة - غير أنّ عشـرة منها كانت حصيلتنا. ذبحنا تلـك الطّرائد وقمنا بتعليقها على الإبل. تبعتنا أمهاتها بأسـى بالغ، وسارت بالقرب منا لعدة أميال غير آبهة بسلامتها لمجرّد أن تلقي نظرة أخيرة على أولادها الصّرعى».

(1) كتب المؤلف: في «رحلات إلى عاصمة الخلفاء» يرد التاريخ أبريل عام 1833، وهو خطأ طباعي واضح وينبغي أن يكون 1831، ففي تقرير مورزبي الخاص المكتوب من بيروت في يونيو عام 1831، إلى جمعية بومباي الجغرافية، ورد التاريخ أبريل 1831. كما أن تاريخ عودته إلى بومباي أيضاً كان غير صحيح وفق حساب ويلستِد Wellsted. انظر «رحلات إلى عاصمة الخلفاء»، المجلد. 1، ص 303، والمجلد الثاني، ص 108، ومحاضر جمعية بومباي الجغرافية أيضاً، فبراير عام 1839.

كانـت طيور القطـا بالآلاف - هناك أعداد كبيرة من الطّيـور البحريّة في أجزاء معينة مـن العالم، ولكني لم أشـهد مثل تلك الآلاف مـن ذوات الأجنحة كالتي اجتمعت في هـذه المنطقة. لا تكاد تخلو منطقة لا تتعـدّى البضعة أمتار من أعداد هائلة منها، تحوم حولنا رافعة أصواتها بالصّفير».

يكاد ويلستِد Wellsted لا يذكر أيّة معلومات عن هذا الموضوع هنا، ومعلوماتة عن المَهاة تكاد تكون سـلبيّة الطّابع. قام ويلستِد Wellsted بأشياء هامّة في جزيرة العرب، بالإضافـة إلى الدّور الذي لعبه في مسـح الشّـواطئ. أما أفضل أعمالـه في علوم الآثار فكانت اكتشـاف موقـع نقب الحَجَـر Nakab al Hajar في حضرمـوت برفقة كرَتِندِن Cruttenden، وهـو «أول دليـل حاسـم على الآثـار الحِمْيَريـة Himyaritic منذ تلك الأيـام العظيمـة للحضارة العربية»، هذا وقد قدم الكثيـر أيضاً للجغرافية عندما قام عام 1836 باستكشـاف دقيق لعُمان «ذلك البلد المجهول كلية بالنسبة للأوروبيين». ولكن على الرّغم من تجواله الواسع في عُمان، وتسجيل وصوله إلى نقطة هي أقرب ما تكون إلـى حافة الرّمال الصّحراوية الجنوبية العظمى، فإنه تركها لمايلز[1] Miles، الذي جاء بعد خمسـين سـنة، ليدوّن تواجـد المَهاة في تلك الرّقعـة. كان الرّحّالة التالي هو ڤالين Wallin، الذي توغّل أكثر في قلب جزيرة العرب حتى بلغ الجوف والنّفود الكبرى في عام 1845، ومنه تأكّدنا من قصة جاسوس زيتسِن Seetzen السّوري.

ويقـول: «يجـري صيـد النَّعـام مـن قبـل قبيلـة الصّلُبَـة Suluba وقبيلة الشّـرارات Sharrarat فـي صحراء الدَّهناء Dahna (النّفود)، ولا سـيّما في محيط الجوف وتلك القفار الرّملية الشّاسـعة أيضاً، بالإضافة إلى الأرانب البريـة، والغزلان والأيائل». كان ڤاليـن Wallin أول من اسـتطاع عبور النّفود وكشـف كنهها، كان ڤالين مسـتعرباً جيداً

(1) هو الكولونيل البريطاني ساموييل باريت مايلز Col. Samuel Barrett Miles (1838-1913)، قام بأول رحلة له إلى جزيرة العرب عام 1866، عُيّن بين عامي 1872-1886 ممثلاً سياسياً وقنصلاً في مسقط ثم في بغداد وزنجبار، وفي عام 1887 انتهت خدمته في الخليج وتوجّه إلى الهند. له كتاب شهير عن بلدان الخليج العربي وقبائله:

S. B. Miles: *The Countries and Tribes of the Arab Gulf*, London 1919.

ومراقباً عن كثب، وليس لدي أي شك أن ظبيه كان مَهاة.

لـم يأتِ ڤالين، كما كنت أعتقد في كثيـر من الأحيان، للحصول على تقدير كرحّالة فـي جزيرة العرب. لقد أنصفـة هوغارث Hogarth حقاً بقوله[1]: «كان واحداً من أقدر الأوروبيين الذيـن وطئت أقدامهـم جزيرة العرب»، ولكن قلّة هم مـن كانوا على علم بكُنهِ أسـفاره أو قيمة ملاحظاته. وكان أول الأوروپيين الذين اسـتطاعوا الحجّ إلى مكّة والمدينة المنوّرة بصحبة قافلة عجميّة، وكان أول من رأى ووصف جبل شمَّر بشطرية البـدوي والرّيفـي، كما كان أول مـن قام بزيارة تيمـاء القديمة، وبالتأكيـد أول من عبر شمال جزيرة العرب من البحر الأحمر إلى العراق.

كان هنـاك سـواه من الرّحالـة الذين لحقوا به والذيـن أخبرونا بالمزيـد عن المَهاة، ولكن لا غرو أنه قبل وصولهم إلى جزيرة العرب كان قد وصل وللمرة الأولى إلى لندن زوج من المَهاة العربية الأسـيرة! قدّمها الكاپتن جون شـيفرد Capt. John Shepherd من الحامية الهندية عام 1857 إلى إدارة حديقة حيوان لندن بعد أن كان قد تم إرسالهما إليه من بومباي[2]. قضت الأنثى خلال نقلها على الطّريق، بينما وصل الذكر إلى قفصه الذهبـي في حديقـة حيوانات لندن حيـاً، غير أنه لم يمضِ وقت طويـل حتى قضى هو الآخر لينضمّ في نهاية المطاف إلى المجموعة المحنّطة في المتحف البريطاني.

لـدى وصوله الى حديقة حيوانات لندن، تـم تصنيفه على أنه ظبي مَهاة في منتصف العمـر، والظبـي الأفريقي Gemsbuck هـو أكثر الأصناف المألوفـه من ذلك الجنس. ولكن ما إن وصل إلى المتحف البريطاني حتى صنّفه الدّكتور جون إدوارد غراي Dr. John Edward Gray كصنـف جديـد ودعـاه: «مها بياتريكـس» *Oryx Beatrix* على

(1) انظر كتابه: «ارتياد جزيرة العرب» في سلسلتنا هذه «روّاد المشرق العربي».

(2) كتب المؤلف: كان جون شيفرد John Shepherd رائداً في الحامية الهندية قبل أن يصبح مديراً لشركة الهند الشّرقية. شغل منصب المدير بين عامي 1835 إلى 1858، ورئيس مجلس إدارة في 1844–1855 و1850–1852 وأصبح عضواً في مجلس الهند (أمين مجلس الدول) من سبتمبر عام 1858 إلى وفاته في يناير 1859. ودونما شك كان إرسال المَهاة إليه من قبل بعض ممثلي الشّركة في بومباي كحيوان نادر وجميل، وهدية مناسبة لمدير عظيم.

اسم صاحبة السّمو الملكي الأميرة بياتريس Beatrice. وقام جوزيف وولف Joseph Wolf برسم لوحة ملوّنة ممتازة له. وهكذا تمّ وصف المَهاة العربيّة بدقة، على الرّغم من معرفة علماء الحيوان له وتسميته قبل وقت طويل. في الواقع كان پيتر سيمون پالاس[1] Peter Simon Pallas قد سجّل ما وصفه بـ 'singulare cornu Gazella indicae' في عام 1769، وكان ذلك باعتقادي المَهاة العربيّة.

لقد ميّز عالم الطّبيعة البارز هذا في عام 1777 ثلاثة من أربعة أصناف معروفة من المَهاة، وهي: ظبي المَهاة، وهو الظبي الجنوب أفريقي Gemsbuck، الوعل وهو Antelope gazelle، والغزال وهو Algazel قاتم اللون في السّودان، وظبي لوكوريكس *leucoryx* وهو المَهاة العربية بيضاء اللون.

وقام پينانت Pennant في عام 1781 برسم صورة المَهاة العربية في ملخصه المسمّى Quardrupeds ناسخاً إياها من صور وجدها في المتحف البريطاني. هذه الصّورة وهي الآن في مجموعة سلون Sloane Collection ذات أهمية كونها قد رُسمت لحيوانات حيّة أسيرة في حديقة المتع الخاصة بالشاه سلطان حسين بالقرب من أصفهان. وعلى الرّغم من وجود هذا الصّنف الآن في المجموعة الوطنية، فإنّ بيئتها الأصلية ما زالت لغزاً. وكان پالاس Pallas قد اعتبرها من جزيرة العرب أصلاً وأحياناً من ليبيا، بينما أرجعها پينانت Pennant إلى جزيرة البحرين في الخليج العربي، ويُعتقد أنها كانت تجول بين بلاد فارس والهند (إلى أيّ مكان تم أسر تلك الحيوانات فيه).

حتى في وصف غراي Gray الأصلي في كتابه «إجراءات إدارة حديقة الحيوان في لندن» (الجزء الخامس والعشرون عام 1857 الصّفحة 8-157) ورد أن الموئل الأصلي هو بومباي، ولكن ربما كانت قد جُلبت من شواطئ البحر الأحمر، فلعلّ شواطئ البحر الأحمر كانت هي منشأ تلك الحيوانات الأسيرة، وبذلك يكون ميناء

---

(1) پيتر سيمون پالاس (1741-1811) عالم طبيعيّات وجغرافي ألماني شهير عمل في روسيا، ويعود إليه الفضل في تصنيف العديد من فصائل الحيوان والنّبات، وكثير منها يحمل اسمه حتى اليوم.

جـدّة ربما هو مرفأ شـحنها، غير أني أعتقد أن ميناء عُمـان أو الخليج العربي كان ميناء مغادرتهـا، وأرى في «كاتالوغ الثدييـات ذوات الحافر في المتحف البريطاني (التاريخ الطّبيعي)» بأن «الخليج العربي كان قد اسـتبدل بالبحر الأحمر». اجتلي سـرّ موئله بعد بضع سـنوات، فقـد وصلت عيّنة حيّة أخرى إلى إدارة حديقـة الحيوان في عام 1872، وقد كان النّاجي الوحيد من الحيوانات التي تم جلبها بناءً على طلب من عالم الحيوان الذائـع الصّيـت ج. غويـن جيفريـز J. Gwyn Jeffreys، F.R.S.، F.Z.C، مـن قبـل الكولونيل بيلي Pelly المقيم البريطاني في بوشهر على ساحل الخليج العربي.

وقد قال البروفيسـور نيوتـون Professor Newton في اجتماعٍ للإدارة في السّـابع مـن مايو عن «جلب هذا الحيوان» أنـه ذو أهمية علمية كبيرة جداً، لأنه يؤكد الأجناس التي صنفها الدّكتور غراي Dr. Gray بدراسـة قام بها على ظبي كان يعيش في حدائق الإدارة، وكذلك يشـير في تلك الدّراسـة إلى موطن هذا الظبي بعد أن كان موضع شك من قبل. يبدو أن مثالنا الحالي يتوافق بكل تفاصيله مع وصف السّيد وولف Mr. Wolf للعينـة السّـابقة وكذلك في جميع الفروق التي كان قد أشـار إليهـا الدّكتور غراي Dr. Gray في وصفه: «أنا لا أجمع المعلومات الخاصة بموطنها الحقيقي»، فقد كان يعتقد أن موطن المَهاة العربية، إن لـم تكن كما يعتقد الآن من بوشهر، بطبيعة الحال قريبة من بومباي.

ليس هناك من شـك في موطن مَهاة بيلي Pelly. وكان قد تم بالفعل منح بيلي أنثى مَهاة تم أسـرها وتقديمها إليه من قبل إمام مسـقط، وبدوره أرسـل بها الحدائق النّباتية في بونا عام 1864. أثار ذلك الأمر الحماسـة لدى الرّائد سـنت جون الذي كان يرافق بيلي في مسـقط، والذي في نهاية المطاف أرسل مذكرة، عن المكان الذي تتواجد فيها المَهاة العربية، إلى تسـجيلات إدارة حديقة الحيوان في عام 1874. وأخبرنا أن المَهاة الأسـيرة التـي أرسـلت إلى بيلـي Pelly كان قد تـم جلبها من الجانـب الآخر للجبال العاليـة إلى الجنوب من مسـقط، التي لا يمكن الوصول إليها علـى ظهر الهجن ركوباً في أسبوع. كما أنها، على ما أعتقد، لم تذكر من قبل أيّ من الرّحالين إلى وسط جزيرة

العـرب، وتنحصر علـى الأرجح في مرتفعات جنوب شـرق جزيرة العـرب الخصبة، وهي المنطقة الأغنى والأقل شهرة في ذلك المكان.

قام سـنت جون بزيارة الخليج العربي من جديد عام 1869 وتوسّل إلى بيلي Pelly الذي كان في بوشـهر آنذاك، للحصول على مزيد من العينات من مسـقط. اسـتطاع في العـام التالي الحصول على زوج من المَهاة، التي كان ذَكَرُها ذو القرون غير الكاملة قد قُتل بطريق الخطأ، وأُرسلت الأنثى إلى إنكلترا.

ومن الغريب أن تجد أن بيلي Pelly، الذي كان في وسط جزيرة العرب، تعيّن عليه أن يذهـب إلى مَسْـقط من أجل ظبيه الأسـير. لا يمكنني الجزم فيمـا إذا كان ذلك نابعاً من الطّاقة أو حسّ المبادرة لدى البريطانيين المقيمين أو بسبب كثرة المَهاة، لا أستطيع القـول، وقد قامت عُمان بتزويدنا بزوجيـن آخرين من إناث المَهاة تم جلبهما من وراء الصّحـراء الكبرى خلـف المنطقة الجبلية فـي عُمان من قبل الكولونيـل س. ب مايلز Lieut. Col. S. B. Miles – القنصـل البريطانـي في مسـقط، وتـم تقديمها إلى إدارة حديقة الحيوان من قبل اللورد ليلفورد Lord Lilford في عام 1881.

كمـا تم اسـتلام نمـوذج ثالث من قبـل الإدارة في يوليـو 1878 من قبـل القائد بُرْك Commander Burke مـن «أركـوت – Arcot» الذي كان قد حصل عليه في جدّة من صديق له، وهو بدوره كان تلقاه كهدية من شـريف مكّة. وقيل إنّ ذلك الظبي تمّ أسـره أصـلاً بالقـرب من منطقـة الطّائف، ولكن لم نأخـذ ذلك على محمل الجـدّ، لمعرفتنا بعدم وجود المَهاة في أي مكان بالقرب من تلك المدينة المرتفعة.

بيـن عامـي 1857 و1878 عندمـا وصلـت تلـك العينات إلـى العالـم العلمي، كان هنـاك بنـدان آخران مثيـران للاهتمـام. أولهما، بالغريـف Palgrave، الـذي لا يحتاج صيته كرحّالة عربي وقدرته على سـبك رواياتـه إلى الكثير من التعليق، وكان قد وصل إلـى زلفـي Zilfi عـام 1862. وقـد دوّن هنا كيف «اسـتطاعت عصبة من قبيلـة الصّلُبَة (Suluba) خفـض خيامهـم قليـلاً، بعـد أن أتـوا للتو من رحلـة صيد في مـكان ما في الشّمال لبيع طرائدهم».

«أرسل محافظ زلفي Zilfi بعضاً من رجاله إلى الصّلُبَة وابتاع منهم غزالاً جميلاً... وأكـد الصّلُبَـة انتماء ذلك الغـزال إلى صنف غريب من الأجناس التي لا تشـرب الماء أبـداً، والتـي تمتاز بلحـم زكيّ النّكهة». شـكك پالغريـف بصحة تلـك الرّواية، ولكن تبيـن لاحقـاً صدق مقالة الصّلُبَة، فلم يكن غزال پالغريف سـوى مَهاة لا تشـرب الماء أبـداً، وقد «فاقـت جودة لحم ذلك الظبي بقيـة لحوم الظبـاء[1]». كان اهتمام پالغريف Palgrave الكبيـر ينصب على المكان الذي وجدت فيه تلك المَهاة. وزلفي Zilfi هي واحة كبيرة تقع على حدود القَصيم Qasim وسُـدير Sudair شـمال شـرقي نجد على الطّريق الشّرقي بين بريدة والرّياض.

ربمـا أتى الصّلُبَة Suluba مسـلحين بآلـة القتل من ذلك البعـد، ولا يمكن أي يأتوا من مكان أبعد من ذلك الحزام الرّملي المسـمى الدَّهناء والذي يصل بين شمال النّفود والجـزء الجنوبـي من الصّحـراء، والذي يحيـط بزلفي من الجهة الشّـمالية والشّـرقية لمسـافة تصل إلى خمسـين ميلاً تقريباً. ليس هناك من سـبب يحول دون وجود المَهاة بوفرة في تلك الأيام في الدَّهناء Dahana، ما لم تكن القفار ليست كبيرة جداً أوليست عميقة جداً بحيث توفر للمهاة الحماية التي تؤمنها لها النّفود الكبرى أو الرّبع الخالي، وبالتالي من منطقة يسهل طردها منها[2].

كان ذلك هو الذّكر الوحيد للمَهاة القادمة من منطقة بعيدة من منطقتين صحراويتين عظيمتين مع وجود استثنائين اثنين.

---

(1) كتب المؤلف: ومع ذلك سيقول البعض إن القصة بأكملها، بما في ذلك الحيوانات التي لا تشرب الماء، والصّيادون الصّلُبَة وحتى زلفي بحد ذاتها ليست سوى نتاج مخيلة وقريحة خصبة لپالغريف.

(2) كتب المؤلف: جسّدت الحكومة مؤخراً تلك النظرية. فقد أخبر فيلبي الصّياد الصّلَيبي التابع له، بأنه خلال عبوره للدَّهناء على درب آخذ من زلفي إلى الكويت، كانت تلك الحيوانات متوفرة من زمن طويل (المَهاة والنَّعام) وبكثرة في تلك القفار الرّملية، ولكن مع قدوم العرب تشتّت المَها والنَّعام فأخذت بالهجرة شمالاً وجنوباً حيث يتم إيجادها الآن في القفار الرّملية العظمى. ولقد ترافق تنامي الحركة المرورية على طول ذلك الطّريق منذ أن أصبحت الكويت ميناءً مع قدوم العرب إلى المكان.

لقد ذهب الكولونيل هاميلتون Col. R. E. A Hamilton الذي كان يشغل آنذاك منصب الممثل السّياسي في الكويت إلى العاصمة الوهابية[1] عام 1917، ومن هناك توجه عبر زلفي وبُريدة. ويروي لي أنه سمع عن المَهاة عند عبوره الدَّهناء Dahana في رحلته تلك، في حين تم إرسال الكولونيل ف. كَنليف - أوين Col. F. Cunliffe-Owen العضو في البعثة البريطانية إلى الرّياض في وقت لاحق من ذلك العام، وقد ذهب عن طريق الهفوف Hufuf، ويقول إنه رأى وطارد المَهاة على الحافة الغربية لحزام الدَّهناء الرّملي نفسه. وثانياً غوارماني Guarmani وهو أول أوروبي يزور قبلي المنطقة التي في نهاية المطاف اصطدتُ فيها المَهاة، يقدم على جزيرة العرب.

كارلو غوارماني Carlo Guarmani الإيطالي، بوصفه الوكيل القنصلي لملك پروسيا في القدس، تم تكليفه بالقيام بالبعثة الاستكشافية لنجد عام 1864. والهدف من هذه الرّحلة قد يكون سببه سياسياً وقد لا يكون كذلك، ولكن إن كان هدف البعثة سياسياً فإنه بالتالي يُظهر كيف تقوم أوروپا بحبك الدّسائس الدّولية في المنطقة المفضلة لديها وهي جزيرة العرب. تُبيّن قصص زيتسِن Seetzen، وپالغريف Palgrave وغوارماني Guarmani تلك الدّوافع الخفيّة، وإنه من الواضح أن الاثنين الآخرين كانا في تحالف وثيق بينهما. على أيّ حال، قام غوارماني Guarmani بخدمة هدفنا في بحثنا عن المَهاة. كان قد سلك طريقاً جديداً إلى جزيرة العرب، وهذا الطريق لم يكن له عندنا أيّ ذكر سابق، ولم يُطرَق بعد ذلك مرة أخرى إلاّ بعد 45 سنة عندما صادف أن وجدتُه الطّريق الأكثر مباشرة للوصول إلى النّفود الغربي.

انطلق غوارماني[2] Guarmani من القدس والتحق ببدو بني صَخر، ومن ثم

---

(1) كان جميع كتّاب الغرب ورحّاليهم يكتبون هذه العبارة: الوهابيّة، وهي تعبير مغلوط، صوابه: دعوة الإصلاح السّلفي، واسم الدّولة آنذاك: الدّولة السّعودية، على اختلاف مراحلها وأدوارها التاريخيّة.

(2) كنت في عام 2009 قد ترجمت كتاب رحلته: *Il Neged Settentrionale* «نجد الشمالي» عن طبعتها الأولى الصّادرة في المجلة الجغرافيّة بپاريس، لكنني بعد مراسلة جامعة جنوا في إيطاليا حصلت على الطبعة الكاملة الصّادرة في القدس عام 1866، بالإضافة إلى صورتين للرحّالة،

شـق طريقـه بالاتجاه الجنوب شـرقي في طريق معروفة بأنها مختصـرة على الرّغم من خطورتهـا إلى تيمـاء، تلك الواحة القديمة التـي تقع قبالة الزّاويـة الجنوبية الغربية من النّفود. كما زار وسـجّل للمرة الأولى جبل طُبيق بوصفه ديرة الشّـرارات *dira* of the Shararat، الذين كانوا «صيادين مشهورين للنَّعام والغزلان والحيوانات البرية».

تابـع غُوارمانـي Guarmani طريقه إلى تيماء وإلى شـمالي نجـد، وعلى الرّغم من عودتـه إلـى موطنه عبر الرّمـال الهائلة، فإنه لم يُقدّم أيّة إشـارة أخرى إلـى المَهاة. كان تريسـترام Tristram يجمـع بياناتـه بيـن عامـي 1858 و1872 عـن «التاريـخ الطّبيعي لفلسـطين الغربيـة». وعلى الرّغم من اقتصار عمله الرّئيسـي على فلسـطين ذاتها، فقد أعطانـا قدراً كبيراً مـن المعلومات غير المقنعة عن الحياة البريـة الحيوانية في المنطقة الحدوديـة الصّحراويـة. فقد قال على سـبيل المثـال، إنه لم ير ظبـي اليحمور Hubal Hartebeest فـي فلسـطين.. ولكنـه بالتأكيد كان موجـوداً في منطقة الحدود الشّـرقية لجلعـاد ومـؤاب Gilead and Moab، كما هو معـروف جيداً بالنسـبة للعرب، الذين أكدوا لي انها تأتي في بعض الأحيان لشرب المياه من رؤوس الجداول التي تصبّ في البحر الميت، حيث ليس من النّادر أسرها.

عادة ما تجوس خلال أراضي جزيرة العرب وشـمال أفريقيا، حيث أخبرنا في بداية القـرن الماضـي الدّكتور شـو Dr. Shaw بأن مشـاهدتها أمر مألوف. إنـه بقر الوحش العربي.

لا يوجـد دليـل واحـد عـن وجـود Bubal Hartebeest بـأي وقـت مضـى خارج أفريقيـا[1]، وقد انقرضت الآن من ملاذها الأخير في المناطق النّائية من المغرب. وعن

وفي هذه الطبعة زيادات جمّة أضافها المؤلف بعد صدور الطبعة الأولى، لذا سيكون من حق القرّاء الكرام علينا أن نبادر إلى نشر هذه الطبعة ضمن سلستنا، التي نحرص دوماً على إبقائها بأرفع مستوى.

(1) كتب المؤلف: ثمّة زوج من القرون، قيل إن تريسترام جلبها من جزيرة العرب إلى سوريا، ولكن ليس ذلك بالدليل الكافي للأخذ به. ليس هناك من سجل من قبل أي رحالة، بأي تاريخ، في سوريا أو في جزيرة العرب لذلك الجنس الذي لا لبس فيه على الإطلاق.

المَهاة يقول تريسترام Tristram: «إنها مألوفة في شمال جزيرة العرب كما أنها وجدت في البلقاء Belka وحوران Hauran. لقد كنتُ قريباً منها بما يكفي لأميّزها من قرونها الطّويلة. إنها تعيش في كُردُفان Kordofan، وسنار Senaar، وصعيد مصر وجزيرة العرب، ووفقاً لبعض السّلطات تمتدّ إلى بلاد فارس».

ومن المشكوك جداً فيه أن تكون وصلت إلى البلقاء وحوران وكلاهما مناطق ذات كثافة سكانية كبيرة نسبياً، وبما أن تريسترام لم يذهب إلى الشّرق من المشتّى Mashatta فلا بدّ أنه أخطأ في تلك القرون الطّويلة التي أعتقد أنه رآها. وينبغي أن يكون على علم أيضاً أن المَهاة في كُردُفان Kordofan، وسنار Senaar وصعيد مصر كانت حيواناً مختلفاً جداً، ذا قرن كالسّيف وأكبر حجماً بكثير من الظبي العربي. حتى الآن المعلومة الوحيدة الأصلية والموثوقة التي قدمها تريسترام كانت الوصف الذي أزجاه للمنطقة الصّحراوية شرقي «أرض مؤاب» في كتابه الذي حمل هذا العنوان "Land of Moab". أخبره أحد أبناء بني صَخر أنه على بعد مسيرة «ثلاثة أيام عبر أراض من الحجر الجيري الأبيض، هناك منطقة من البازلت الأسود، أرض الحجارة السّوداء... إنها أرض تقع في الوسط بين الجنوب من عِنزَة وبني صَخر، ولم تكن الأخيرة قادرة على عبور تلك المنطقة حينما تكون الأولى هناك. بالإضافة إلى هاتين القبيلتين، كانت هناك عصابات مؤلفة من رجال في غاية الشرّ، وتلك العصابات كانت دائمة التواجد في تلك المنطقة، وتعيش على سرقة الجمال كلما حانت لهم الفرصة للقيام بذلك. والقبيلتان كلتاهما كانتا تعتبران تلك العصابات خارجة عن القانون... وإلى الخلف من تلك المنطقة ذات الحجارة السّوداء، شرقاً، وعلى بُعد مسيرة يومين أو أكثر في أراض من التلال البيضاء وإلى الخلف من المراعي الجيدة للإبل، تبدأ الصّحراء الخالية من أي شيء عدا الظباء والأيائل». تلكم لعَمري صورة دقيقة لقفار الشّرارات.

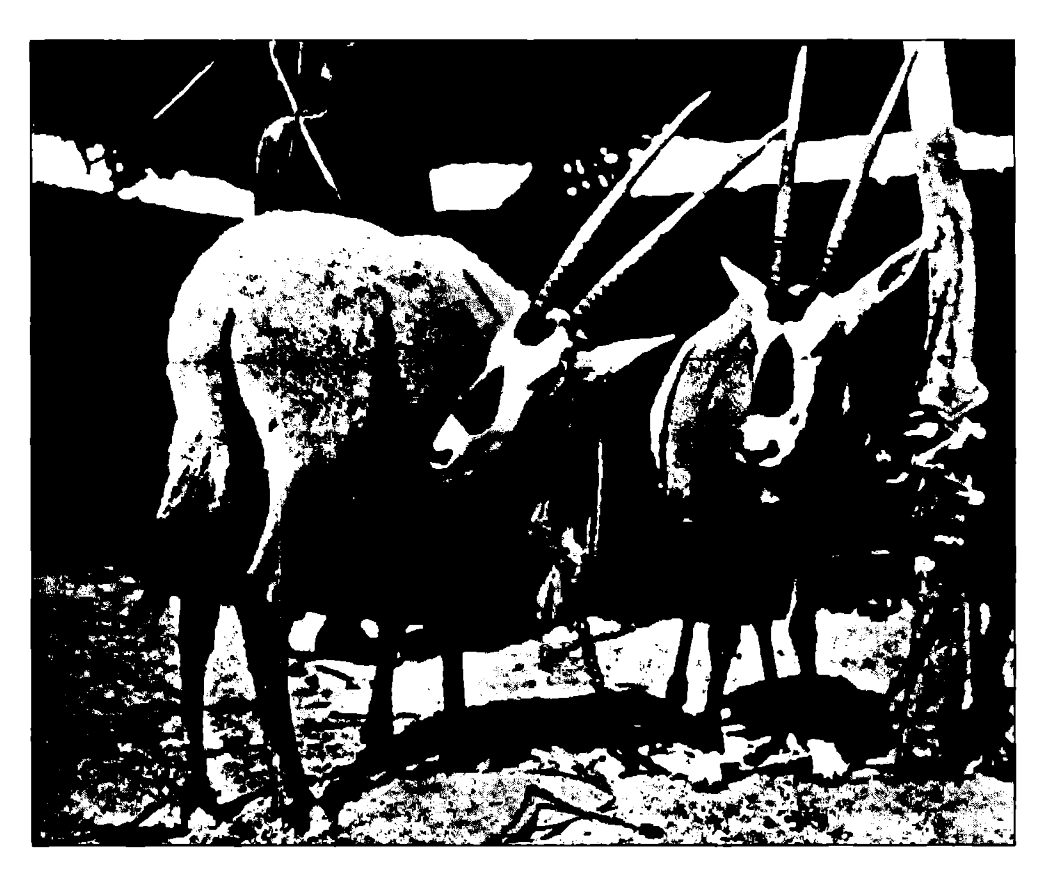
* * *

أمّا المعلومة الثانية فقد أتتنا من قبل أفضل مراقب سبق أن دخل أراضي جزيرة العرب، ألا وهو داوتي Doughty. قيل إن كنت تسعى للحصول على أيّة معلومة عن

جزيـرة العرب فسـتجدها في مكان مـا في كتابه *Arabia Deserta* «صحارى شـمالي جزيـرة العرب». وتنطبق هذه المعلومة حتى في حالة المَهاة، على الرّغم من أن داوتي لـم يكـن في يوم من الأيـام عالم طبيعة، غير أنه رسـم أفضل صورة للمَهـاة في حالتها البريـة، ولـم يستطع أحد أن يرسـم صـورة للمَهاة أفضـل من تلك التي رسـمها داوتي على الإطلاق. لم يكن لأحد كان قد رأى المَهاة في حالتها البرية أو في الأسر ليصفها بشـكل أفضـل من قوله: «قرونها كالعصيّ في اسـتقامتها وحِدّتهـا، يبلغ طولها على ما أعتقد حوالي السّـبعة وعشرين إنشاً. رأيتها على بُعد لا يتجاوز الخمسة ياردات، وهي أصغر من الحمار، جلدها رمادي ضارب إلى صُفرة فاقعة، مع ارتفاع بسيط إلى جانب قاعدة عنقها، ليس لها سـنام، وذيلها الطّويل النّاعم ينتهي بمجموعة شعر. وهي أقرب مـا تكون شـبهاً ببقرة صغيرة، مخلوق رائع القوام بما يتناسـب مع هـذه القفار القاحلة بتلك القوائم النّارية الرّشيقة».

تلك كانت رؤيته لذلك المخلوق الأسير الذي كان في حديقة قصر الأمير في حائل عـام 1877. ولكـن داوتي كان قد اكتشـف المَهاة قبل ذلك ببضع سـنوات، عندما كان في معان عام 1875، وبينما كان في رحلته الأولى عبر سـيناء وفلسـطين رأى جلوداً تمّ جلبها من الشّـرارات، وتحدّث عن حيوان أسـير آخر نشـأ في حامية محطة الحج على طريق الحجّاج إلى الجنوب من معان، وقد اشتراه بعشرة جنيهات. وتم نقله في النّهاية على محفّة يجرّها بغل لتصل إلى دمشق ومن ثم إلى القسطنطينية كهدية من رئيس بعثة الحـجّ إلى السّـلطان عبد العزيز، ومنذ ذلـك الحين ومنذ أيـام دي ڤارتيما Varthema يُنظر إلى المَهاة كهدية ملكية.

حـرّك ذلك المخلـوق الغريب والجميل مخيّلة داوتي وسـرعة بديهته، فما كان منه عندما عاد من جزيرة العرب سـوى أن أحضر معه تذكاراً عرَضه أمام الجمعية الملكية الجغرافية في محاضرته بتاريخ 26 نوفمبر 1883 ولـم يكن ذلك التذكار سوى قرن من قرون المَهاة!



هديّة ملكيّة

كما قدّم لنا داوتي آنذاك وصفاً آخر للمهاة في حاشية رسالة خاصة كتبها من مدائن صالح إلى مجهول في فبراير عام 1877:

«ومن بين هذه الحيوانات في (مدائن صالح) وأبرزها على الإطلاق، والذي أعتقد أنه غير مألوف عند الأوروبيين، بقر الوحش صاحب تلك القرون التي رأيتُها مستقيمة كالقضيب وحادّة الرّأس وتزداد نمواً مع التقدّم في العمر لتصبح جد طويلة ومتوازية. رأيتُ جلودها البيضاء في معان حيث يصنعون منها أفضل النّعال لصنادلهم. لدى هذا الحيوان فم غزال وحافر بقرة وكذلك ذيلها إلاّ أن أرجلها أقصر من سيقان البقر وكذلك وصفها صيّاد عربي. إنها أكبر من الحمار، وربما هي أحد أصناف الغزلان أو البقر أو كتلك الموجودة في حدائق الحيوانات في أفريقيا».

يتحدث عن المَهاة ذلك المخلوق غير المعروف حتى الآن في أوروبا، ومرة أخرى يصفه بأنه «حيوان غير معروف لدى علماء الطّبيعة الأوروبيين قبل سفره كأحد قاطني جزيرة العرب». وبذلك ارتكب خطأً. فقد عُرف قبل ذلك بعشرين عاماً، تحت اسم مهاة بياتريكس *Oryx beatrix*، الاسم الذي يعرفونه جيداً فهم من أسماه بياتريكس، على الرّغم من أنه كان معروفاً قبل ذلك باسم الظبي الأبيض *leucoryx*.

قدّم داوتي لنا إشارة وفكرة عن موطن المَهاة في الشّمال الغربي للجزيرة العربية، فما إن اقتربت قافلة الحج التي ارتبط بها من حدود الحجاز عند منزلة «ذات الحَجّ» Dhat al Hajj، يقول: «غرباً، رأينا سلسلة جبال حِسمى، وإلى الشّرق هضاب الشّرارات المألوفة. وهناك وجد «بقر الوحش» وهو مخلوق غير معروف حتى الآن في أوروبا، وهو نوع من الظباء Antelope، وهي تجوب الأرض على شكل جماعات إثنتين أو ثلاثاً معاً، وتجري بسرعة كبيرة تطوف السّهول الرّملية القاحلة ولا تقرب الماء». ومعلوماته تلك كانت دقيقة، ففوق هضاب الشّرارات تلك وفي منطقة فجر رأيتُ أول مَهاة، وأبعد من ذاك بقليل استطعت قتل أول ظبي منها.

وبوجود تلك الإمكانات الهائلة للحصول على معلومات دقيقة مذهلة من مصادر أصلية، قام داوتي بتدوين مذكراته عن المَهاة في الجانب الجنوبي من صحراء الرّبع الخالي، وإنّ بعض البدو القحطانيين، الذين ابتعدوا عن ديرتهم الصّحراوية الحدودية النّائية في شمال غرب اليَمَن، والذين كان يجوبون المناطق التي تسيطر عليها قبائل شمَّر، أخبروا داوتي أن «الثيران البرية في منطقتهم تدعى وضيحي wothyhi».

ما يزيد من دهشتنا، أن داوتي، على الرّغم من كل ما أخبرنا به عن الأبقار الوحشية، وعلى الرّغم من تجواله طويل الأمد في قفار الصّحراء، فإنّه لم يروِ أنه التقى بالمَهاة أبداً في حالتها البرية. ذلك أمر مفهوم، إذ أن داوتي لم يكن أبداً رجلاً حراً في ترحاله كما يحلو له، فقد كان دائم التحرّك بصحبة المضارب العربيّة ولم يكن يسافر بمفرده أبداً. وعلاوةً على ذلك، لم يدخل داوتي موطن المَهاة الحقيقي قط، بل اقترب من موطنها في تيماء، ولو صادف أنّه كان يجوب الأرض إلى شمال تلك الواحة مع

الشّرارات Shararat، بدلاً من التوجه شرقاً مع قبائل ضنا بشر البدوية، لكان بغير شك سيلتقي بها.

قضى داوتي في جزيرة العرب اثنين وعشـرين شهراً من نوفمبر 1876 إلى أغسطس 1878، قضاهـا داوتـي فـي مغامرتـه منفـرداً كما لـم يفعل أحـد من قبل. إن لم يسـتطع داوتـي، في أسـفاره الطّويلة تلـك، أن يرى المَهاة البرية، فإن دلّ ذلك على شـيء فإنما يدلّ على ضيق المنطقة المتواجدة فيها ويدلّ كذلك على صعوبة الدّنوّ منها[1].

* * *

أتى عام 1879 بحملتي حج إضافيتين لزيارة نجد في عُقر دارها، لقد جمع الزّوجان بلنت[2] The Blunts بين رومانسية السّفر عبر رمال الصّحراء والعزم على القيام بزيارة ودّية إلى حاكم جبل شـمَّر. كانت هذه البعثة مختلفـة تماماً عن الرّحلات الصّعبة التي سـبقتها، فقد جاء الزّوجان بلنت The Blunts ترافقهما حاشية كبيرة تناسب الموقف، وقد ركبا أفضل الأفراس العربية وجلبا معهما صقورهما وكلاب صيدهما. لقد ارتحلا على تلك الهيئة ونزلا بحائل، وقدّما احترامهما لحاكم جبل شَمَّر وتابعا مسيرهما نحو العراق.

عبـرا النّفـود في رحلتهما تلك سـالكين طريقهـا المعتاد، وليس هناك سـوى طريق واحد، وأشـارا إلى المَهاة في طريقهما ذاك. ففي الجوف تناولا «شرائح فيليه من لحم البقـر الوحشـي (وربما كانت ظبيـاً) من النّفود، بعد أن تم شـيّه في الرّمـاد، فكان أحد أفضل اللحوم مذاقاً بالنسبة لي».

---

(1) كتب المؤلف: ركب شيكسبير عام 1914 وجاب منطقة تواجد المَهاة بطولها وعرضها غير أنه لم يحظ برؤية واحدة منها، على الرّغم من إشارته إلى رؤية آثارها في الجانب الشّرقي من هضاب طُبيق.

(2) يقصد المؤلف رحلة الليدي آن بلَنت وزوجها ولفريد إلى حائلٍ عام 1878-1879، وهي رحلتهما الثانية في الشرق، من بعد الرّحلة الأولى بين عشائر بدو الفُرات. ولقد قمت بتعريب الرّحلتين كليهما، وهما قيد النشر في سلسلتنا هذه.

وشـاهدا في النّفـود «آثارها، على بُعد مئة ميل من أيّ عين مـاء، ولذلك تجد أن العرب محقّين في تأكيدهم أن المَهاة لا تشـرب الماء»، ولكن مرشـدهما أخطأ عندما أخبرهما بأن المَهاة لا تبارح أرض النّفود. وبينما هما في حائل رأيا الحيوانات المعتادة أسيرة في حديقة قصر الأمير، وقد قامت السّيدة آن بلنت Lady Anne Blunt بوصفها بقولها:

«والأكثـر إثـارة للاهتمـام من بيـن جميـع الحيوانات فـي الحديقة كانـت ثلاثاً من الأبقـار البرّيـة (بقر الوحش) تم جلبها مـن النّفود وكنّا كثيراً نـودّ أن نراها. لقد برهنت تلك الأبقار، كما كنا نعتقد، على أنها أحد أنواع الظباء على الرّغم من شـبهها الشّـديد بالبقر لدرجة أنها قد اشـتقّت اسـمها منه. يبلغ ارتفاع ذاك الظبي ارتفاع عجل ذي سـتة أشـهر من العمر، وله حدبة بين أكتافه كالماشـية الهندية، لونه أبيض يميل إلى الصُّفرة مع ساقين حمراوين تميلان إلى السّواد اقتراباً نحو الحافرين. أما الوجه فهو شبه ملوّن، وقرونها سـوداء كالرّمح في اسـتقامتها مع ميلان خفيف إلى الخلف وبطول يصل إلى الثلاثـة أقدام، وقد رُسـمت عليه حلقات لولبية الشّـكل. كانت هـذه الأبقار البرّية أكثر شراسـة وأقـلّ ترويضـاً من بقيّـة الحيوانات لـذا كان العبيد يخافونهـا، إذ يبدو أن تلك الأبقار كانت على استعداد تام لاستعمال قرونها الحادة كالإبر».

* * *

كانت الأعوام 1879-1884 علامة بارزة في استكشاف جزيرة العرب، فقد وطئت آنـذاك أقـدام أحد أكثر العقول علماً وقـدرة ليلقى هناك حتفه قتلاً لسـوء الحظ قبل أن ينهي أعماله، ولكنه كان محظوظاً بما يكفي لإكمال خمس سنوات من الأعمال القيّمة ذات الطّبيعـة الأكثـر تفصيـلاً، ليس هناك من يـوم واحد لا نعود فيه إلى أعمال شـارل أوبيـر[1] (هوبَـر) Charles Huber بدءاً من دمشـق في خريف عـام 1879 حيث غطى

---

(1) بما أنّ هذا الرّحّالة فرنسي فهكذا لفظ اسمه بالفرنسيّة: شارل أوبير، ولكن على اعتباره من منطقة الألزاس المتاخمة لألمانيا وكون أهاليها يتحدثون الألمانيّة، فيمكن لهم لفظ اسمه: كارل هوبَر، مع عدم نطق الراء بوضوح، بل تلفظ: هوبَ. ولذا فقد كتبت الاسمين معاً على امتداد صفحات هذا الكتاب. هذا وسنقوم بترجمة كتاب أوبير لسلسلتنا.

مساحة هائلة لا تقل عن أربعة آلاف ميل في يناير 1882. ووقعت كل من النّفود، جبل شَـمَّر، وتيماء، وخيبر وبريدة ضمن نطاقِ بحثه. كما أنه عاد مرة أخرى عام 1883 وبدأ مسـحاً جديداً شـمل ما يقـارب ثلاثـة آلاف ميل من المسـاحات غيـر المعروفة وغير الممسوحة من قبل.

تابـع ارتحالـه دون انقطـاع من دمشـق إلى جدّة عن طريـق حائل وبريـدة مع القيام برحلات إلى تيماء وتَبوك. وخلال رحلة عودته من جدّة إلى حائل (لجلب حجر تيماء الثمين) تم اغتياله. لحسن الحظ تمّ جمع جميع آثاره وملاحظاته وتم إيصالها في نهاية المطاف إلى فرنسا، حيث تصدر فيها الآن نشرة تعدّ أعجوبةً في فنّ الملاحظة والمسح الدّقيق، ومنها يمكننا استخلاص معلومات قيمة وكثيرة عن المَهاة.

ورغم عدم وجود ملاحظات مباشـرة، فإن أوبير (هوبَر) اسـتطاع تدوين كل أسماء البقـر الوحش بكل دقة، مع ذكر تفاصيل موئلها. وعن ذلك أخبرنا أوبير (هوبَر): «أنها تجول في الأجزاء غير المطروقة من النّفود، حيث لا يوجد هناك أثر للعرب أو الجمال بوجه الإطلاق. في بعض الأحيان تغادر المَهاة أرض النّفود وربما تذهب بعيداً، ولكن دائمـا نحـو الغرب والشّـمال الغربي». ومرة أخـرى يذكر: «نجد موئلهـا يقع بين جبل طُبيق في الغرب واثنتين من قمم Atash في الشّـرق، وبين جبل الطّويل Jabal Tawil في الشّمال وجبل أجا Jabal Auga في الجنوب»، وبعبارة أخرى، في النّصف الغربي من النّفود الكبرى وفي المنطقة الواقعة إلى الشّمال الغربي منها.

تـمّ جمع هذه المعلومات من تقرير مصدره من السّـكان الأصليين، وهو مذهل في دقتـه. تضـمّ المنطقة المذكـورة ضمن حدودها أصـول المَهاة الباقية في شـمال غربي جزيرة العرب. ذكر أوبير (هوبَر) من عاداتها أن الأبقار تحمل صغارها أحد عشر شهراً وتضع صغارها دوماً في الشّـتاء، وأنها قادرة على مهاجمة الإنسـان مستخدمة قرونها، وأن جلودها سـميكة لا يكاد الرّصاص في كثير من الأحيان يقوى على اختراقها، ومع ذلك تمتاز لحومها بالجودة.

علـى الرّغم من تدويـن أوبير (هوبَر) رؤيته لآثار المَهاة خـلال عبوره الأول للنّفود

في يونيو 1880، فلم يكن هناك سوى مرجع واحد بعد وفاة أوبير (هوبَر) هي «المجلة» التي توحي أنه في الواقع كان قد شاهد الأبقار الوحشية. خلال فترة أقامته الطّويلة في حائل، حشد أوبير (هوبَر) مجموعة من الفوائد الجغرافية والعلمية معاً. فقد أعطى على سبيل المثال لوائح دوّن فيها معلومات عن الحياة الحيوانية والحياة النّباتية وطبوغرافية النّفود. وفي معرض حديثه عن البقر الوحشي يقول: «إنها تجوب المنطقة الواقعة إلى الغرب والشّمال الغربي من النّفود، وقد شاهدتُها بعيداً في درب الحج Darb al Haj». اصطحب أوبير (هوبَر) رفيقاً له في هذه الرّحلة عام 1884 واسمه أويْتِنغ Euting، ولكن أويْتِنغ لم يُورد أي ذكر لمشاهدته المَهاة.

بيد أنه سجّل في مذكراته بأنه في الخامس من مارس وبينما هو في منتصف الطّريق بين درب الحج Darb al Hajj وتيماء «شاهدنا آثار حوافر غزال أبيض ضخم (مَهاة بيزا Beisa)». وليس هناك من لائحة بأسماء من أعاننا في بحثنا عن المَهاة - نولدِه Nolde الذي يمكننا وصف مغامرته التي قام بها عام 1893 بالوضوح والبساطة، لأنها لم تتصف بالرّومانسية والدّبلوماسية ولا بادّعاء الغاية العلمية. ومع ذلك صادف أن يكون نولدِه Nolde الرّحالة الوحيد الذي قدّم لنا نظرة ثاقبة إلى الشّؤون الدّاخلية للجزيرة العربية بعد فترة طويلة من الصّمت، فقد صادف أنّه كان هناك في لحظة حاسمة من الصّراع بين حائل والرّياض للسيطرة على المنطقة.

لا ريب أن نولدِه[1] Nolde شخصية غريبة الطّابع، فقد واجه رجال نجد المتزمّتين مرتدياً زيه الرّسمي ومعتمراً خوذة بيضاء ومتنكباً سيفه المذهب. كان يدخّن ويشرب الخمر، ولكن بفضل حاشيته وفرسه الذي يسابق الرّيح نجح في عبور جبل شمَّر للّحاق بالأمير الغائب محمّد في معسكر حربه قبل بريدة. التف نولدِه حول النّفود عبر طريق قلّ من يعرفه، مارّاً بالجوف إلى الحَيّانيّة Haiyaniya متبعاً الحافة الشّمالية للصّحراء،

---

(1) لا يُلفظ اسمه هكذا بالألمانيّة، بل: فون نولدِه، وعنوان كتابه بالألمانيّة:

Eduard Baron von Nolde: *Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien* 1892, Braunschweig 1885.

التي عرفناها في وقت لاحق بالتفصيل من خلال رحلة شيكسپير عام 1914.

يقـول: «بالطبع لا تمتاز هذه القفار بغنـى الحياة الحيوانية فيها، حتى أن وجود عدد قليـل مـن الحيوانات التي التقيتُها، يبدو مدهشـاً. كل ما وقعت عينـي عليه كان ضباعاً ووعـولاً وغزلانـاً، بالإضافـة إلى قلة مـن الأرانـب البرية، وأخيـراً صنفاً مـن الثعلب الرّمـادي، ومـن غير المفهوم كيف يمكـن لهذه الحيوانات أن تعيـش هكذا دون ماء». وعندمـا يقـوم أحد الرّحالة بذكر الوعول أعتقد أنه يقصد المَهاة لعدم وجود ظبي آخر. غيـر أن الغزال كان يسـمّى في بعـض الأحيان خطـأً بالظبي. تبدو إفـادة نولدِه Nolde تحمل شـيئاً من الصّحة، وإذا كان الأمر كذلـك فهو الذِّكر الوحيد للمهاة على الجانب الشّمالي من النّفود.

* * *

فـي الجنوب، تقلّ مصادر معلوماتنا. في عـام 1886 وصل مايلز Miles إلى حدود الصّحـراء الجنوبيـة الكبرى إلى الخلف من عُمان، والتي كان ويلسـتد Wellsted أول من رآها وآخرهـم أيضاً، إلى أن جاء كوكس Cox في وقت لاحق بعد ثلاثة عشر عاماً. هذه القفار الواسـعة الواقعة إلى شـرق الحدود التي نقف عليها الآن، وتمتد بعيداً إلى الغرب لحوالي 700 ميلاً لتُشكّل أكبر مساحة من القفار الرّملية وأكثرها لؤماً وشحّاً في القارّة الآسيوية.

وعمومـاً، فهـي تخلـو من مـن الأنهـار والأشـجار، والجبال والسّـكان. قفـار غير مستكشـفة وغير قابلة للاستكشـاف، قاحلة بـلا معالـم، لا ظلّ ولا ظليـل، تعصف بها الرّياح ويجول فيها صمت كئيب ورتابة مملّة، لا نظير لها ربما في العالـم أجمع.

أفضل ما وصفت به أنها تغطي عشرة أضعاف مساحة إنكلترا وويلز معاً. ولا يتجاوز عـدد الحيوانـات التي يمكن العثـور عليها في هذه الأصقاع من الصّحـراء حيث يتوفّر الغطـاء النّباتي، على الأرجح اثني عشـر نوعاً. تُعرف مَهـاة بياتريكس *Oryx Beatrix* عموماً بالنسبة للعرب ببقر الوحش أو الثور البرّي، لكنها تُدعى لدى العمانيين بوسولَع

Boosohla، ولقـد تمّ العثور عليها في معظم المناطق، ولكن يُقال إنها لا تقترب لأكثر من 50 ميلاً من ساحل البحر».



مَهاة بوسكاون في غربي الرّبع الخالي

* * *

منـذ ذلك الحين وحتى وقـت رحلتي، كان يُقال إن المَهـاة تتواجد فقط في جنوبي جزيـرة العرب، ويتناقل السّـكان المحليون ذلك الخبر كما هو حـال تجّار الحيوانات الأسـيرة. لـذا كان علينـا الإنتظـار حتى عـام 1924 للحصول على معلومـات جديدة، ولغايـة عـام 1931 حتـى رؤيت المَهـاة حيّةً من قبـل أول رحّالة أوروبي. مـن الرّحالة المستكشـفين المتأخريـن للقفار الجنوبية حصلنـا على قدر كبير مـن المعلومات عن عمليـات صيـد المَهاة في تلـك النّاحية. من كلّ مـن تشـيزمان Cheesman، وتوماس

Thomas، وفيلبي Philby وبوسكاون Boscawen علمنا الآن أن موطن المَهاة ينحصر في الجنوب كما هو الحال في الشّمال، وأنّ بيئتها آخذة بالانحسار.

رجال فيلبي أخبروه عام 1932 أنهم عندما يصلون إلى الصّحراء «سيشبعون من أكل لحوم المَهاة». في الواقع إنّ إغراء المَهاة واحتمال صيدها كان أحد الأوراق الرّابحة بيد فيلبي عندما وجد صعوبة في إقناع رجاله بالمرور عبر ذلك الطّريق المقفر من نايفة Naifa إلى الوطن.

ولكن ما كانت النّتيجة؟ فخلال تسعين يوماً من التجوال في البرّية لم يروا سوى مَهاة واحدة، ولم تكن تلك المَهاة سوى جيفة كانت قد لقيت حتفها جوعاً وجفّ بدنها من حرارة الشّمس! تم العثور على هياكل عظمية وآثار مسارات وكذلك شوهد روث، ولكن لا فيلبي ولا من جاء معه من الصّيادين استطاع التّوصل إلى قنص فريسة. صحيح أنّ الوقت لم يكن مواتياً ذلك العام، وأن الرّحلة كانت قد تمّت تحت ضغط ظروف صعبة، كونها فترة جفاف طويل، وقد هاجرت جميع الحيوانات الصّحراوية بسبب ذلك.

يقول: «مرة أخرى لا يوجد دليل على الحياة في أيّ مكان، على الرّغم من ملاحظتنا لروث المَهاة في موقعين اثنين. كنا في وسط موطن المَهاة، غير أن الصّيادين كانوا قد فقدوا أي مَيل لديهم للمطاردة. لقد كان من المدهش حقاً أنه خلال هذه الأسابيع الطّويلة لم يتمكن أحد منا من إلقاء ولو نظرة خاطفة على المَهاة، التي كنا نأمل بكل ثقة ملاقاتها بأعداد كبيرة. وحدّثنا علي جهمان عن إمكانية الحصول على المياه في حالات الطّوارئ بواسطة عصر أمعاء الحيوانات بعد إطلاق النّار عليها».

في مناسبة أخرى، وعندما اقتربوا من نهاية رحلتهم الطّويلة مع العطش، وبينما كانوا يقتربون من الحافة الشّمالية للصحراء بالقرب من وادي الدَّواسِر Wadi Dawasir كتب فيلبي قائلاً: «كانت الأيام الماضية أفضل حين كنا نجد فضلات الإبل وجمر المعسكرات المهجورة المتناثر. إلى هنا، قال سالم Salim، كانت نادراً ما تصل المَهاة... والآن قد غادرت جميعاً بحثاً عن الكلأ.

وربمـا نجدهـا فـي الشّـمال ولكـن المنطقـة هنـا، كمـا تـرى، جَفّتها الأمطـار منذ سنوات»[1].

***

روى تشيزمان Cheesman عام 1924 القصة نفسها، ولكن ذهب فيها إلى حدّ القول إن المَهاة غادرت الجزء الشّـمالي من الصّحراء وإلى غير رجعة. يقول رجال قبيلة مُرّة Murra الذيـن يجوبـون قفار الصّحراء الجنوبية بالقرب مـن المركز كباقي العرب، إن «المَهاة كانت متوفرة وبكثرة في السّـنوات الماضية في الصّحارى حول يبرين Jabrin في مواسـم الأمطار الجيّدة، متتبعة النّباتات النّامية. أما الآن فلا يمكن العثور عليها إلاّ في جنوب الصّحراء الكبرى، وعلى الأخص بالقرب من نجران Najran».

أخذ برترام توماس[2] Bertram Thomas هذا البيان محمل الجد، وفي عام 1930 وجـد المَهـاة على الشّـاطئ الجنوبي مـن الرّمال، علمـاً بأنه لم يحـظ بملاقاتها خلال رحلته شمالاً خلال 400 ميل عبر الصّحراء. وأكّد فيلبي Philby لي ذلك مؤخراً بقوله أن حامية الملك (ابن سـعود) ولدى عودتهم من حملة اليَمَن (1934) استمتعوا بصيد المَهـاة فـي الصّحراء الواقعة إلى الشّـرق من نجـران، وهي على ما يبدو ليسـت بعيدة جـداً، ولكنها أصقاع رملية. كما أفلح بوسـكاون Boscawen أيضاً في الآونة الأخيرة في اصطياد المَها من قاعدة في حَضرموت العليا، ولكن الأمر اسـتغرق منه بضع سنين من البحث، وتطّلب أيضاً سرعة مبادرة استثنائية من أجل تحقيق هذا الهدف.

---

(1) كتب المؤلف: في واقع الأمر، كان فيلبي يجد آثار المَهاة من وقت لآخر على طول خط مروره جيئة وذهاباً إلى الرّبع الخالي، وعلى الرّغم من عدم اجتماعه بأيٍّ منها، فقد كان هناك الكثير من الأدلة تظهر تجوالها في كامل الصّحراء الجنوبية في بعض السّنين.

(2) برترام توماس Bertram Thomas (1892–1950) إداري ورحالة بريطاني شهير، كان أول رحّالة غربي يجتاز الرّبع الخالي في جزيرة العرب، وسجّل وقائع رحلاته بكتابه *Arabia Felix* (قيد النشر في سلسلتنا هذه). عُيّن بين 1922–1924 وزيراً للماليّة لدى سلطان عُمان، وشغل هذا المنصب بين 1925–1932. قام بعدّة حملات في الصحراء، فتوجّه إلى ظُفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي بين 1930–1931 .

كان أولئك السّابقون لي، وأيّة جوقة غريبة كانوا يمثلونها! كانوا من جميع الجنسيات، من جميع الطّبقات الإجتماعية، من كثير من المهن، منهم علماء وجواسيس ومستشرقون، مغامرون وشعراء ورجال سياسة! أصناف يبدو أن جزيرة العرب تجذبها بشكل غريب ولسبب مجهول.

وكما قال هوغارث Hogarth: «جميع المستكشفين لشبه جزيرة العرب كانوا يسعون إليها إما بدافع الفضول الخاص بهم، أو بدافع فضول أمراء وجمعيات أجنبية، فكانوا يصلون إلى جزيرة العرب إما على شكل حجّاج إلى الأماكن المقدسة، أو علماء آثار، معلنين أسباب قدومهم أو متنكرين لذلك، أو مارّين بتلك الأصقاع كمراقبين لمجتمعاتها الفعلية.

«ولكن سرعان ما سيتسائل القارئ عن الأسماء الكثيرة المشاركة بتلك الأعمال كماهي الحقيقة، ومن بينها قصص لرجال موهوبين بشكل يفوق العادة، مثل نيبور Niebuhr، زيتسِن Seetzen، بوركهارت Burckhardt، ڤالين Wallin، بُرتون Burton، پالغريف Palgrave، هَليفي Halevy، داوتي Doughty، بلَنت Blunt، أوبير (هوبَر) Huber، أويْتِنغ Euting، هورخرونْيِه Hurgronje، غْلازَر Glaser – كانوا رجالاً ذوي عقول حصيفة لا يمكن أن يستهويهم مجرّد حبّ المغامرة أو المخاطرة في الممنوع. إذن لماذا عرّضوا أرواحهم للخطر في أرض عارية لا تستهوي أحداً، على وقع رتابة مملّة في ظلّ عوامل طبيعية لا يمكنها إخفاء أيّ سرّ مثير وراءها؛ يسكنها أناس فقراء متشابهون؟

وبالمقارنة مع أصقاع أخرى، ما الذي شدّهم إلى جزيرة العرب؟ ومع ذلك فإنها لم تستهوهم هم فحسب! بل استهوت مَن وراءهم أيضاً».

* * *

الفصل الثامن

ملاحظات طبيعية عن المَهاة العربية

التسميات

اسـمه بقر الوحش، أي البقر البرّي، يسـمّى الذكر بالثور أو ثور الوحش، والثور هو المذكـر بينما البقرة هي الأنثى كما هو حالة النّاقة بالنسـبة لتسـمية البـدو لأنثى الإبل. ولكن، كما يقول داوتي فإن أصل اسـم بقر الوحش سـوري سـوقي، أما الاسم العربي الصّافي فهو وضيحي *Wudhaihi* (لدى فيلبي) و Wothyhi (لدى داوتي) وهي كلمة قد اشتُق جذرها من اللون الأبيض والبيضاء والتي تعني البقرة البيضاء. يستند داوتي في تحديد الاسـم بناء على رواية محدّثيه، وهي أسماء تستخدم بين القبائل العربية عموماً بطـول الصّحراء وعرضهـا. بينما تجد أن للقبائل الحدودية أسـماء خاصة بهم للمَهاة. على سـبيل المثـال ففي أقصى الجنوب الشّـرقي، فـي عُمان، يتّفق الجميع على اسـم محلـي وهو بوسـولَع *Busola, Boosohla* (لدى مايلز) أو بن سـولَع (لدى كوكس)، بينما تدعى عادة في الشّمال الغربي من شبه جزيرة العرب بالمَها. ويقول أوبير (هوبَر) إنها تُدعى في شـمال معان ببقر المَها، غير أنني لم أسـمع هذا الاسم المركب من قبل. ويستخدم اسم المَها لدى الشّرارات Shararat.

بينمـا يدعى صغار المَهاة كما يقول أوبير (هوبَر) عندما تكون في السّـنة الأولى من عمرها وبغض النّظر عن جنسها بالضِّري[1] Deray.

(1) هذا في بعض لهجات شمالي جزيرة العرب، أمّا في العربيّة فاسمه: الغضيض أو الفراقد أو الطلا.

عندما تم تعريف المَهاة العربية للمرّة لأول علمياً، أطلق عليها اسم «ظبي لوكوريكس» *leucoryx*، لأنه يبدو أنه حتى لو أن پالاس Pallas ذكر في عام 1769 ذلك القرن الغريب للغزال الهندي فلم يكن ليرتبط بالمَهاة العربية بل بظبى لوكوريكس *leucoryx* عام 1777 بالتأكيد. وقد حافظ پِنانت Pennant عام 1781 على الاسم نفسه فوصف ورسم المَهاة العربية بشكل لا لُبس فيه[1]، ومرة أخرى في عام 1793 في كتابه «تاريخ ذوات الأربع». نقل شو Shaw عن پِنانت Pennant وصفه للّوكوريكس *leucoryx* أو الظبي ذي البياض الحليبي Milk White Antelope عام 1801. ولكن في عام 1827 أعطى ليختنشتاين Lichtenstein اسم *leucoryx* خطأً للمَهاة ذات قرن كالسّيف وهي مهاة السّودان والصّحارى الجنوبية، والتي كانت تدعى بالمَهاة البيضاء رغم أنها ليست ببياض المَهاة العربية. وعندما وصلت أول عيّنة أسيرة من جزيرة العرب إلى لندن اختير لها اسم جديد وهو بياتريكس *beatrix*.

مؤخراً في عام 1903، وضع أولدفيلد توماس Oldfield Thomas الأمور في نصابها من خلال إعادة تسمية المَهاة ذات القرون الشّبيهة بالسّيف، وبالتالي استعاد *leucoryx* الحرّية مرة أخرى ليعاود انتقاله إلى حظيرة المَهاة العربية البيضاء، وباتت معروفة عموماً الآن باسم بياتريكس أو المَهاة العربية أو اللوكوريكس *leucoryx*.

(1) كتب المؤلف. اكتشاف پنانت لصورتين للمهاة العربية في المتحف البريطاني استدعى التعليق. كانت الصّورة تُظهر بالألوان المائية اثنين من الحيوانات أحدهما واقفاً والآخر مستلقياً، قيل إنها رُسمت لحيوانات حية في حديقة المتعة الخاصة بالشاه سلطان حسين حيث كان يحتفظ باثنين من تلك الحيوانات النادرة. تم رسم تلك اللوحة بناء على طلب من السّير جون لوك (وليس كيرك) وكيل شركة الهند الشّرقية في أصفهان في 1702. وتلك الحيوانات هي الآن في مجموعة سلون. أعاد پنانت رسم أحد الحيوانين نقلاً عن تلك اللوحة في نسخة عام 1781 من كتابه «تاريخ ذوات الأربع»، ولكن في نسخة 1793 رسم صورة خيالية مستوحاة ربما من نفس الصّورة ولكن كما أشار سكلاتر وتوماس فقد كانت أشبه ما تكون بالمَهاة الأفريقية Beisa.

الحجم والشّكل

المَهاة العربية هي الأصغر حجماً من أبناء جنسها، وذلك أمر طبيعي، فالأراضي الفقيرة تمتاز بصغر حجم حيواناتها، والعكس صحيح فالأراضي الغنية في مراعيها الخصبة تنتج حيوانات ضخمة، لذا لا ترى ظبياً أفريقياً يعيش في منطقة قاحلة وعارية كما استطاعت بنات عمها العربيّة ذلك. يبلغ متوسط ارتفاع الحيوان المكتمل النّمو أربعين إنشاً إلى الكتف، بما يعادل حجم حمار متوسط، بينما يبلغ إجمالي طوله من أرنبة أنفه إلى نهاية ذيله ستين إنشاً. وهو ذو بنية غريبة وخلافاً للحصان يشبه الوعل الأفريقي بسبب الحدبة على ظهره، على الرّغم من ملاحظة داوتي «كان ارتفاعاً طفيفاً بالقرب من قاعدة رقبته وليس سناماً». يبدو حجم قائمتيه كبيرة على ساقيه، وكالبقر تبدو حوافره كبيرة مدورة طولها 3,5 إنشات وعرضها 3,5 إنشات. بينما يصل طول شعر ظهرها ورقبتها من تسعة إلى عشرة إنشات بدءاً من ذنبها وصولاً إلى قرونها.

اللــون

كما هو حال محيطها، فلون المَهاة أبيض لمّاع ومع ذلك تجدها تفضحها في بعض الأحيان بسبب لونها اللامع كاللُّجين. أدهشتني تلك الخصوصية، فقد كنت قادراً على رؤية المَهاة من مسافة بعيدة بيضاء على خلفية رمال الصّحراء الحمراء والصّفراء، ومع ذلك لم أستطع تمييزها في بعض الأحيان عندما تكون قريبة جداً. تستطيع تغيير لونها بسرعة وفقاً للعبة الضوء والظل، لا غرو أنه لا يمكن مشاهدة قطيع المَهاة عند تحرّكه، ففي لحظة تبدو واضحة وفي لحظة أخرى تختفي عن الأنظار. تبدو المَهاة البالغة بيضاء صافية في معظمها وأرجلها بنيّة داكنة كالشوكولا، وأحياناً تميل إلى السّواد تقريباً مع قوائم بيضاء. تتشح جوانبها بلون بني داكن على شكل خطوط في بعض الأحيان وتجد بعضها تخلو تماماً من ذلك. تمتاز مقدمة الوجه بلونها الأسود اللماع وكذلك الخدود لتلتقي سيّالة اللون الأسود القادمة من الوجه والخدود أسفل الحنجرة ولتمتدّ انحداراً إلى أسفل الصّدر الذي يمتاز بلونه البني. الذيل أبيض باستثناء خصلة

سوداء في نهايته. يميل لون صغار المَهاة إلى اللون الأصفر وبطن بني دون أي أثر للون الأسـود أو البني ما عدا شـعر الخصلة النّهائية للذيل. بعد السّـنة الأولى تصبح المَهاة الفتيـة بيضـاء اللون، مـع كل هذه العلامات التـي تبدو باهتة على البالغـة منها. لا يبدو هناك أي اختلاف في اللون بين المجموعات في الشّمال وفي الجنوب، على الرّغم من تسـمية العيّنات التي أحضرها توماس Thomas مؤخراً من حافة الجزء الجنوبي للربع الخالي باسم latipes بناءً على قياس حوافرها.

القرون

مـا إن يبلغ عمر المَهاة سـتة أشـهر حتى يبلـغ طول قرونها ثلاثة إنشـات، وفي عمر العام تصل قرونها إلى 12 إنشـاً. وتصل إلى 16 إنشـاً في العامين. بينما تتراوح أطوال القرون لدى المَهاة البالغة بين 20 و30 إنشـاً. كما أن قرون أنثى المَهاة أطول من قرون ذكورهـا. أمـا أطول قرون تم الحصول عليها فكانت 27,5 إنشـاً وقطر 12,5 إنشـاً. أما أطول قرون لمهاة قمت باصطيادها فكانت 27 إنشاً وبقطر 9,75 إنشاً والبُعد بين قرنيها عنـد القاعدة 5,5 إنشـاً. وقد كانت أنثى. أما أطول قرون لثيـران حصلت عليها فكانت 24 إنشاً و20 إنشاً على التوالي.

اختـار فيلبـي زوجـاً من القـرون من جنـوب الصّحراء وكانـت بطول 29 إنشـاً، تم إنتزاعهـا من رأس إنثـى مَهاة كانت قد لقيت حتفها نتيجة الجـوع على الأرجح. كانت عيّنة توماس الوحيدة أنثى مهاة بقرون يبلغ طولها 25 إنشـاً! أما طول قرون ذكر المَهاة الـذي أحضره بوسـكاون Boscawen من الزّاوية الجنوبية الغربيـة للرّبع الخالي فيبلغ 22,5 إنشاً وبقطر 6,5 إنشات.

وقـرون المَهـاة ليسـت علـى اسـتقامـة واحـدة بـل كانـت تنحني قليـلاً بنحو 1-2 إنـش إلـى الوراء على مدى طول 28 إنشـاً. ويقـال إن «أقصر قـرون الثيران تبدو كالقضبان».

الشخصية

تمتاز المَهاة بشـخصية غامضة وغريبة، فهي وحشـية لدرجة مفرطة ومع ذلك تمتاز بسـهولة الترويض. تجتهد في الابتعاد من المكان الذي ترى فيه إنسـاناً أو تتنشّـق حتى ريحـه، وقيل حتـى إن لمحت آثاره. تمتاز بالحُمق أحيانـاً وأحياناً أخرى بالدّهاء الذي يفوق ذكاء الإنسان غالباً.

تلـد أنثـى المَهاة عادة في الشّـتاء، وتسـتطيع صغارهـا التنقل مع القطيـع بعد مرور سـاعات قليلة من ولادتها، فقطيع المَهاة دائم الحركـة كما هي حال جميع الحيوانات الصّحراوية متتبعاً المياه والكلأ أيضاً. ربما تكون حركة المَهاة في الشّمال أقل من تلك الموجـودة فـي الجنوب، لأنه من غير المرجّح أن يعاني الشّـمال من الجفاف الشّـديد كمـا هو حـال الرّبع الخالي. علّمتنا تجربة فيلبي بهذا الشّـأن الكثير، بأنه لم يرَ أكثر من المَهـاة في أفضل مناطق الصّيد التي يفضّلها رجـال القبائل المحلية. وجميعها ترتحل طلباً للمرعى وقد غادرت منطقتها.

الطعام والشّراب

المَهـاة غنيّـة عن المياه، لكنها بحاجة إلى رطوبة ومن أجل ذلك تراها تتبع المراعي الرّطبة ذات الأعشاب النّضرة مثل النَّصي Nussi والسّبط Sabat وهي غذائها المفضل دون شك، بينما تفضّل صغارها شجيرات الطّرفاء tamarisk والمنخفضة التي لا ساق لها Shrubs والتي تبحث صغار المَهاة عنها في الرّبيع.

والمرغوبـة أكثر هـي تلك النّباتـات الطّفيلية الغنية بشـكل غريب بالسّـوائل والتي تنمـو علـى جـذور الشّـجيرات الصّحراويـة، وخاصـة الطّرفـاء tamarisk والغضـا ghadha. وهناك نوعان: الأحمر *Tal'thuth. Cynomonium coccineum* والأصفر *Phelipea lutea*. تنمـو هـذه الطّفيليـات ليبلـغ طولها بقدر 18-24 إنشـاً، وهي مليئة بالعُصارة السائلة لا سيّما الجزء الأكبر منها المغطى بالرّمال. تقوم المَهاة بحفر الرّمال للحصـول على أفضـل جزء منها والغني بالعصارات. وإلـى جانب ذلك، هناك العديد

من النّباتات البصلية وغيرها من النّباتات الدَّرَنية التي تزوّد المَهاة المنقطعة عن الشّرب بالرّطوبة التي تلزمها.

وفيما يتعلق بمصطلح «المنقطعة عن الشّرب» فهو بحاجة إلى بعض التفسير. من الواضح وإلى حدّ بعيد أنّ المَهاة، وكذلك جميع الحيوانات التي تتخذ من المناطق الصّحراوية القاحلة موئلاً لها، ينبغي أن تكون قادرة على التحمّل دون شرب مياه حقيقية وإلى أجل غير محدّد. ففي أيّ حال من الأحوال ليس هناك أي احتمال لوجود مياه سطحيه مثل برك الأمطار المتجمعة في الصّخور المجوّفة لأكثر من بضعة أشهر في السّنة، وفي كثير من الأحيان حتى هذه الفرصة تكون معدومة. لذا، يمكن القول إن بمقدور المَهاة الاستغناء تماماً عن الماء إلاّ أنها سوف تشرب إذا ما أتيحت لها الفرصة للقيام بذلك. غير أن المَهاة غير قادرة على الاستغناء عن الرّطوبة، فتراها دائمة الحركة والبحث عن هذه النّباتات المتنوّعة الغنية إلى درجة أنها تسعى وراء النَّدى. وهذا الأمر ينطبق على العديد من الطّيور والحيوانات الصّحراوية الأخرى.

فالنَّعامة معروفة بأنها لا تشرب الماء، وكذلك الأمر مع الغزال والظبي ووعل التلال الصّحراوية الذي يعيش في ظل نفس الظروف التي تعيشها المَهاة. وقد روى أحد رجال قبائل عْنِزَة Anaza لفيلبي عن «المَهاة التي كان يعرفها جيداً، أنها لا تشرب الماء حتى عندما تمطر» فتكوينها «جازي» Jazi (تستعيض بالرّطوبة في المراعي دون مورد شرب فعلي) على مدار السّنة، مثل غزال الصّحراء. وحتى الإبل فإنّ بمقدورها تحمّل الصّبر على العطش لمدة شهرين أو أكثر، عندما يكون الغطاء النّباتي جيداً في الرّبيع.

والرّمال هي ملجأ المَهاة لأكثر من سبب واحد، فبالإضافة إلى كونها واسعة ومنطقة ملاذ آمنة وغير آهلة بالإنسان، فهي أيضاً المصدر الرّئيسي لإمدادها بالغذاء وبالرّطوبة التي تحتاجها. فالرّمال تحافظ على الرّطوبة بطريقة رائعة وإلى أجل غير مسمى تقريباً. وقد كان داوتي محقاً في ملاحظته: «لو أن الصّحراء زُرعت بنبات الطّرفاء tamarisks لأضحت جزيرة العرب غابة خضراء!». ولاحظ أوبير (هوبَر) أيضاً أن الشّجيرات الصّغيرة التي لا يزيد ارتفاعها عن القدمين في السّهوب تنمو لتصل إلى 9–12 قدماً

في الكثبان الرّملية. جميع النّباتات التي تنمو في الكثبان يبدو أنها تستفيد من الرّطوبة في الأعماق، والمزيّة التي تجمعها أنها في الغالب من النّباتات التي تفرز عصارات طبيعية. هنالك،على سبيل المثال، نبات «الأدر» الذي يمكن حتى للخراف (وهي حيوانات غير صحراوية) أن تتغذى عليه لمدة شهر دون أن تحتاج إلى مياه.

العــادات

تستخدم المَهاة حوافرها المفلطحة العريضة في الحفر بحثاً عن أطايب طعامها التي تنمو تحت الرّمال، كما أنها تستخدمها أيضا لتحفر عميقاً في الرّمال على شكل سُرر أو مقاعد لتختبئ بها مثل الأرانب البرية. لا ريب أن رغبتها في الحصول على سرير بارد بعد إزاحة الطّبقة السّاخنة العليا من الرّمل يحلّ في المقام الأول، ولكني أعتقد أنها تستغلّ هذه العادة بشكل مزدوج للحماية فضلا عن الرّاحة. فقد كانت مَهاة بيلهاڤن Belhaven المروّضة التي أحضرها إلى الخليج من الرّياض، لا تستطيع كبح جماح عادتها المتأصّلة فيها، ففي كل مساء ولدى وصولها إلى المخيّم بعد مسيرة يوم كامل، كانت تشرع في حفر سرير في الرّمال، وكان سريرها من العمق بمكان بحيث لا يظهر منه سوى رأسها عندما تستلقي فيه!

وبطبيعة الحال هذه عادة مشتركة بين جميع الحيوانات الصّحراوية. فالغزال يفتّش عن مكان في ظل شجيرة لتحميه من حرّ الهجير في الظهيرة، والأرانب البرية تكشط السّطح السّاخن من الرّمل للحصول مكان بارد، وحتى الكلاب المحليّة السّلوقية العربية تفعل الشّيء ذاته قبل الاستلقاء للراحة. غير أنّ المَها أتقنت فن صنع السّرير في الصّحراء إلى درجة غير عادية، وقد تكون هذه العادة هي سبب تسميّتها بهذا الاسم. إن المَهاة على حدّ تعبير كيرخماير Kirchmayer سمّيت كذلك بسبب قوّتها في الحفر، إما رغبة منها بالحصول على السّكينة وعدم الإزعاج أو بسبب طبيعتها الشّرسة، كالخنزير الذي يحفر الأرض ليس برأسه ولا بفمه وإنما بقدميه.

* * *

تخور المَهاة كالبقرة، وفي الأسر تصبح مستأنسة بقدر ما يحمل اسمها من أُنس. ولا تظهر منها ضراوتها سوى إن جُرحت أو حوصرت، وربما في حالة الدّفاع عن صغارها عندما تتعرّض لهجوم وحش مفترس. أما سرعتها وقوتها غير الطبيعية فيمكن تقديرها فـي ظل وجودهـا في ظروف غير طبيعية. لو أنّ المَهاة توطنت في السّـهوب المفتوحة لكانـت أُبيدت منذ زمن، لسـهولة قتلها في المناطق المكشـوفة، ولكن لحسـن حظها تجد في الرّمال خلاصها، فالبيئة التي يمكنها التحرّك بها بحرية كبيرة يفشل الرّجال في اجتيازها بسـهولة. غير أن جودة لحومها وقيمة جلودها التي يصعب اختراقها، تستحق من الرّجل البدوي الجهد.

يعتبـر لحم المَهـاة من أفضل لحوم الغزلان. ذكر فيلبي فـي مذكراته أن لحم المَهاة المقدد والمجفف تحت أشـعة الشّـمس يسـاوي 10 أو 12 جنيهاً اسـترلينياً في مواسم القحط بالنسبة لسكان الواحات في وادي الدَّواسِر Wadi Dawasir، الذين لا يعتبرون اللحـم الطّازج أو المقدّد مـن غذائهم اليومي. أما جلود المَهاة التي يقول أوبير (هوبَر) عنهـا إنهـا متينـة لدرجة يصعب اختـراق رصاص البندقيـة لها، فهي تسـتخدم لصناعة أفضل الصّنادل وقِرب المياه. كما أن له استخدامات ومزايا أخرى بالنسبة للعرب. أما حيازة قرن أحد تلك الظباء أو حتى جزء منه فهو بمثابة حِرز ضد الوحوش المفترسـة، في حين أن رائحة قرن محروق يبعد الثعابين السّامة.

ويقال إن دم المَهاة يستخدم ترياقاً للدغة الثعابين، ودماغها علاجٌ نافع للشلل. وقد لاحظتُ أن الصّياد المرافق لي كان يعمل على مسح عقب بندقيته (بدماغ وشعر المَهاة المقتولة حديثاً) وقال لي إن ذلك «يجلب الحظ»، ولكن قد يكون الأمر أبعد من ذلك أيضاً. ويُستعمل مطحون قرن المَهاة المحروق بعد خلطه بالطعام لعلاج الملاريا، وإن تم مزجه بالشراب كان نافعاً للباه ومنشطاً عاماً.

موطنها.

تنقسم المَهاة في يومنا هذا إلى شطرين اثنين: الشّمالي والجنوبي. هذان الشّطران معزولان تماماً ويعيشان على بُعد بضعة مئات من الأميال تقدّر بسبعمئة ميل بعيداً بعضهما عن بعض، محتفظين بملجأيهما الرّمليين أحدهما في شمالي النّفود والآخر في جنوب الرّبع الخالي. كان هذان الشّطران يشتركان في منطقة على طول حزام الدَّهناء Dahana الرّملي، ولكن من غير المرجّح أن تكون ماتزال تجوب تلك المناطق حتى الآن. أما نطاق تحرّك المجموعة الشّمالية فهو معروف جيداً، ولكن هناك قدراً كبيراً من التخمين حول ذلك في الجنوب لأن معرفتنا بتلك المنطقة ما زالت ناقصة، ولذلك فقد قمتُ بحساب أوسع نطاق حدود قد تتجاوزها في ظل الظروف القاسية.

في الشّمال، تركّزت المَهاة حول الجانب الغربي من النّفود بين الجوف وتيماء، غير أنها بطبيعة الحال لم تقترب من أيّ من تلك الواحات. تحدّد التلال المطلة على سكة الحجاز الحديدية من الشّرق الحدود الغربية للمَهاة. كما أنها لا تبتعد أكثر من جبل طُبيق شمالاً وأبعد من تيماء جنوباً. لا يوجد للمَهاة آثار في جبل شَمَّر، ولم يسجَّل أن رؤيت في الحافة الجنوبية للنَّفود بين تيماء وحائل. وسُجلت مشاهدتها لمرة واحدة في النّصف الشّرقي من النّفود، ولكن من مصدر غير موثوق تماماً.

ومن المشكوك فيه أن تتواجد في الحزام الرّملي للدَّهناء Dahana، أو أيّ من الأحزمة الرّملية الأخرى في وسط جزيرة العرب. بينما تعتبر القفار الرّملية الجنوبية الشّاسعة الواقعة من نجران إلى عُمان أهمّ وربما آخر معاقلها. فلدينا سجلات تؤكد تواجدها بدءاً من الجانب الجنوبي للصحراء في كلٍ من شمالي حضرموت وفي المناطق النّائية لظُفار Dhufar، كما نعلم أنها تتحرك في إطار ظروف معيّنة في كامل منطقة الرّمال الرّئيسية للربع الخالي إلى الغرب من خط الطّول 52 درجة. عثر فيلبي Philby على آثارها في كل مكان، وبالإضافة إلى ذلك جمع الكثير من المعلومات من مصادر طبيعية يُعتدّ بها. أقول «في إطار ظروف معيّنة» لأنه في وقت زيارة فيلبي تقاطعت جميع قطعان المَهاة المهاجرة في تلك المنطقة الواسعة مع رحلته من يبرين

عبـر الرّبـع الخالي وإلى الخلف من وادي الدَّواسِـر، فنظرا لفتـرات الجفاف الطّويلة، عملت على مغادرة المنطقة.

ربما كانت قد انتقلت آنذاك إلى منطقة نجران. ولكن عموماً، يمكن القول إن كامل الشّـق الغربـي من الرّبـع الخالي هو موطن المَهـاة في الظروف العادية. وليسـت لدينا معلومات حديثة تؤكد مدى تقدمها شرقاً باتجاه عُمان.

بينمـا يظهـر الفارق الرّئيسـي بيـن الموطنين فـي التباين في ارتفاعهما عن مسـتوى سـطح البحر. جنوباً، وعلى ارتفاع ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، تمّ العثور على المَهاة، بينما شـمالاً لـم يؤكَّد تواجد المَهاة سـوى على ارتفاع 2500 قدم. كما أن هناك فارقاً آخر ألا وهو طبيعة الأرض التي تتردّد عليها المَهاة، إذ تبيّن الصّورة في كتابنا هذا والتي كان قد التقطها بوسـكاون Boscawen الصّحراء القاحلة التي وجدَ فيها المَهاة، بينمـا تُظهـر الصّورة فـي الصّفحة المقابلة غطـاءً نباتياً كثيفاً نسـبياً في قـاع الوادي في موطنها الشّـمالي. هذا بينما وجدها توماس في بلد شـجيرات الطّرفاء من وادي غدون Ghudun وعلى ارتفاع منخفض لا يتجاوز 1200 قدم.



قائمة بالمرجعيّات العلميّة

AUTHORITIES

AYLMER, CAPT. L.
BELL, GERTRUDE LOWTHIAN
BENT, J. T.
BLAINE, G.
BLUNT, SIR W. S., and LADY ANNE
BOSCAWEN, COL. THE HON. M. T.
BURCKHARDT, J. L.
BURKE, COMMANDER
BURTON, SIR RICHARD F.
BUTLER, CAPT. S. S.
CARTWRIGHT, JOHN
CHEESMAN, MAJOR R. E.
CHESNEY, GENERAL F. R.
COOTE, GENERAL SIR EYRE
COX, MAJOR-GENERAL SIR P. Z.
CUNLIFFE-OWEN, COL. F.
DELLA VALLE, PIETRO
DOUGHTY, C. M.
DUSSAUD, R.
ELDRED, JOHN
EUTING, JULIUS
FOSTER, SIR WILLIAM
GOLDSMID, E.
GRAY, DR. J. E.
GUARMANI, CARLO
HAMILTON, COL. R.E.A. (Now Lord Belhaven and Stenton)
HOLT, MAJOR A. L.
HOGARTH, D. G.
HUBER, CHARLES
HUBRIGIUS, J. F.
HURGRONJE, J. S.
IRWIN, EYLES
JAUSSEN, PÈRE
JEFFREYS, J. GWYN
JOYCE, COL. P. C.
KIRCHMAYER, G. C.
LAWRENCE, COL. T. E.
LEACHMAN, COL. G. E.
LYDEKKER, R.
MEISSNER PASHA
MILES, COL. S. B.
MUSIL, ALOIS
NOLDE, EDWARD
OLIVIER, G. A.
ORMSBY, LIEUT. H. A.
PALLAS, P. S.
PALGRAVE, W. G.
PARSONS, ABRAHAM
PENNANT, THOMAS
PELLY, COL. LEWIS
PHILBY, H. ST. J. B.

AUTHORITIES

PLAISTED, BARTHOLOMEW
PRATER, S. H.
RALLI, A.
RASWAN, C.
RUTTER, ELDON
SAVIGNAC, PÈRE
SCLATER, P. L.
SEETZEN, U. J.
SHAKESPEAR, CAPT. W. H. I.
SHEPARD, ODELL
SHEPHERD, JOHN
ST. JOHN, MAJOR O. B. C.
TAYLOR, MAJOR JOHN
TEIXEIRA, PEDRO
TENREIRO, ANTONIO
THOMAS, BERTRAM
THOMAS, O.
TRISTRAM, CANON H. B.
VARTHEMA, LUDOVICO DI
WALLIN, G. A.
WELLSTED, J. R.
WOLF, JOSEPH
VINCENZO MARIA

ثبت المراجع

BIBLIOGRAPHY

Georg. J.—Geographical Journal.
P.R.G.S. —Proceedings of the Royal Geographical Society.
J.R.G.S. —Journal of the Royal Geographical Society.
P.Z.S. —Proceedings of the Zoological Society.

AYLMER, CAPT. L. *Baghdad to Damascus via El Jauf, Northern Arabia.* Georg. J., May, 1909.

BELL, G. L. *Gertrude Bell's Journey to Hayil.* D. G. Hogarth. Georg. J., July, 1927.
The Letters of Gertrude Bell. 2 Vols. London, 1927.

BENT, J. T. *Southern Arabia.* London, 1900.

BLUNT, LADY ANNE. *A Pilgrimage to Nejd.* 2 Vols. London, 1881.

BURCKHARDT, J. L. *Travels in Syria and the Holy Land.* London, 1822.
Notes on the Bedouins and Wahabys. 2 Vols. London, 1831.

BURKE, COMMANDER. *See* P.Z.S. 1878, p. 789.

BURTON, SIR RICHARD F. *A Plain and Literal Translation of The Arabian Nights Entertainments.* 1885.
See also Hakluyt Soc. Publ. No. 32. 1863-4. p. 46, footnote.

BUTLER, CAPT. S. S. *Baghdad to Damascus via El Jauf, Northern Arabia.* Georg. J., May, 1909.

CARRUTHERS, D. *A Journey in North Western Arabia.* Georg. J., March, 1910.
On Birds from the Dead Sea and North West Arabia, etc. The Ibis, July, 1910, pp. 475-491.

BIBLIOGRAPHY

The Great Desert Caravan Route, Aleppo to Basra. Georg. J., September, 1918.

Capt. Shakespear's Last Journey. Georg. J., May and June, 1922.

The Arabian Ostrich. The Ibis, July, 1922, pp. 471-4.

The Desert Route to India. Hakluyt Soc. Publ. Ser. II. Vol. LXIII. 1929.

CARTWRIGHT J. *The Preachers Travels, etc.* London, 1611. *See also, Purchas, His Pilgrimes* (MacLehose Ed.), Vol. VIII., pp. 482-523.

CHEESMAN, MAJOR R. E. *Recent Notes on the Arabian Ostrich. The Ibis.* April, 1923, pp. 208-11.
In Unknown Arabia. London, 1926.

CHESNEY, GENERAL F. R. *The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris in* 1835-37. 4 Vols. London, 1850.
Narrative of the Euphrates Expedition. London, 1868.

COOTE, GENERAL SIR EYRE. *Diary of a Journey from Bussora to Aleppo in* 1780 (1771). J.R.G.S. Vol. XXX. 1860, pp. 198-211.

COX, MAJOR-GENERAL SIR P. Z. *Some Excursions in Oman.* Georg. J., September, 1925, p.193.

DELLA VALLE, PIETRO. *The Travels of—, into East India and Arabia Deserta, etc.* London, 1665. Letter XI.

DOUGHTY, C. M. *Travels in North West Arabia and Nejd.* P.R.G.S. July, 1884, p. 382.
Travels in Arabia Deserta. 2 Vols. Cambridge, 1888.
The Life of Charles M. Doughty. See HOGARTH.

ELDRED, J. *See Hakluyt's Voyages.* (MacLehose Ed.). Vol. VI., pp. 1-9.

EUTING, J. *Tagbuch Einer Reise in Inner-Arabien.* 2 Vols. Leyden, 1896 and 1914.

GOLDSMID, E. M. *Un-natural History, or Myths of Ancient Science,* for translation of Kirchmayer's reprint of Hubrigius' *De Monocerote Seu Unicorn.*

BIBLIOGRAPHY

GRAY, DR. J. E. *Description of a New Species of Antelope (Oryx beatrix) from Bombay (?), lately living in the Menagerie of the Society.* P.Z.S. 1857, Part XXV., pp. 157-8.

GUARMANI, C. *Il Neged Septentrionale. Itinerario da Gerusalemme a Aneizeh nel Cassim.* Jerusalem, 1866.

HOGARTH, D. G. *The Penetration of Arabia.* London, 1905.
Problems in Exploration. Georg. J., December, 1908.
Gertrude Bell's Journey to Hayil. Georg. J., July, 1927.
The Life of Charles M. Doughty. Oxford, 1928.

HOLT, MAJOR A. L. *The Future of the North Arabian Desert.* Georg. J., October, 1923. *See also, The Ibis,* April, 1923, p. 210.

HUBER, C. *Voyage dans L'Arabie Centrale.* Bulletin de la Société de Géographie, VIIME Serie, Vol. 5, pp. 304, 468 ; Vol. 6, p. 92.
Journal d'un Voyage en Arabie (1883-1884). Paris, 1891.

HUBRIGIUS, J. F. *De Monocerote Seu Unicorn.* Wittenburg, 1660.

HURGRONJE, J. S. *Mekka.* Hague, 1888.
See also, Christians at Mecca. A. Ralli. London, 1909. Chap. XIX.

IRWIN, E. *A Series of Adventures, etc., and of a Route through the Deserts of Arabia, by Aleppo, Baghdad and the Tigris to Busrah in* 1780 *and* 1781. *In Letters to a Lady.* 2 Vols. London, 1787.

JAUSSEN, PÈRE, and PÈRE SAVIGNAC. *Mission Archéologique en Arabie.* Vol. II. Paris, 1914.

JOYCE, COL. P. C. *See, The Ibis,* April, 1923, p. 210.

KINNEAR, N. B. *Notes on the Animals of Mesopotamia.* Bombay Natural History Soc. 1916.

KIRCHMAYER, G. C. *See under* GOLDSMID.

LAWRENCE, T. E. *Seven Pillars of Wisdom.* Chaps. 42-44.
Revolt in the Desert. London, 1927. Chap. VIII.
See also, the "so-called Oxford Edition," produced (in proof only) in double column in 1922. Chap. 46.

BIBLIOGRAPHY

LYDEKKER, R., and BLAINE, G. *Catalogue of the Ungulate Mammals in the British Museum (Natural History).* London, 1914. Vol. III., pp. 129-130.

LEACHMAN, COL. G. E. *A Journey in North-Eastern Arabia.* Georg. J., March, 1911.

A Journey through Central Arabia. Georg. J., May, 1914.

MILES, COL. S. B. *Journal of an Excursion in Oman.* Geogr. J., May, 1896.

Across the Green Mountains of Oman. Geogr. J., November, 1901.

On the Borders of the Great Desert. Geogr. J., August and October, 1910.

See also, P.Z.S., 1881, p. 819.

MUSIL, A. *American Geographical Society Publication. Oriental Exploration and Studies, No. 2, Arabia Deserta.* New York, 1927.

In the Arabian Desert. London, 1931.

NOLDE, E. *Reise nach Inner Arabien, etc.* Brunswick, 1895.

OLIVER, G. A. *Voyage dans l'Empire Ottoman, L'Egypte et la Perse.* 3 Vols. Paris, 1801.

ORMESBY, LIEUT. H. A. *Narrative of a Journey across the Syrian Desert.* Trans. Bombay Geogr. Soc. 1838-40. Part IV., p. 18.

PALLAS, P. S. *Novi Commentarii Academiæ Scientiarum Imperialis Petropolitanæ.* Vol. XIII., p.470, pl. 8, fig. 5, 1769.

Spicilegia Zoologica. Fascie XII., p. 17, 1777.

PALGRAVE, W. G. *Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia.* London, 1865.

PARSONS, A. *Travels in Asia and Africa, etc.* Edited by John Paine Berjew. London, 1808.

PENNANT, T. *History of Quadrupeds.* London, 1781. Vol. I., p. 68.

Also, 3rd Edition, 1793, p. 76.

PELLY, COL. L. *A Visit to the Wahabee Capitol. Central Arabia.* J.R.G.S. 1865. Vol. XXV., p. 169.

See also, P.Z.S. 1864-5, p. 295, and 1872, p. 603.

BIBLIOGRAPHY

PHILBY, H. ST. J. B. *The Heart of Arabia.* 2 Vols. London, 1922.

Jauf and the North Arabian Desert. Geogr. J., October, 1923.

Arabia of the Wahhabis. London, 1928.

The Empty Quarter. London, 1933.

PLAISTED, B. *A Journey from Calcutta in Bengal, by Sea, to Busserah; From thence across the Great Desert to Aleppo, etc.* London, 1757.

POCOCK, R. I. *The Mammals collected in S.E. Arabia by Mr. Bertram Thomas and Mr. H. St. J. Philby.* Annals and Magazine of Natural History, Ser. 10, Vol. XV., p.441. April, 1935.

PRATER, S. H. *The Arabian Ostrich.* Journal of the Bombay Natural History Soc. March, 1921, pp. 602-605.

RALLI, A. *Christians at Mecca.* London, 1909.

RASWAN, C. *Black Tents of Arabia.* London, 1935.

RUTTER, E. *A Journey to Hail.* Geogr. J., October, 1932.

SAVIGNAC, PÈRE. *See* JAUSSEN.

SCLATER AND THOMAS. *Book of Antelopes.* Vol. IV., p. 51, pl. XXXI., 1899.

SCLATER, P. L. P.Z.S., 1872, p. 603.

SEETZEN, U. J. *Reisen durch Syrien, etc.* Berlin, 1854. *See also, Penetration of Arabia.* D. G. Hogarth, pp. 157-8.

SHAKESPEAR, CAPT. W. H. I. *Capt. Shakespear's Last Journey.* Geogr. J., May and June, 1922.

SHEPARD, O. *The Lure of the Unicorn.* London, 1930.

ST. JOHN, MAJOR O. B. C. *Note on the Locality of Oryx Beatrix.* P.Z.S., 1874, p. 95.

TAYLOR, MAJOR J. *Travels from England to India in 1789, etc.* London, 1799.

TEIXEIRA, PEDRO. *Travels of—.* Hakluyt Soc. Publ. Ser. II., No. IX., 1902.

TENREIRO, ANTONIO. *Itinerario.* Lisbon, 1560.
See also, Peregrinacio. Mendez Pinto. 1725 Edition.

THOMAS, B. *Arabia Felix.* London, 1932.

THOMAS, OLDFIELD. *On Some Specimens of Mammals from Oman.* P.Z.S., 1894, pp. 448-455. *See also,* 1903, Vol. I., p. 300.

TOWNSEND, MEREDITH. *Asia and Europe.* London, 1901.

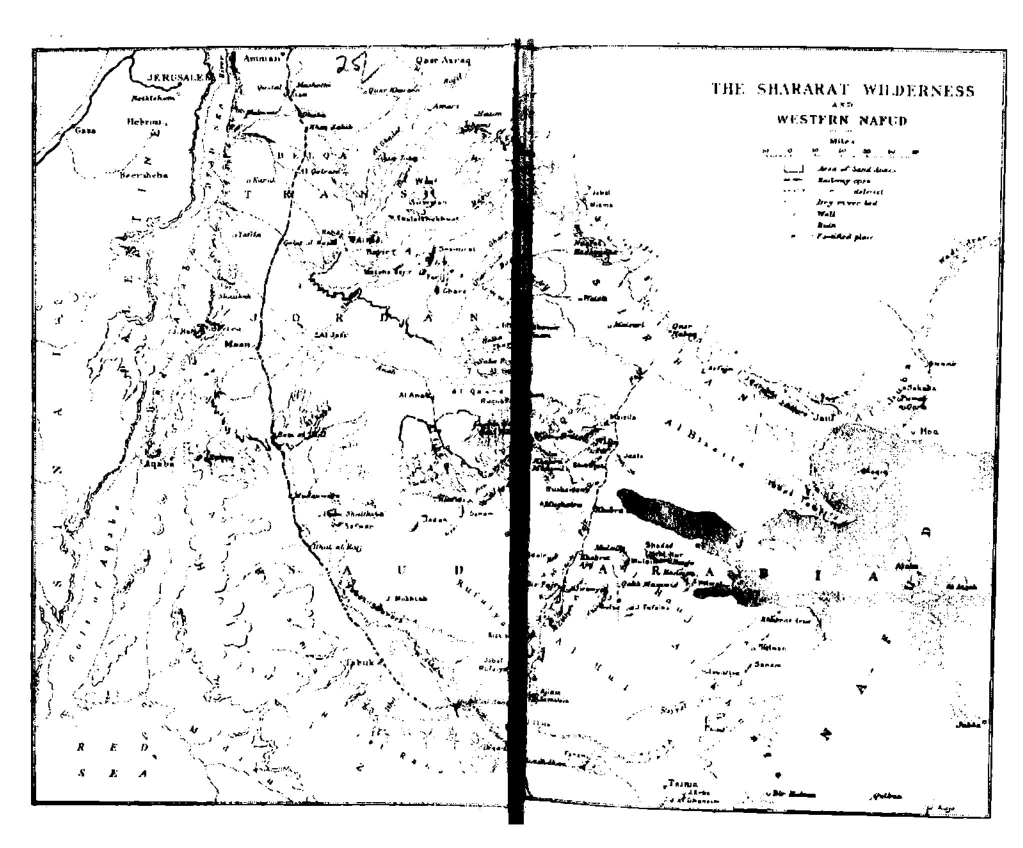
TRISTRAM, CANON H. B. *The Land of Moab.* London, 1873.
The Survey of Western Palestine. The Fauna and Flora of Palestine. Published by the Committee of the Palestine Exploration Fund. London, 1884.

VARTHEMA, LUDOVICO DI. *The Travels of—.* Hakluyt Soc. Publ. No. 32, 1863-4.

WALLIN, G. A. *Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, etc., in* 1845. J.R.G.S. Vol. XXIV., 1854, pp. 115-207.
Notes taken on a Journey through Part of Northern Arabia in 1848. J.R.G.S. Vol. XX., 1850, p. 293.

WELLSTED, J. R. *Travels in Arabia.* 2 Vols. London, 1838.
Travels to the City of the Caliphs, etc. 2 Vols. London, 1840.

VICENZO MARIA, P. F. *Viaggio all' Indie Orientali.* Roma, 1672.



خريطة 1: قفار قبيلة الشّرارات



خريطة 2: خريطة عامة لجزيرة العرب

لائحـــة بالرّسوم التوضيحية

يملأون المياه في قرب جلدية

الفطر العملاق

هوادج مزيّنة رائعة

دور في تيماء

حجر تيماء

في واحة تيماء

رجل تيماني

الشّرارت يستقون في بئر مُغَيرا

النّفود الكبير

أجمة الغضا

على الكثبان الرّملية العالية

البسَيطاء الخاوية

الجائزة

الكشافة

النَّعام العربي

هدية ملكية

بقر بوسكاون في غربي الرّبع الخالي

الخرائـــــــــــط

قفـــار الشّرارت

خريطة عامة لجزيرة العرب

المحتويات

مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النّفود، بحثاً عن الوضيحي

بين أيدينا اليوم كتابٌ ممتع وشائق وثمين، يروي وقائع رحلة استكشافيّة جريئة بأكناف صحراء النّفود في شمالي جزيرة العرب، لمغامر بريطاني لم يسمع به أكثر مثقفينا وباحثينا، هو دوغلاس كاروثرز.

نترك القارئ الكريم مع نصّ هذه المغامرة الشائقة في مفاوز صحراء النّفود بحثاً عن «أسطورة المها» التي حيّرت الباحثين وعلماء الطبيعيّات ردحاً طويلاً من الزمن، حتى حلّ مغاليقها دوغلاس كاروثرز في رحلته من دمشق إلى النّفود عام 1909، ونرى كيف أنّ هذا الرحّالة الرّائد قد جمع ما بين العزيمة والإصرار على مواجهة المخاطر والصّعاب، والتمكّن من أدوات البحث العلمي على أصولها.

السعر 55 درهماً





